

## الإهداء

الى كُلِّ حُرٍّ، أَبِيٍّ، ثَائِرٍ..  
يرفض الظلمَ، والذلَّ والهوانَ..  
ويقاوم الاستعباد والاستبداد..  
يعشق الحرية، والعدل والكرامة..  
ويقدم في سبيلها؛ من ذات نفسه: دماً وألماً..  
ومن ذات يده؛ مالاً، وجهداً..  
يصبر على أذى الظالمين، وبغيهم، وعدوانهم..  
لا يثنيه ولا يرهبه؛ قتل أو سجن، أو تعذيب أو تهجير..  
ماضٍ في سبيله بعزيمة وإصرار، وتصميم ومضاء  
حتى يبلغ غايته، أو يهلك دونها..  
بهؤلاء - حتماً - ستنتصر الأمة..  
وترفع هامتها، وتزول الغمة..



## المقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته، واستعملهم بمشيئته، لا مانع لِمَا أعطى، ولا مُعْطِيٍ لِمَا منع، من شاء خفض ومن شاء رفع.. والصلاة والسلام على قائدنا وقدوتنا ومُعَلِّمنا وسيدنا، وسيد ولد آدم، محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه، بإحسانٍ الى يوم الدين، وبعد:

فَرَضَ تَلَا حَقُّ الْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ وَتَسَاوَرَعَهَا عَلَى السَّاحَةِ الدُّوَلِيَّةِ بِشَكْلِ عَامٍ، وَالسَّاحَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ بِشَكْلِ خَاصٍّ، جُمْلَةً مِنَ التَّسَاوُلَاتِ، وَجَعَلَ الْمَوَاطِنَ الْعَرَبِيَّةَ يَقْفُ حَائِرًا، عَاجِزًا، عَنِ فَهْمِ حَقِيقَةِ مَا يَجْرِي.

وَلَأَنَّ فَهْمَ الْوَاقِعِ السِّيَاسِيِّ يَحْتَاجُ أَنْ تُحِيطَ بِهِ خُبْرًا وَيَحْتَاجُ نَظْرَةً ثَابِتَةً تَسْتَنْدُ إِلَى فِكْرٍ عَمِيقٍ، وَخِبْرَةٍ وَتَجْرِبَةٍ ثَرِيَّةٍ غَنِيَّةٍ، فَكَمَا يَقُولُ هَانِزُ مَوْرَجَنْتَاوُ «أَوَّلُ دَرْسٍ يَتَحْتَمُّ عَلَى طَلِبَةِ السِّيَاسَةِ الدُّوَلِيَّةِ تَعَلُّمُهُ وَعَدَمُ نَسْيَانِهِ هُوَ أَنَّ مَا فِي الشُّؤْنِ الدُّوَلِيَّةِ مِنْ تَعْقِيدٍ يَجْعَلُ الْحُلُولَ الْبَسِيطَةَ وَالنَّبَوَاتِ الصَّادِقَةَ تَبْدُو مُتَعَدِّرَةً، وَهَذَا يَفْتَرِقُ الْعَالَمَ الْبَاحِثُ عَنِ الْمَشْعُوزِ الدِّجَالِ»<sup>(١)</sup> فَقَدْ جَاءَ هَذَا الْكِتَابُ بِمِثَابَةِ مَدْخَلٍ لِيَلْجَ مِنْ خِلَالِهِ الشَّبَابُ الْإِسْلَامِيُّ، وَيَصِلُوا إِلَى فَهْمِ حَقِيقَةِ مَا يَجْرِي عَلَى السَّاحَةِ الدُّوَلِيَّةِ مِنْ أَحْدَاثٍ..

(١) مورجنتاو، هانز، السياسة بين الأمم، ترجمة: خيرى حمّاد، ص ٤٤، ومورجنتاو: هو عالم أمريكي من أصل ألماني، عمل في المحاماة، وكان رئيساً لمحكمة العمل في فرانكفورت في ألمانيا، ثم أصبح مستشاراً لوزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٤٩، وعمل استاذاً للاقتصاد السياسي في جامعة شيكاغو، أهم مؤلفاته: «رجل العلم وسياسات القوة» و«دفاعاً عن المصلحة القومية».

محاوِلاً - بذلك - الاجابة عن مجموعة التساؤلات، ومن أبرزها، السؤال المُلح الذي ما انفك شباب الأمة يسألونه:

هل جاءت انتكاسة الربيع العربي نتيجةً لافتقارِ القوى السياسية التي تصدّرت المشهد، خاصّةً الإسلامية منها، للمقدرة والكفاءة، والخبرة والتجربة؟ أم أنّ المؤامرة التي دُبّرت بليلى، وحيكّت بعناية وإحكام، لإجهاض وافشال هذه التجربة الغضة، كانت أكبر وأعظم من أن تضمّد تلك القوى السياسية في وجهها، ولم يكن لها أيُّ فرصة للنجاح والنجاة؟

إنّ واقع الأمة العربية والإسلامية اليوم، واقعٌ مأزومٌ محزنٌ مؤلمٌ.. أبناء الأمة متنازعون متصارعون متناحرون.. فيما أعداؤهم يأترون بهم، ويمكّرون ويدبّرون.. صوتُ الحكمة والمنطق والعقل، لم يعد يجد من يسمعه، فيما علّت أصوات أخرى، بعضها متطرّف حدّ الجنون.. وبعضها خانع حدّ الاستسلام..! بعضها فاسقٌ فاسدٌ.. وبعضها منافقٌ مدهنٌ.. وقد اختلطت الأصوات، وتداخلت الصرخات والنزعات.

وبين «ثارات الحسين» و«جثتك بالذبح».. وفي خضم ظلمات هذا البحر اللجّي، ووسط غيابات هذه الفتن، ضاعت البلاد، وفسد حال العباد.. ولن يستقيم حال الأمة إلا إذا وُسد الأمر إلى أهلها.. وعندما يلتقي الحق بالقوة، ويلتقي الشرع بالحكمة والعقل والمنطق.

وقد سعيت من خلال هذا الكتاب الى ان أوصل مجموعة من الرسائل وأسأل الله أن أكون قد نجحت في ذلك:

• رسالة إلى علماء ومفكري هذه الأمة: أن عليهم واجب دراسة الواقع دراسةً علميةً موضوعيةً معمقةً، ومن ثمّ توعيةً وتبصرةً أبناء هذه الأمة بحقيقة الواقع كما هو،

دون تسطيحٍ وتهوينٍ، أو مبالغةٍ وتهويلٍ.. وقد أثبت الواقع أن عدداً كبيراً من علمائنا مسكونون «بنظرية المؤامرة» وهم يوهمون شباب الأمة بمؤامراتٍ، غير قائمةٍ، وما لهم عليها من دليل يُعْتَدُّ به، وإنما هي من نتاج خيالاتهم، ومن صنع بنات أفكارهم.. وهم بذلك يسيئون من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

• رسالة إلى شباب الحركة الإسلامية: إنَّ الحقَّ والقوةَ أحوان لا ينبغي أن يفترقا.. الكلمةُ من لسانِ القويِّ غيرُ الكلمةِ من لسانِ الضعيفِ.. إنها من لسانِ القوي تقعُ في أذنٍ واعيةٍ وتتلقفها قلوبٌ صاغيةٌ، أمّا من لسانِ الضعيف فإنها تقع في أذنٍ صمّاءٍ، وتذهبُ هباءً!

تخيّل أن يجتمع «الحقُّ» و «القوةُ».. أن ينطقَ القويُّ بلسانِ الحقِّ.. وتتحركُ القوةُ ببوصلةِ الحقِّ والحكمةِ.

إنكم - يا شباب الإسلام - لن تصلوا لأهدافكم، ولن تبلغوا غاياتكم، بأمانيتكم، وكلماتكم، فقط.. ولن يُعطيتكم خصوصتكم ما تسعون إليه عن طيبِ خاطرٍ منهم.. لا بدّ أن تنتزعوا حقكم انتزاعاً.. لا بدّ من حشدِ القوّة، وإعدادِ العُدّة، وخوضِ غمارِ المعركةِ بكلِّ بسالةٍ، وإقدامٍ وجدارةٍ.. ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ إنكم إن لم تفعلوا ذلك.. إن تقاعستم، إن تردّدتم، إن أخزّتم أو تأخّزّتم، فاتكم غيركم، وأضعتم فرصةَ عمركم.

إنَّ القوّة التي نريدُ، إنّما هي وسيلةٌ مبصرةٌ عاقلةٌ في يدِ جماعةٍ راشدةٍ، تستخدمها حين الضرورة بقدرِها مضبوطةً بضوابطها.

إن على شباب الحركة الإسلامية اليوم أن يدركوا، أن حركتهم، تقف أمام لحظة مفصلية في تاريخها، فإمّا ان تنطلقَ منها الى السيادة والتمكين والريادة، إن عرفت

كيف تنطلق وإلى أين تنطلق، وإمّا أن تخسر موقعها، ومكانتها، وتفقد كل ما أنجزته عبر تاريخها الطويل.

• ورسالةً إلى أبناء هذه الأمة: بكافة فئاتها، وأحزابها، واتجاهاتها.. أنه آن لهم جميعاً أن يدركوا أنّ الأمة لم تجتمع يوماً، ولا يمكن أن تجتمع إلا على فكرٍ إسلاميٍّ وسطيٍّ معتدلٍ.. وقد أثبت التاريخ والواقع فشل كل من حاول قيادتها، بغير ذلك.

ولقد بنيتُ كتابي هذا على أربعة فصول:

**الفصل الأول:** خصّصته للحديث عن علم السياسة، مركزاً على علاقة علم السياسة بثلاثة من أهم علوم الاجتماع، وهي التاريخ، والجغرافية، والاقتصاد.. ذلك أنّ أيّ قرارٍ سياسيٍّ لدولة ما، لا بدّ أن يتأثر بعامل أو أكثر من هذه العوامل الثلاثة.

**والفصل الثاني:** استعرضتُ فيه فكرَ المدرسة الواقعية، التي تقوم على اعتبار أن العلاقة بين الشعوب والدول تقوم وتُدارُ من خلال صراعِ القوى، ومن خلال بحث كل دولة عن مصالحها الخاصة بها.

**أما الفصل الثالث:** فخصّصته للحديث عن السياسة الشرعية، مناقشاً مفهومي «القوة» و«نظام الحكم» من منظور الشريعة الإسلامية... داعياً إلى الموازنة والتوفيق بين متطلبات الواقع المعاصر، والنصوص الشرعية.. لينتج فكراً إسلامياً سياسياً، حركياً مرناً، يحفظ أصالة ديننا وشريعتنا ويتلاءم مع واقع عصرنا.

وأفردتُ **الفصل الرابع** من هذا الكتاب: لدراسة كتاب «الأمير» لميكافيلي، دراسةً نقديةً، قائمةً على أساس التعرُّفِ على فكر الآخرين، ونهجهم السياسي، وما الذي يمكن أن نلتقي أو نختلف معهم، فيه.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على اختيار أهم الأفكار والنظريات السياسية

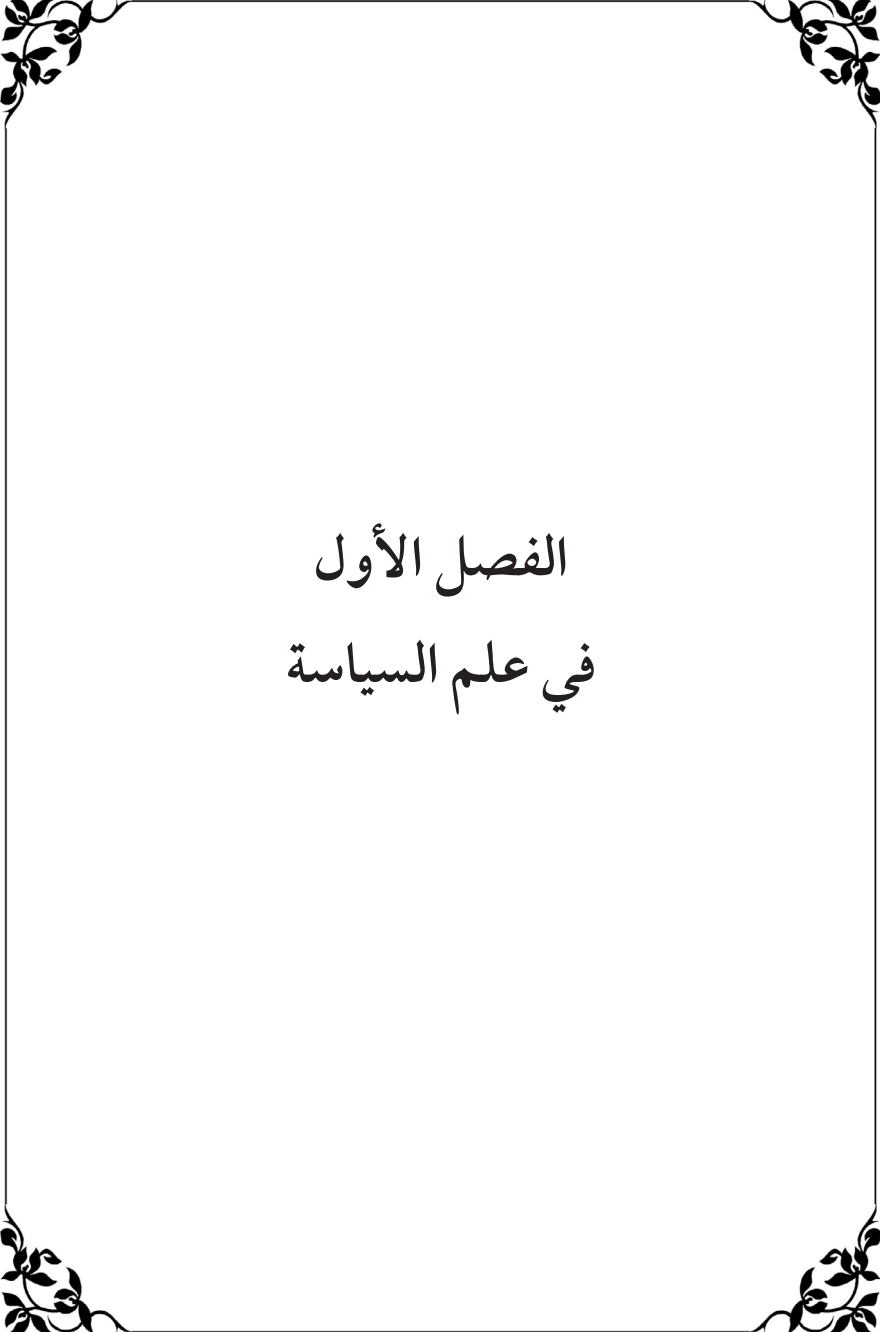
المطروحة، ومن ثمّ عمدتُ الى التعليقِ عليها، وإسقاطِها على واقعنا المعاصر، ونقدِها من منظور إسلامي حركي.

سائلاً الله تعالى أن يتقبَّلَ مِنِّي هذا الجهدَ المتواضعَ، وينفعَ به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

أبو البراء







الفصل الأول  
في علم السياسة



## تعريفُ علمِ السياسةِ

السياسة لغةً: مصدر ساس، وهي تعني التدريب والترويض والإدارة، والإصلاح. وأُطلق هذا اللفظ على سائس الخيل الذي يدرّبها، وعلى معلم الصبيان، وعلى شيخ القبيلة الذي يتولى أمورها.

وجاء في القاموس المحيط: «سُتُّ الرعية سياسةً: أمرُتها ونهيتها، وفلانٌ مجربٌ قد ساس وسيس عليه: أدبٌ وأدبٌ»<sup>(١)</sup>.

ولم يتفق علماء السياسة على تعريف محدد لها، ومن أقدم التعريفات، وأكثرها تقليديةً، هو ذلك الذي يقول بأن علم السياسة هو علم الدولة، أو هو «ذلك الفرع من العلوم الاجتماعية الذي يتناول نظرية وتنظيم وحكومة وممارسة الدولة»<sup>(٢)</sup>.

ويُعرّف أرسطو السياسة بأنها: «كل ما من شأنه أن يحقق الحياة الخيرة في مجتمع له خصائص متميزة أهمها الاستقرار والتنظيم والاكتفاء الذاتي»<sup>(٣)</sup>.

وعرف بعضهم السياسة بقولهم، هي: «برنامج عمل هادف يعقبه أداء فردي أو جماعي في التصدي لمشكلة أو لمواجهة قضية أو موضوع»<sup>(٤)</sup>.

(١) الفيروز ابادي، القاموس المحيط ٢/، باب ساس، طبعة دار الجيل - بيروت.

(٢) غالي، بطرس ود. محمود خيرى عيسى، المدخل في علم السياسة ص ٧، ٧، مكتبة الأنجلو المصرية.

(٣) محمد، علي محمد وعلي عبد المعطي محمد، السياسة بين النظرية والتطبيق، ص ١٤ - ١٥، دار النهضة - بيروت.

(٤) أندرسون، جيمس، صنع السياسات العامة، ص ١٥، ترجمة أ.د عامر الكبيسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

وهناك اتجاه حديث ذهب الى ربط السياسة بالقوة، فالسياسة في رأي هؤلاء، هي: القوة. «وبهذا المعنى تصبح دراسة السياسة هي دراسة علاقات القوة بين الناس من حيث صورها وأشكالها والنظم التي تكون معبرةً بنائياً ووظيفياً عن هذه الصور والاشكال»<sup>(١)</sup>، وأصحاب هذا الاتجاه الفكري يتبنون نظريات ميكافلي التي تجرد السياسة من الأخلاق، وتحصرها في السيطرة والهيمنة، وبالتالي فإن السياسة، حسب وجهة نظر هؤلاء، تصبح: فن التحكم بالآخرين من خلال استخدام «القوة» بكافة أشكالها لتحقيق مصالح المُنْتَحَم.

### السياسة الشرعية:

أما السياسة عند علماء المسلمين، فهي تتمحور حول مراعاة مصالح العباد الدينية والدينية. والمعنى العام لها عند علماء المسلمين القدامى، هو: «تدبير أمور الناس وشئون دنياهم بشرائع الدين»<sup>(٢)</sup> قال ابن عقيل: «السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، أبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي»<sup>(٣)</sup>.

ومما يميز السياسة في المفهوم الإسلامي عن غيرها أنها: تجمع بين الصلاح الخاص والصلاح العام فمفهوم السياسة في الإسلام «يشمل عملية الإصلاح في جميع مراحلها، ومختلف مكوناتها، وأبعادها، والمشاركين فيها، فنجد كُتِبَ السياسة عند المسلمين تُفردُ فصولاً لسياسة المرء لذاته ولخاصته إلى جانب السياسة العامة، لأنه لا انفصال بين الصلاح الخاص والصلاح العام، كما أنه لا انفصال بين الفساد الشخصي والفساد العام، فمن لا يصلح للشأن الخاص لا يصلح للشأن العام»<sup>(٤)</sup>.

(١) السياسة بين النظرية والتطبيق، ص ١٧.

(٢) القرضاوي، يوسف، السياسة الشرعية، ص ٣٢، ط ٤، مكتبة وهبة.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٤) في الاجتماع والسياسي والتنمية والاقتصاد وفقه الاصلاح، ص ١٩.

## ماهية السياسة

اختلف علماء السياسة في تحديد ماهيتها، فمنهم من اعتبرها «علمًا» ومنهم من اعتبرها «فنًا» ومنهم من اعتبرها «فلسفة»:

١- السياسة كعلم: الذين يعتبرون السياسة علمًا يعتقدون أن القدرة على الحكم وإدارة الدولة تأتي فقط من طريق: المعرفة العلمية المنظمة المعتمدة على تراكم المعلومات، وعلى الملاحظة والتجربة، وعلى اعتماد المنهج العلمي للبحث، والذي يقوم على العناصر التالية:

أ- تحديد المشكلة التي يُراد حلُّها.

ب- جَمْع المعلوماتِ اللازمةِ حول هذه المشكلة.

ج- وَضْع الافتراضات.

د- اختبار الافتراضات بناءً على المعلومات المتوفرة، للوصول إلى الافتراض الصادق.

٢- السياسة كفن: أمَّا الذين يعتبرون السياسة «فنًا» فهم يعتقدون أن ممارسة السياسة يحتاج إلى مهاراتٍ خاصةٍ بعضها يُكتسبُ من خلال الخبرة والتجربة الشخصية، وبعضها لا بُدَّ من توفره في شخصية السياسي كالإلهام والخيال الخصب الخلاق، وبعْد النظر، وسرعة البديهة والفظنة والذكاء، والحلم والأناة، فلا يصلحُ للسياسة سريع الانفعال، سريع الانبهار بالأخبار سارّها وضارّها.

٣- السياسة كفلسفة: وأمَّا الذين يعتبرون السياسة «فلسفة» فهم يرون أن الفلاسفة، خاصة فلاسفة اليونان القدماء، هم أول من تحدث في السياسة وكتب فيها، ووضع نظرياتها، وأسسها، وقواعدّها. ولاعتماد الفلاسفة المنطق والحكمة نهجاً لهم، فهم

بالتالي الاقدر والأجدر أن تُسندَ لهم السياسة، ويُعهدَ بأمرها إليهم... وذهب أفلاطون في هذا الاتجاه بعيداً إلى حد قوله: إن حكم الناس لا يستقيم ما لم يصبح الفلاسفة حكاماً، أو أن يكتسب ملوك وأمراء العالم روح الفلسفة وأصالتها.<sup>(١)</sup>

ويرى كثيرون أن السياسة يجب أن تجمع بين العلم والفن والفلسفة. فحتى يكون السياسي ناجحاً موفقاً يلزمه أن يجمع بين هذه الأبعاد الثلاثة:

فهو يحتاج أن يدرس السياسة كمبحث علمي، حيث يحصل على المعرفة والتراكم المعلوماتي «فالعلم بالتعلم». ويحتاج من الفن إلى الإلهام، والخيال الخصب، وسرعة البديهة، والفطنة والإبداع، وبُعد النظر. ومن الفلسفة إلى المنطق والحكمة والفكر الجدلي النقدي المضبوط المتزن.

ونضيف إلى ذلك أن السياسي الذي يتصدّر العمل الجماهيري ويظهر أمام الإعلام، وتسلط عليه الأضواء ينبغي أن يمتاز بمظهر مقبول، وحضورٍ مميزٍ لائقٍ، ولسانٍ فصيحٍ مبين.

فالعامية يشدّها ويجذبها المظهر - عادةً - أكثر من الجوهر.. وتلفتت إلى الشكل قبل المضمون.. فاذا أردت أن تُروِّج لبضاعتك فلا يكفي أن تكون جودتها عالية، بل يلزم كذلك أن تُزينها وتُزخرفها، وتُعرضها بشكلٍ لائقٍ يسرُّ الناظرين.

انظر كيف اعتمدَ فرعونُ «وهو يعقدُ مقارنةً بينه وبين موسى عليه السلام أمام العامة على الجانب الشكلي، وتجاهل المضمون، وجوهر الخلاف، وهو فكري عقديٌّ محضٌ، فقال: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ \* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢]

(١) أفلاطون، المدينة الفاضلة، ص ٢٦٩، ترجمة عيسى الحسن، طبعة ٢٠٠٩م، الأهلية للنشر والتوزيع.

وكانت النتيجة أن اتبع العامة المظهر والشكل وأغفلوا الجوهر والمضمون ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

يقول صاحب الظلال في التعليق على هذه الآيات:

«وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفته وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهد الطغيان المخدوعة بالأبهة والبريق: «ونادى فرعون في قومه: قال: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين؟» إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير يبهرها وتستخفها الإشارة إليه. فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما - ومصر لا تساوي هبأة فيه - فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسسه، وتعقد الموازنة بينه وبين مُلْكِ مصر الصغير الزهيد!

والجماهير المستعبدة المستغفلة يغيرها البريق الخادع القريب من عيونها، ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبُّر ذلك المُلْكِ الكوني العريض البعيد! ومن ثمَّ عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب!

﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم

بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين»<sup>(١)</sup>.

وهنا قد يسأل سائل: هل ينبغي مراعاة مزاج العامة وتقديم الذي يروق لهم ويستحسنونه أم تقديم المخلص الصالح وإن لم يحظ بقبول شعبي واسع؟

الأولى والأنسب الجمع بين صفات الكفاءة والأمانة والإخلاص والصلاح، وبين المظهر اللائق الذي يستهوي العامة ويستحوذ على اهتمامهم. فهذا موسى عليه السلام لما جاءه التكليف الرباني بالرسالة، وإدراكاً منه بالنقص الموجود عنده والمتمثل بحبسة في لسانه، حرص على سد هذه الثغرة، فدعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي \* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي \* يَقْفَهُوا قَوْلِي \* وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي \* هَؤُلَاءِ أَخِي \* أَشَدَّ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢]، وإبراز القرآن الكريم لهذا الطلب من موسى عليه السلام في أكثر من سورة من القرآن، وبصيغ مختلفة، كما في سورة الشعراء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ \* وَيَصْبِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [الشعراء: ١٣] وفي سورة القصص ﴿وَإِخِي هَؤُلَاءِ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

واستجابة الله تعالى لدعوة موسى عليه السلام يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك مراعاة الشرع والشارع هذا الأمر من اهتمام الناس بالشكل والمظهر. وحسبك شاهداً آخر على ذلك: صفات شخص الرسول محمد ﷺ، فقد كان عليه الصلاة والسلام:

«عظيم الهامة، واسع الجبين، سهل الخدين، ضليع الفم، أفلج الثنيتين، يفتر عن مثل حَبِّ الغمام، حسن الثغر.. يتلألاً وجهه كتلاؤلؤ القمر ليلة البدر، كثيف اللحية، كثيف شعر الرأس، ليس بالسبط ولا الجعد القطط.. بعيد ما بين المنكبين،

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ٥/٣١٩٣-٣١٩٤، ط ١٥، ١٩٨٨، دار الشروق - القاهرة.



عريض الصدر.. طويل الزندين.. معتدل الخلق، ربة من القوم ليس بالطويل البائن ولا القصير أزهر اللون، ليس بالأديم ولا بالأبيض الأمهق..»<sup>(١)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ أفصح العرب، يتكلم بجوامع الكلم، وينطق بالحكمة، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، لا يسرد الكلام سرداً.. وينطق بالحكمة.

فهذه الصفات الكريمة المميزة لشخصه ﷺ تؤكد أهمية أن يحظى الداعية ورجل السياسة بالقبول، والحضور المميز لدى الجماهير.

ألم بأن لقادة الحركات الإسلامية مراعاة هذه الملاحظات، - التي تعد من البدهيات - فيعدوا ويؤهلوا، ثم يقدموا للعمل السياسي، كل عالم خبير، مفكر مبدع قدير، حسن الخلق والخلق، منطلق اللسان؛ فصاحة وبلاغة وبياناً؟!!



---

(١) الجوزي، أبو الفرج، الوفا بأحوال المصطفى، بتصرف ٢/٧-١٩، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

## العلاقة بين السياسة والعلوم الأخرى

ترتبط السياسة ارتباطاً وثيقاً بسائر العلوم الاجتماعية الأخرى، فالعلوم الاجتماعية كلها يجمعها إطار واحد هو دراسة الإنسان في المجتمع، ودراسة كل ما له علاقة بالمجتمع.. غير أننا سنقصر حديثنا في هذا المقام على دراسة علاقة السياسة بثلاثة من تلك العلوم، وهي: التاريخ، الجغرافيا، الاقتصاد، لتقديرنا أنها الأكثر أهمية وارتباطاً.

### أولاً: السياسة والتاريخ

التاريخ: جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، ويقال: فلان تاريخ قومه: إليه ينتهي شرفهم ورياستهم.

(التأريخ): تسجيل هذه الأحوال، (المؤرخ): عالم التأريخ<sup>(١)</sup> والتاريخ من أوثق العلوم صلة بالسياسة، وما من دولة من الدول إلا وللبعد التاريخي أثر كبير واضح في سياستها خاصة الخارجية منها.

والتاريخ يزخر بالأحداث الكبرى التي بقيت آثارها لفترات متفاوتة من الزمن، ومنها ما استبقى آثارها حاضرة إلى يوم القيامة.. ولعل الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما تمخض عنها من نتائج، تعدان من أكبر أحداث التاريخ المعاصر تأثيراً في السياسة العالمية ولا بد لأي سياسي من دراستها دراسة معمقة.. غير أننا هنا، سنعرض لأحداث

(١) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وزملاؤه، الطبعة الثانية.

تاريخية هي الأكبر والأقدم، والأكثر تأثيراً وعمقاً. وهي: الديانات السماوية الثلاث. «يعد الدين من العوامل التي تؤثر بشكل متميز في السياسة الدولية، وإذا كان العالم تسوده أديان مختلفة فلا شك أن هذه الأديان تؤثر على اتجاهات وسلوك معتنقيها في السياسة الدولية.. فاضطهاد المسلمين في عدد من الدول يفسر بعدد من العوامل بينها العامل الديني. إن بعض الدول في سلوكها الدولي وفي سياستها المعلنة تركز على ما يسمى بالعلمانية، ولكن الواقع غالباً ما يكون غير ذلك. فموقف الهند مثلاً من قضايا أفغانستان، والباكستان والأقلية الإسلامية الكبيرة في الهند يفسر ضمن ما يسمى بالعامل الديني. ومواقف الغرب من إسرائيل، ومن قضايا الأقليات الإسلامية في العالم يفسر ضمن ما يسمى بالعامل الديني. رغم عدم وجود هذا العامل في السياسات المعلنة للغرب.. وإذا رجعنا إلى محاولات الدول الكبرى لاستخدام الوسائل الثقافية في سياستها الخارجية تجسد لنا الغزو الثقافي الذي تمارسه تلك الدول في العالمين العربي والإسلامي»<sup>(١)</sup>. وكيف لأحد أن يتجاهل تأثير الديانات السماوية الثلاث منذ وجودها، عبر العصور، وحتى يومنا هذا على سياسات مختلف الأمم والدول؟!

## ١- الديانة اليهودية:

كان للمسألة اليهودية حضوراً كبيراً لافتاً في السياسة العالمية عبر العصور.. فالعصور القديمة شهدت بعثة موسى عليه السلام، الذي أرسله ربه إلى فرعون، ليدعوه إلى عبادة الله وحده، ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَنَ﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٧-١٩] وأن يأذن لبني إسرائيل بالهجرة إلى فلسطين ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَن أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦-١٧] فكان من أمر فرعون أن عصي رسول ربه، واستكبر، وطغى وتجبر.

(١) العويني، محمد علي، العلاقات الدولية المعاصرة، ص ٤٤ - ٤٦، مكتبة الأنجلو المصرية.

ورغم ذلك تمكن موسى عليه السلام من الخروج ببني إسرائيل من مصر نحو فلسطين ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ﴾ [طه: ٧٨]، وكان خروج بني إسرائيل من مصر حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم حصل التيه لبني إسرائيل (٤٠) سنة في صحراء سيناء، وتوفي موسى وهارون عليهما السلام قبل أن يدخل فلسطين.. ثم قاد بني إسرائيل «يوشع بن نون» والذي نجح في عبور نهر الأردن، والاستيلاء على مدينة أريحا، ومدن فلسطينية أخرى، غير أنه لم يتمكن من دخول مدينة القدس.. أعقب موت «يوشع بن نون» عهد القضاة، وسمي بذلك لان الزعماء والقادة الذين قادوا بني إسرائيل بعد «يوشع بن نون» سموا قضاة، وبلغ عددهم نحو خمسة عشر قاضياً.. واستمر عهد القضاة إلى أن قامت مملكة بني إسرائيل على يد الملك (طالوت)، وشهد عصر القضاة حروباً وصراعات داخلية وخارجية كثيرة، ويعد من أسوأ عهود بني إسرائيل، حيث اتسعت فيه دائرة النزاعات والصراعات الداخلية، وانتشرت شتى الموبقات والرذائل والمنكرات.. إلى أن بعث الله لهم «طالوت ملكاً» فحارب العمالقة والعمونيين، وأسس المملكة اليهودية حوالي سنة (١٠٩٥ ق.م). وكان أول ملوكهم طالوت الذي قتل بعد نحو عامين من ملكه، ليتولى ملك بني إسرائيل من بعده داود عليه السلام الذي دام ملكه نحو أربعين عاماً، في السبعة الأولى منها كانت مدينة «الخليل» هي عاصمة مملكته، ثم أصبحت «القدس» بعد ذلك هي العاصمة.. وتولى ملك بني إسرائيل بعد داود، ابنه سليمان (٩٦٠-٩٣٥ ق.م). يقول الاستاذ محمد عزة دروزة: «إذا أردنا أن نجمل عهد سليمان - عليه السلام - بكلمة، فمن الحق أن نقول: إن سلطانه لم يتجاوز أرض كنعان - غرب الأردن - وأن عهده كان أكثر استقراراً وهدوءاً وأقل مشاكل من عهد أبيه، وإن لم يخل هو الآخر من مشاكل ومزعجات داخلية وخارجية»<sup>(١)</sup>، وسمي عهد طالوت، وداود

(١) دروزة، محمد عزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص ١٢٣، ط ١، ١٩٦٩م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

وسليمان عليهما السلام بعهد الملوك الأول، الذي انتهى بوفاة سليمان عليه السلام. وبعد وفاته عليه السلام انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى مملكتين، مملكة في الشمال عاصمتها السامرة، ومملكة يهودا وعاصمتها «اورشليم». واشتدت الصراعات والحروب بين المملكتين وأخذت كل مملكة تغري العدو الخارجي بالأخرى.

وفي عام (٥٩٧ ق.م) زحف نبوخذ نصر الكلداني على فلسطين واستولى على القدس، وفي عام (٥٨٦ ق.م) قام بتدمير مدينة القدس وهدم الهيكل، وسبى نحو (١٥٠ ألف) يهودي ونقلهم إلى بابل، فيما عرف بالسبي البابلي.

وعندما احتل الفرس بابل خضعت فلسطين لملكهم، وأدت الجزية لهم، وقام الملك قورش عام (٥٣٩ ق.م) بالسماح لليهود الذين أسرههم نبوخذ نصر بالعودة إلى القدس حيث أعادوا بناء الهيكل من جديد.

وفي العصور الوسطى: وبعد أن ثار اليهود في عهد «نيرون» وقتلوا الحامية الرومانية في القدس، انتقم منهم طيطوس وحاصر القدس ودخلها سنة (٧٠م) ودمرها وأحرق الهيكل. وروع كهنته، وتشتت اليهود في أصقاع الأرض.

وسنة (١٣٢ - ١٣٥ م) قام «هدريان» بجعل القدس مستعمرة رومانية باسم «إيليا كابيتولينا» ومنع اليهود من السكن فيها، واقتصر ساكنوها على المسيحيين من أصل إغريقي روماني.

وفي العهد الإسلامي: عقد الرسول ﷺ وثيقة تفاهمات مع يهود المدينة المنورة، لكنهم نقضوا الوثيقة جماعة تلو الأخرى، فحاربهم الرسول ﷺ وأجلاهم عن المدينة. وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم إجلاؤهم عن جزيرة العرب بالكامل. ولما فتحت القدس في عهد خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعطى نصارى القدس عهداً عرف «بالعهدة العمرية» قضى بمنح سكان القدس

الأمان على أنفسهم ودينهم وكنائسهم وصلبانهم، وأن لا يسكنها معهم أحد من يهود. وشهد عصر النهضة والعصر الحديث موجة من الاضطهاد والتنكيل في أوروبا. واشتهر نظام (الجيتو) وهو يعني: الأحياء المستقلة لليهود، والذي بدأ بالظهور في أعقاب إصدار لاتيران كونسيلي الثالث عام ١١٩٧م قراراً بمعاقة أي مسيحي بالحرمان إذا ما أقدم على العيش مع اليهود. وبلغ اضطهاد اليهود ذروته في عهد النازية، حيث أقيمت معسكرات اعتقال جماعي، عرفت فيما بعد بمعسكرات الإبادة الجماعية. وفي تلك الأثناء تشكلت الحركة الصهيونية<sup>(١)</sup>، التي هدفت إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وأول وأهم عمل قامت به الحركة الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود من أقطار العالم، إلى جهات محددة خاصة فلسطين والولايات المتحدة الأمريكية: إلى فلسطين لتعزيز وجودهم فيها، ورُوعي أن يكون أغلب المهاجرين إليها من الشباب القادرين على القتال. وإلى الولايات المتحدة لتنبئهم انها ستكون الدولة الأكثر تأثيراً في السياسة العالمية، وكان أغلب المهاجرين إليها من كبار السن والعلماء والخبراء أصحاب رؤوس الأموال، حيث شكل هؤلاء جماعة ضغط يهودية قوية مؤثرة.. ويعتبر بن غوريون من أبرز الزعماء اليهود الذين دفعوا بكل قوة إلى تركيز قوة الضغط اليهودي في أمريكا.

وفي تاريخ: ٢/١١/١٩١٧م أصدر وزير خارجية بريطانيا وعده المشؤوم بمنح اليهود وطناً قومياً لهم في فلسطين «إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل أفضل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية». وفتحت أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وشجعتهها قوة الاستعمار البريطاني، حتى بلغ ما دخل البلاد منذ استعمارها حتى عام ١٩٢٨م

(١) الصهيونية: نسبة الى جبل صهيون في القدس، وظهرت الحركة الصهيونية بشكل خاص بعد المؤتمر الصهيوني الاول في بال بسويسرة سنة ١٨٩٧ برئاسة هرتسل.

نحو (١٠٢٠٠٠) مهاجر مع تيسير تجنيس من يشاء منهم بالجنسية الفلسطينية.. كما سهلت سلطات الانتداب البريطاني لليهود شراء أكثر من مئتي ألف دونم من أراضي مرج ابن عامر، وفي إطار تضييقها على الفلسطينيين وتقديم التسهيلات لليهود منعت تصدير الحبوب والزيت حتى تهبط أسعارها ويعجز الفلاحون عن تسديد ديونهم ودفع الضرائب المفروضة عليهم فيضطروا لبيع أرضهم لليهود. في مقابل ذلك عملت سلطات «الانتداب البريطاني» على تشجيع الصناعات اليهودية وحمايتها على حساب مصلحة العرب.

وبدأت صفحة الصراع العربي الصهيوني تخط بالدم والنار فكانت الثورات العربية، والمقاومة، والحروب، وكانت النكبة والنكسة. واحتلت فلسطين بأكملها على حين فرقة من العرب وضعف وجهل وهوان، وغدر وخيانات وخذلان، فيما عمل يهود بكل حنكة وعزم ودهاء.. وأمدهم أعداء الإسلام - غربيون وشرقيون - بالمال والسلاح والمواقف السياسية.. لكن الصراع ما زال مستمراً، والمقاومة مستمرة، وبأسلة.. ولا تزال السياسة الخارجية لجميع دول العالم متأثرة ومؤثرة في هذا الصراع.

## ٢- الديانة المسيحية:

كان لظهور الديانة المسيحية أكبر الأثر في الحياة السياسية والفكر السياسي خلال العصور الوسطى. فقد وقع المسيحيون بداية الأمر تحت بطش واضطهاد الامبراطورية الرومانية، إلى أن قام الامبراطور قسطنطين بالاعتراف بالمسيحية كدين رسمي وحيد مسموح به في الامبراطورية في القرن الرابع الميلادي.. وبغض النظر عمَّا اعتقده كثيرون من أن خطوة الامبراطور قسطنطين هذه جاءت بدوافع سياسية لحاجته إلى تأييد الكنيسة والمسيحيين لحكمه وكسبهم لصفه.. كانت المحصلة أن الكنيسة استفادت من هذا القرار،

واستغلته سريعاً في تعزيز نفوذها واصبحت تشكل قوة موازية لقوة الدولة والامبراطور. فنشأت سلطتان: سلطة دنيوية يرأسها الامبراطور، واخرى دينية يرأسها البابا. وبدأت الصراعات بين هاتين السلطتين.. وظهرت دعوات للتوافق منادية بالمقولة المشهورة «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» وكان من بين المنادين بهذا الفكر القديس أوغسطين (٣٥٤م - ٤٣٠م) الذي اعتبر أن الفرد ينتمي إلى مجتمعين أو دولتين في وقت واحد، فهو مكون من عنصرين: الروح والجسد، ولذلك ينتمي إلى وطنين: الأرض والسماء، وأمور الناس قسمين: قسم دنيوي يختص بأمور الجسد، وقسم ديني يختص بالروح. لكن هذا الفكر التوفيقى، والذي استلهمت «العلمانية» اليوم فكرتها منه، لم يستطع أن يوقف الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية.. واستمرت المنافسة والصراع على الصلاحيات بين الكنيسة والملك ومحاولة كل جهة السيطرة على الأخرى قروناً طويلة.

ثم ما لبث أن انقسمت الكنيسة على نفسها، وتفرق المسيحيون طوائف قديماً.. واقتتلوا في ما بينهم، وتصارعوا باسم الدين والكنيسة.. وانتهى هذا الانشقاق إلى القطيعة الدينية والانفصال بين الكنيسة الشرقية والغربية في القرن الحادي عشر، سنة ١٠٥٤م.

### الحروب الصليبية:

لا يختلف اثنان على أن النزعة الدينية كانت تكمن وراء كل الحركات الصليبية، يقول المؤرخ البريطاني ستيفنسون: إن كل رجل عادي في الحروب الصليبية أصبح لديه إحساس معين بأنه يقوم بواجب ديني ويرنو إلى بركات هذا الواجب وما سيجنيه من ثمرات الحج والنضال من أجل المسيح!

وقد بدأت الحروب الصليبية أولاً ضد المسلمين في الأندلس، فكانت مدخلاً



للحروب الصليبية في الشام وغيرها من البلدان الإسلامية.. فالكنيسة الغربية، والقوى المسيحية عموماً كانت تتحين الفرصة لاسترداد الجزء الأكبر من إسبانيا، وما قام به «شارلمان» من حرب ضد المسلمين في إسبانيا أواخر القرن الثامن الميلادي شاهد على ذلك.. وشكلت هزائم المسلمين المتلاحقة، وانحسار ملكهم التدريجي في بلاد الأندلس والتي انتهت بسقوط غرناطة سنة (١٤٩٢ م) دافعاً ومشجعاً للحروب الصليبية. وما محاكم التفتيش التي أشرفت عليها الكنيسة في إسبانيا إلا شاهد على الدور الكبير الذي لعبته الكنيسة في تلك المرحلة.

وكانت أهم معارك الحروب الصليبية - التي ينسب انطلاقتها بالدرجة الأولى إلى البابا أربان الثاني - بين عامي (١٠٩٥ - ١٢٩١)، وشملت ثماني حملات:

- أربع حملات منها توجهت نحو بلاد الشام، وهي (الأولى والثانية والثالثة والسادسة).

- اثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة).

- واحدة ضد القسطنطينية (الرابعة).

- واحدة توجهت الى شمال أفريقية (الثامنة).

وتم تصفية الصليبيين وإنهاء وجودهم في المشرق الإسلامي على يد المماليك. ومع بداية عصر النهضة ضعف دور الكنيسة بشكل تدريجي، وذلك بعد أن انقسمت الكنيسة بإقامة إيطاليا «بابا» في روما منافساً للبابا الموجود في أفنيون في فرنسا.

هذا الانقسام جعل كل بابا يسابق الآخر في منح الملوك مزيداً من الامتيازات السياسية، وزادت مصروفات الكنيسة بسبب وجود بلاطين، ولكي تواجه زيادة المصروفات

اضطرت إلى رفع الضرائب، وابتداع وسائل جديدة للحصول على المال مثل بيع صكوك الغفران، فعمت المسيحيين موجة من التدمير ضد «رجال الدين».. وقد أدى هذا التدمير إلى ثورة على رجال الكنيسة سميت بثورة الاحتجاج أو الثورة البروتستانتية<sup>(١)</sup>.

واستمر دور الكنيسة وتأثيرها السياسي بالانحسار التدريجي إلى أن تم تحييدها بشكل شبه كامل، وفصل الدين عن السياسة في أوروبا.

### الغزو الاستعماري:

ظهر الاستعمار الاستيطاني الأوروبي في العالم الجديد وفي أفريقيا وآسيا، عندما نشطت حركة الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر، وأدى نهب خيرات تلك المستعمرات إلى فتح شهية الدول المستعمرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعد الثورة الصناعية، وما أدت إليه من ظهور الشركات الكبرى، ونشاط واتساع حركة التجارة الدولية.. فاشتدت المنافسة بين الدول الأوروبية على استعمار الدول الأفريقية الآسيوية، للاستحواذ على ثرواتها، وفتح أسواق تجارية لها فيها، وكذلك السيطرة على الممرات البرية والبحرية للتحكم بطرق المواصلات الدولية.

ومع أن أهداف الغزو الاستعماري في مجملها اقتصادية بحتة، إلا أن البعد الديني والثقافي لم يغب عنها.. فنلاحظ أن الغزو الأوروبي الاستعماري رافقته حملات تبشيرية وغزو فكري وثقافي مدروس وممنهج.

وقد شجع التدهور والضعف الذي دب في جسم دولة الخلافة العثمانية، والتي أصبحت تسمى «بالرجل المريض» الدول الاستعمارية لأن تنشب أنيابها في جسدها وتنهشه شيئاً فشيئاً.

وكانت الحملة الفرنسية أولى تلك الحملات، «بعد أن فتح نابليون إيطاليا عام

(١) المدخل في علم السياسة، ص ٩٤.

١٧٩٧م وزحف على شبه جزيرة البلقان، بلغ حدود «الامبراطورية العثمانية» التي كانت تعاني يومئذ من أزمة عميقة ففي الحروب التي كانت قد خاضتها ضد النمسا وروسيا منذ أمد قريب، مُنيت بعدد من الهزائم الكبيرة. فأصبحت الامبراطورية وهي واهنة القوى، هدفاً مغرياً لكل نوع من المخاطر التوسعية التي كانت تسعى إليها «البرجوازية الفرنسية» وفي ذلك الحين كتب نابليون إلى حكومته: إن الامبراطورية العثمانية على شفا الهاوية، وليس ثمة ما يدعونا إلى إسنادها»<sup>(١)</sup>.

وبدأت الحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨م) وقاد نابليون بنفسه تلك الحملة المؤلفة من (٣٠ ألف مقاتل) واستولى في طريقه على جزيرة مالطة، وانطلق إلى الإسكندرية واستولى عليها بسهولة، فرغم محاولة أهلها المقاومة إلا أنهم سرعان ما قهروا بسبب قلة عددهم وعدتهم.. ثم توجه نابليون بجيشه جنوباً نحو القاهرة.. ووجه نداءً إلى الشعب المصري مستهلاً إياه ببسم الله الرحمن الرحيم موهما المصريين البسطاء أنه مسلم جاء ليدافع عن حقوقهم ويرفع الظلم عنهم، ومما جاء في نداءه: «يا أيها المصريون قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح، فلا تصدقوه، وقولوا للمفتريين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، واحترم نبيه، والقرآن العظيم، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط.. أيها المشايخ والقضاة والأئمة، والجرجية، وأعيان البلد، قولوا لأمتكم ان فرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

(١) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص ٤٣، ٨، ط ١٩٨٥م، دار الفارابي.

(٢) تاريخ الاقطار العربية الحديث، لوتسكي، ص ٤٦ - ٤٧.

ومحتوى هذا النداء إضافة إلى ارتداء نابليون الثياب المصرية التقليدية وتردده على المساجد أيام الجمع ودفعه لأحد جنرالاته لاعتناق الإسلام، يؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن البعد الديني لم يغيب لحظة عن المشهد في مرحلة الغزو الاستعماري.. وقوبل الغزو الفرنسي بمقاومة بأسلة شرسة من المصريين، وكان للأزهر وعلماء الإسلام دور بارز في إشعال هذه المقاومة.. كما كان لتدخل الأسطول الإنجليزي في المعركة وتدميره الأسطول الفرنسي الذي كان مرابطاً في أبي قير وإعلان «الباب العالي» الحرب على فرنسا أثر كبير في تعاضم مقاومة الاستعمار الفرنسي ومن ثم دحره.

وقرر نابليون الزحف نحو الشمال عام ١٧٩٩م، واستولى على العريش وغزة ويافا وحيفا، غير أن أسوار عكا سدت عليه طريقه، وصمدت في وجهه، وردته خائباً مدحوراً.

وبعد أن مني بالفشل قرر نابليون العودة إلى مصر، ليغادرها في (٢٢ آب - ١٧٩٩م) متوجهاً إلى فرنسا لإقضاء حكومتها.. وازداد وضع الجيش الفرنسي في مصر صعوبة بعد مغادرة نابليون.. وبعد اغتيال قائد الجيش كليبر في (١٤ حزيران - ١٨٠٠م) على يد البطل سليمان الحلبي، حيث طعنه بخنجره عدة طعنات.. «وحكمت المحكمة العسكرية الفرنسية بحرق يد سليمان، ومن ثم خوزقته، كما قطعت رؤوس أربعة شيوخ مسلمين بتهمة اشتراكهم في «الجريمة». وقد قابل سليمان الموت ببسالة. إذ وضع يده بجرأة في النار الملتهبة، ولم ينبس ببنت شفة حينما كانت تحترق. كما كان بأسلاً طيلة الساعات الأربع والنصف الذي قضى من بعدها نحبه وهو مخزوق»<sup>(١)</sup>.

وفي أكتوبر عام ١٨٠١م وقعت فرنسا معاهدة الصلح مع تركيا، وانتهت حملتها

(١) تاريخ الاقطار العربية الحديث، لوتسكي، ص ٥٤ - ٥٥.

بالفشل الذريع. لكن التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا لم يتوقف، وكان الوطن العربي هو الضحية في ذلك، لضعف الخلافة العثمانية ولموقعه الاستراتيجي، ولثروته الغنية، ولحقده ديني غربي دفين.

فاحتلت فرنسا الجزائر عام (١٨٣٠م) وفرضت وصايتها على تونس عام (١٨٨١م) وعلى مراكش عام (١٩١٢م).

فيما احتلت بريطانيا مصر والسودان وفرضت وصايتها عليها عام (١٨٨٢م) كما وأخضعت أجزاء من الجزيرة العربية واليمن لسلطتها..

أما إيطاليا فاحتلت برقة وطرابلس الغرب عام (١٩١١م).

وبتاريخ (١٥ أيار - ١٩١٦م) عقدت اتفاقية سايكس - بيكو بين بريطانيا وفرنسا «ويقضي الاتفاق بأن تكون سورية الساحلية من الناقورة إلى الإسكندرية ومنطقة الموصل في العراق حصة فرنسا، ويكون العراق من شمال بغداد حتى خليج البصرة، وما بين البصرة والمنطقة الفرنسية، وميناء حيفا وعكا حصة بريطانيا. وفرنسا وبريطانيا التحكم في منطقتيهما مباشرة، أو بالواسطة، أما فلسطين (عدا حيفا وعكا) فتتשא فيها إدارة دولية وتقوم دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية في داخل سورية تحميها فرنسا وبريطانيا على أن يكون لفرنسا في شمال هذه الدولة (أي في دمشق وحلب والموصل) ولبريطانيا في جنوبها (أي في شرق الأردن من الشمال الشرقي لبغداد) نفوذ وفق الاولوية في مشروعاتها الاقتصادية»<sup>(١)</sup>.

وبعد اتفاقية سايكس بيكو وسع المستعمرون من سيطرتهم وضموا إليهم أجزاء أخرى من أرض الخلافة العثمانية.. لكن سرعان ما ثار المسلمون على المحتلين المستعمرين: فثارت الجزائر «ثورة المليون شهيد» وثار الشمال الإفريقي: المغرب

(١) زعيتر، أكرم، القضية الفلسطينية، ص ٤٠، ط ٣، دار الجيل للنشر - عمان.

وتونس على الاستعمار الفرنسي، واثارت ليبيا عمر المختار على الاحتلال الإيطالي. واثارت مصر والسودان والعراق وفلسطين على الاحتلال البريطاني واثارت سوريا على الاحتلال الفرنسي.

وأدرك المستعمرون أن عمرهم في هذه البلاد قصير، فرحلوا، لكنهم قبل أن يرحلوا مهدوا لأن يستلم الحكم من بعدهم زعماء تبعاً لهم يحافظون على مصالحهم، ويأتمرون بأمرهم.

وأظهرت الأيام أن الاحتلال رحل بجيشه وعساكره.. فيما لا زالت سلطته في بلادنا هي العليا: سياسياً، واقتصادياً، وفكرياً وثقافياً بل وعسكرياً، فهو الذي يصنع حربنا متى يشاء وكيفما يشاء، ويوقفها متى يشاء!

«إن دراسة هذه الفترة برؤية إسلامية صحيحة من أزم اللوازم للمسلم المعاصر، لأن معظم ما كتب له عنها هو ذاته جزء من الغزو الفكري الذي قصد به تحويله عن إسلامه، وعن رؤيته للأمر من زاوية الرصد الإسلامية، ليقبل ما أريد له من الابتعاد عن الإسلام سواء في الفكر والتصورات والسلوك، وليصبح بعد ذلك مستعبداً للغرب، يوحى له الغرب ما يشاء فيصدق، ويوحى إليه ما يشاء فيفعله، وهو كالدابة التي تدور مغمضة العينين في الطاحون وهي تظن أنها تسير في خط مستقيم! وتطحن الغلال للسيد الذي يسخرها بينما تكتفي هي بما يقدم لها السيد من الأعلاف!»<sup>(١)</sup>.

واليوم ورغم إعلان الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية علمانيتها، إلا أن البعد الديني «المسيحي» لا يزال مؤثراً وبشكل كبير في سياستها، نجد ذلك عند الولايات المتحدة - على سبيل المثال - من خلال الشواهد التالية:

(١) قطب، محمد، كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص ٢١٠، دار الشروق.

• «السفارة المسيحية الدولية» وتأسست هذه الهيئة سنة ١٩٨٥م في أعقاب مؤتمر تضامني مع «إسرائيل» تداعي لعقده أكثر من ألف شخصية دينية أمريكية من الكنائس الإنجيلية المتطرفة، برئاسة الدكتور دوغلاس يونغ - مدير المعهد الأمريكي لدراسة الأرض المقدسة - واختير الدكتور فان دير هوفين رئيساً لهذه الهيئة.

«عملت السفارة المسيحية الدولية على تحقيق معظم الأهداف التي أعلنتها عام ١٩٨٥م، ومن أبرزها نقل يهود الاتحاد السوفيتي السابق إلى «إسرائيل» وإنهاء المقاطعة ضد المصالح الإسرائيلية، وحمل دولة الفاتيكان وإسبانيا على الاعتراف بإسرائيل، وتبادل التمثيل الدبلوماسي معها، والضغط على دول أوروبا الشرقية والوسطى لتطبيع علاقتها مع «إسرائيل» ودعوة العالم إلى الاعتراف بالقدس عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل. وقد لعبت المنظمة الدور الأبرز في استصدار القرار الأول عن مجلس الكونجرس الأمريكي (الشيوخ والنواب) في إبريل ١٩٩٠م الذي نص على دعوة الإدارة الأمريكية إلى الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، ثم باستصدار القرار الثاني في عام ١٩٩٥م بنقل مقر السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس»<sup>(١)</sup>.

كما وتتولى هذه المنظمة، تنظيم عمل (٢٥٠) هيئة وجمعية أمريكية «غير يهودية» تعمل في الولايات المتحدة على قاعدة تفسيرات صهيونية لما يعتقد أنه نبوءات توراثية تتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة صهيون التي يظهر فيها المسيح مخلصاً للإنسانية من الشرور التي تغرق فيها»<sup>(٢)</sup>.

• عداء الإعلام الأمريكي بشكل واضح للإسلام والمسلمين وشنه حملة مغرضة ممنهجة، تصور الإسلام والمسلمين همجاً إرهابيين، يرفضون الحضارة والتقدم ويضطهدون المرأة والأقليات ويحاربون المصالح الغربية. حتى إنك تجد

(١) الاستغلال الديني في الصراع السياسي، ص ٤٢ - ٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤.

الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون يعبر عن ذلك في كتابه «اقتناص اللحظة» فيقول: «ليس لأي أمة في العالم ولا حتى الصين صورة سلبية في الضمير الأمريكي مثل صورة العالم الإسلامي»<sup>(١)</sup>، ولا يخفى على أحد أن الأصابع اليهودية تقف خلف هذه الحرب الإعلامية.

• ورد في كتاب «النبوءة والسياسة» للكاتبة الأمريكية غريس هالسل (كانت تحرر نصوص خطابات الرئيس الأسبق ليندون جونسون) من أنه في كل مرة تطرح قضية أساسية تتعلق بالشرق الأوسط أمام مجلس الأمن القومي الأمريكي كان يدعى إلى الاجتماع ممثلون عن الكنيسة للمشاركة في صنع القرارات بحيث تتوافق مع النبوءات الواردة في العهد القديم - سفر حزقيال - ويوحنا تحديداً<sup>(٢)</sup>.

• إعلان الرئيس الأمريكي بوش الابن في ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - عقب أحداث سبتمبر - «حملة صليبية» ضد الإسلام والدول الإسلامية التي وصفها باسم «الأشرار» وحتى لقد وصف الكاتب الإنجليزي «جيلبرت كيه» الروح الدينية والنزعة الصليبية في هذه الحملة الأمريكية فقال: «إن أمريكا أمة بروح كنيسة!» وأن الرئيس الحالي والرئاسة الحالية هما الأشد رسوخاً في هذا الإعلان خلال العصور الحديثة<sup>(٣)</sup>.

• إن من معتنقي نظرية «الهارمجيدونية»<sup>(٤)</sup> شخصيات سياسية وعسكرية ودبلوماسية وأكاديمية كبيرة أيضاً، ولعل من أبرزها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان<sup>(٥)</sup>.

(١) الاستغلال الديني في الصراع السياسي، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢ - ٤٤.

(٣) عمارة، محمد، الإسلام في عيون غربية، ص ٥١، ط ١، ٢٠٠٥ دار الشروق - القاهرة.

(٤) «الهارمجيدونية» نسبة الى جبل مجيدو - شمال فلسطين - ويزعم أتباع هذه النظرية أن اعظم وآخر معركة في العالم سوف تخاض على ظهره، تبعاً لما جاء في «الكتاب المقدس».

(٥) الاستغلال الديني، ص ٦٧.



• أطلق محام يهودي يدعى مايكل هوروفيتز حملة إعلامية سياسية واسعة النطاق تضمنت الادعاء بأن المسيحيين في الدول العربية والإسلامية يتعرضون للاضطهاد، وأقام مؤسسة في واشنطن باسم «بيت الحرية» مهمة هذه المؤسسة جمع المعلومات والوثائق عن اضطهاد المسيحيين في الدول الإسلامية، وإعداد المنشورات الإعلامية لإدانة هذه الدول.. واستجاب عدد من الكنائس لدعوة هوروفيتز وأصدرت بياناً مشتركاً بعنوان «بيان ضميري» ودعت فيه الإدارة الأمريكية لاتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة الاضطهاد الديني الذي لا يمكن تحمله. ثم نظم هوروفيتز لقاءً تحت عنوان «اليوم العالمي للتضامن مع الكنائس المضطهدة» شاركت فيه (٤٠ ألف كنيسة). وأدخلت هذه القضية إلى الكونجرس، وتشكلت لها لجنة خاصة.. وأصبحت هناك قضية أمام وزارة الخارجية الأمريكية وفي البيت الأبيض تدعى «قضية اضطهاد المسيحيين في الدول العربية والإسلامية» وأصبح مفروضاً على كل سفارة أمريكية في الدول العربية والإسلامية تقديم تقرير حول الحريات الدينية في هذه البلاد<sup>(١)</sup>!

هذا غيظ من فيض، لكنه يكفي لأن يبين لنا قوة وتأثير الجانب الديني في السياسة الغربية رغم زعمهم أن: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

### ٣- الإسلام:

لم يكن العرب قبل الإسلام «أمة واحدة» لها كيائها وهيبتها وسلطانها.. بل كانوا يعيشون في جزيرتهم قبائل متناثرة، متنازعة، متحاربة تحكّمهم قوانين وعادات القبيلة.. وتستحوذ على قلوبهم وعقولهم، وتتحكم في سلوكهم وأفعالهم حمية الجاهلية والعصبية القبلية.

فلما جاء الإسلام جمع شتات العرب، ووحد كلمتهم، وألف بين قلوبهم

(١) الاستغلال الديني، بتصرف، ص ١٠٨ - ١١٢.

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

«كان ظهور الإسلام بمنزلة منارة أضيئت فبددت ظلام ليل خيم على عالم كئيب، وكان ذلك يعني بداية جديدة لعالم جديد، إنه عالم الحضارة الإسلامية، تلك التي بدأت يوم بدأ الإسلام يضيء معالم الحياة، ويغير الملامح الفكرية والسياسية، والتشريعية والاجتماعية، والاقتصادية للعالم كله، فارتبطت بالإسلام ديناً ودولة، وتاريخاً ونشأة وتطوراً وثقافة»<sup>(١)</sup>.

وقد كانت رسالة محمد بن عبدالله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرير العقلي والمادي، وكان جند القرآن أعدل رجال رعاهم التاريخ، وأحصى فعالهم في تدوين المستبدين وكسر شوكتهم، طاغية إثر طاغية<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن الطريق أمام محمد ﷺ ومن تبعه من المؤمنين ميسرة ممهدة، ولم يصلوا إلى غايتهم بسهولة ويسر.. فقد لاقوا من قومهم الذين أخذتهم العزة بالإثم، وجعلوا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية وأصرروا على التمسك بإرث آبائهم ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِ آثَرِهِمْ وَإِنَّا لَنَآئِلُهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. أشد مقاومة، وأعظم إيذاء وتنكيل واضطهاد.

وكان الرسول محمد ﷺ قد مكث في مكة، منذ بعثته وحتى هجرته إلى المدينة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس خلالها إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والكفر بالطاغوت، وإلى الإيمان باليوم الآخر، الذي يبعث فيه الناس من قبورهم ويوفون حسابهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وإلى الاحتكام والالتزام بأوامر الله وحده فالحلال ما أحل الله والحرام ما حرم..

(١) السرجاني، راغب، ماذا قدم المسلمون للعالم، ١/ ٣٧، مؤسسة اقرأ/ القاهرة.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤٨، دار الشروق.

والله لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهاي إلا عن السوء والشر والضرر «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».

ويمكن تلخيص أبرز محطات الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية بالنقاط

التالية:

### أ- البعثة:

وكانت والرسول ﷺ في سن الأربعين. تقول عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدى به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك: فقال «اقرأ» قال: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال «اقرأ» قلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال «اقرأ» قال: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ - ٢]... الحديث»<sup>(١)</sup>.

### ب- دعوة الناس الى الإسلام:

بدأ الرسول ﷺ تبليغ دعوته إلى المقربين منه: زوجته «خديجة»، صديقه «أبو بكر»، ابن عمه «علي»، مولاه «زيد بن حارثة» فكانوا أول من آمن به.

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، رقم الحديث ٣، النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، رقم الحديث ١٦٠.

ثم أمر ﷺ بان ينذر عشيرته ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادى: «يا بني فهر، يا بني عدي - لبطون قريش -» حتى اجتمعوا فجعل الرجل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر: ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي ﷺ: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم أصبحت الدعوة عامة، وأسلم كثيرون، من مختلف الفئات: الأحرار والعبيد، الرجال والنساء، الشباب والشيخ والفتيان.. ومن مختلف العشائر والقبائل، من مكة وخارجها.

### ج - مقاومة الإسلام واضطهاد معتنقيه:

قوبلت دعوة الإسلام في مكة بمقاومة شرسة، وحرب ضروس لا هوادة فيها شملت:

• اضطهاد المسلمين، وتعذيبهم والتنكيل بهم.. «قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً تأمروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب..»<sup>(٢)</sup>.

(١) البخاري.

(٢) ابن هشام، محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، ١/ ٢٦٨ - ٢٦٩، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط ٢، ١٣٧٥ هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

• تحقير المسلمين والسخرية منهم، واتهامهم الرسول ﷺ بالسفه والجنون، والكهانة والسحر، والشعر.. كل ذلك لتخذيل المسلمين، وتوهين عزيمتهم، وصرفهم عن دينهم.

#### د- الهجرة الى الحبشة:

قال ابن إسحاق: «فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء.. قال لهم لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه؛ فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة فكانت أول هجرة في الإسلام»<sup>(١)</sup>.

وكانت أول أرض خارج الجزيرة العربية يدخلها الإسلام، ويسكنها المسلمون.. ويُعد وفد قريش الذي بعثته للنجاشي محملاً بالهدايا، يقوده عمرو بن العاص، والمناظرة السياسية التي أقيمت في قصر النجاشي بين سفير المسلمين جعفر بن أبي طالب، وسفير المشركين عمرو بن العاص، بإشراف النجاشي وأساقفته أول حدث سياسي، وأول نصر سياسي دبلوماسي عابر للحدود، في تاريخ الإسلام.

#### هـ- الحصار والمقاطعة:

تعاقبت قريش على بني هاشم وبني المطلب ألا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة. وحوصر المسلمون ومعهم من بقي على كفره من بني هاشم وبني المطلب - باستثناء أبي لهب - في شعب بني هاشم.

«وضيق الحصار على المسلمين، وانقطع عنهم العون، وقَلَّ الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب وعضتهم الأزمات العصبية

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٣٢١-٣٢٢.

حتى رثى لحالهم الخصوم.»<sup>(١)</sup> وبقوا على تلك الحالة من الحصار، والمقاطعة ثلاث سنين، قبل أن يقوم نفر من قريش بنقض تلك الصحيفة الظالمة.

### و- الإسراء والمعراج:

أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام، حيث كان نائماً في الحجر، إلى المسجد الأقصى بيت المقدس ركباً البراق، ثم عرج به إلى السماوات العلا، وقد خلّدت هذه الحادثة في القرآن الكريم في سورتي الإسراء والنجم. وفي هذه الرحلة رأى الرسول ﷺ «من آيات ربه الكبرى» المفصلة في كتب السيرة، وفرضت الصلاة على المسلمين، وكل ذلك يحمل إشارة عظيمة تدل على أهمية ومكانة المسجد الأقصى في الإسلام، وبالنسبة للمسلمين.

### ز- الهجرة إلى المدينة:

لقي رسول الله ﷺ في موسم الحج عند العقبة نفراً من الأنصار فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا، وعادوا إلى المدينة، ودعوا قومهم إلى الإسلام، فأجابهم خلق كبير.. فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلاً، فبايعوا الرسول ﷺ وبعث معهم مصعب بن عمير يدعو إلى الإسلام، ويعلم المسلمين القرآن، وأمور دينهم. وفي العام التالي عاد مصعب بن عمير ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فبايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وكان أول المبايعين البراء بن معرور رضي الله عنه. وحضر العباس عم رسول الله ﷺ موثقاً مؤكداً البيعة، مع أنه كان حينها على الشرك.

وأمر الرسول ﷺ بعد ذلك المسلمين بالهجرة إلى المدينة.. فهاجروا تبعاً.. ومكر المشركون مكرهم أن يقتلوا رسول الله ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ

(١) فقه السيرة، الغزالي، ص ٩٢.

أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِحُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وخرج الرسول ﷺ مهاجراً بصحبة أبي بكر ليلاً، ونام علي رضي الله عنه في فراش الرسول ﷺ، وتسجى ببردته، وجعل المشركون يتطلعون فيرون علياً متسجياً ببرد رسول الله، فيحسبون أنه محمد ﷺ، حتى أصبحوا فقام علي، وأدرك المشركون أن الرسول ﷺ قد هاجر.. فحاولوا إداركه لكن الله حفظه وردهم خائبين.. وحدثنا القرآن عن اللحظات الحرجة في رحلة الهجرة النبوية بقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَتَصَرُّوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠].

ووصل الرسول ﷺ المدينة ولحق بأصحابه من المهاجرين والأنصار. ولم تكن الهجرة «تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن. وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه»<sup>(١)</sup>.

### دولة المدينة:

أول فعل قام به الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة هو إقامة مسجده في المكان الذي بركت فيه ناقته، وكان مريداً لغلّامين يتيمين من بني النجار، فابتاعه الرسول ﷺ منهما. وجمع بناء المسجد المسلمين مهاجرين وأنصاراً قبل أن تجمعهم الصلاة فيه، وتجسدت روح الأخوة والتعاون في أبهى صورها، يعبر عن ذلك ارتجازهم وهم بينون:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

ثم آخى الرسول ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.. «تآخوا في الله

(١) فقه السيرة، الغزالي، ص ١١٩.

أخوين أخوين: ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي..»<sup>(١)</sup>، وبقي المسلمون يتوارثون بهذا الإخاء، إراثاً مقدماً على القرابة، حتى موقعة بدر.

ثم وضع رسول الله ﷺ «دستور الدولة» الذي عرف بالوثيقة، والتي حدد الرسول ﷺ فيها علاقة المسلمين فيما بينهم. وعلاقة المسلمين بغيرهم، ممن في المدينة من يهود. ومما جاء في هذه الوثيقة:

«أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..»<sup>(٢)</sup>.

وقدم المسلمون في المدينة للبشرية جمعاء نموذجاً رائعاً منقطع النظير، لم يشهد له التاريخ مثيلاً.. فكانت بحق وصدق المدينة الفاضلة التي لم يحلم أفلاطون ولا أستاذه سقراط ولا تلميذه أرسطو - يوماً - بمثلها.

«إن المدينة الفاضلة التي تعشقها الفلاسفة، وتخليلوا فيها الكمال جاءت في سطور الكتب دون ما صنع المهاجرون الأولون وأثبتوا به أن الأيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهي الملائكة صفاء ونضارة»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن هشام، ١ / ٥٠٥.

(٢) فقه السيرة، ص ١٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩١.



## الجهاد في عهد الرسول ﷺ:

جاء إذن الله للمسلمين بالقتال وهم في مكة قبيل هجرتهم إلى المدينة وذلك في قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ولما استقر وضع المسلمين في المدينة وصارت لهم شوكة، وكان لا بد لهم من حماية أنفسهم وديارهم، وأموالهم، كتب الله عليهم القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وكانت غزوة ودان هي أول غزوات الرسول ﷺ وهي نفسها غزوة الأبواء، ووادع الرسول ﷺ فيها بني ضمرة، وعاد إلى المدينة، دون قتال. ثم توالى بعد ذلك السرايا والغزوات، وقاد الرسول ﷺ بنفسه بعضها، وأمر غيره من الصحابة على بعضها.

ومن أبرز هذه الغزوات، غزوة «بدر الكبرى» والتي سماها القرآن «يوم الفرقان» حيث فرق الله فيها بين الحق الباطل، وانتصر المسلمون فيها نصراً مؤزراً.. يقول صاحب الضلال في تعليقه على هذه المعركة: «.. وكانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ البشرية.. فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامي هي غير البشرية بعد قيام هذا النظام.. هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام. وهذا النظام الجديد الذي انبثق من هذا التصور. وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلاداً جديداً للإنسان. وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها، ويقوم عليها النظام الاجتماعي والتشريع القانوني سواء.. هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود المجتمع الجديد. إنما صار - شيئاً فشيئاً - ملكاً للبشرية كلها، تأثرت به سواء في دار الإسلام أو في خارجها، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته<sup>(١)</sup>. ثم تواصلت وتوالى المعارك بين المسلمين

(١) في ضلال القرآن، ٣/ ١٥٢٢-١٥٢٣.

والمشركين، فكانت معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وقد امتحن الله بها المسلمين، وميز بين المؤمنين والمنافقين: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّبِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهُ وَيَلْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ \* وَيَلْعَلُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ..﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

وكانت الهزيمة بعد النصر في أحد أكبر درس عملي للمسلمين فلم يغن عنهم - إذ أخطأوا - وجود الرسول ﷺ «مقاتلاً» بين ظهرانيهم فأصابهم القرح، ونال عدوهم منهم نيلاً.. وعاتبهم القرآن الكريم وأنبهم بقوله: ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ فِئْتَابَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قَوْلُ هُورٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي السنة الخامسة للهجرة، وقعت غزوة الخندق، عندما قام نفر من يهود، بتحريض قريش والقبائل العربية على حرب الرسول ﷺ. فأجابوهم، وخرجت الأحزاب نحو المدينة يقودهم أبو سفيان، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار أصحابه فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين المشركين والمدينة. وأخذ الرسول برأي سلمان وحفر المسلمون الخندق، وتحصنوا خلفه. وتعتبر غزوة الخندق أكبر خطر عصف بالدعوة الإسلامية، وهدد وجودها وكيانها عبر التاريخ.. ولأهمية هذه الغزوة سميت سورة من القرآن باسمها، خلد فيها أبرز أحداثها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا \* إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وكان يهود بني قريظة على عهد مع الرسول ﷺ غير أنهم نقضوا العهد وانفقوا مع الأحزاب على تمكينهم من دخول المدينة من جهتهم، غير أن نعيم بن مسعود

نجح بحنكته ودهائه وبتوجيه من الرسول ﷺ في الواقعة بين الطرفين، وأرسل الله على الأحزاب جنوده والريح التي اقتلعت خيامهم وأطفأت قدورهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وبعد هذه المعركة الحاسمة في تاريخ المسلمين، قال الرسول ﷺ قوله الشهيرة! «الآن نغزوهم ولا يغزونا»<sup>(١)</sup>.

ولما كانت آخر السنة السادسة للهجرة خرج الرسول ﷺ ومعه سبعمئة رجل<sup>(٢)</sup> يسوقون سبعين بدنة، وأمر الرسول ﷺ بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت الحرام، لا يريد قتالاً.. وبعثت قريش إلى الرسول ﷺ رسلاً يستوضحون نيته، منهم عروة بن مسعود الذي عاد لقريش يقول لهم: إني ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فرأوا رأيكم<sup>(٣)</sup>.

وأرسل الرسول ﷺ عثمان بن عفان إلى مكة يبلغهم بما خرج به المسلمون. وشاع في المسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل، فدعا الرسول ﷺ الناس إلى مبايعته، تحت شجرة كثيفة الغصون، فبايعه الصحابة على الموت، تحت الشجرة فيما عرف ببيعة الرضوان، التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وانتهى صلح الحديبية بصلح عقد بين المسلمين والمشركين تضمن: رجوع المسلمين عامهم هذا، والعودة العام القابل، ودخول مكة والإقامة فيها ثلاثة أيام - السيوف في قرايبها - وأن توضع الحرب عن الناس عشر سنين، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم. ومن جاء قريش ممن مع محمد لم

(١) رواه البخاري، ٤١٠٩.

(٢) اختلف في عدد المسلمين يوم الحديبية وورد في البخاري أن عددهم (١٤٠٠).

(٣) انظر القصة: في ابن هشام، وغيره من كتب السيرة ٣٠٩/٢.

يردوه إليه.. وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه. فدخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ وبنو بكر في عهد قريش.

### فتح مكة:

تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، من العهد والميثاق، بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول ﷺ المدينة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد، وأنشده شعراً، يستنفره به، فقال رسول الله ﷺ نصرت يا عمرو بن سالم<sup>(١)</sup>.

وأمر الرسول ﷺ المسلمين بالجهاز، فتجهز الناس، ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين. وقد عميت الأخبار عن قريش.. ودخل الرسول ﷺ مكة وهو راكب على ناقته، ورأسه يكاد يمس مقدمة الرّحل من تواضعه لربه عز وجل.

ولم يحدث في فتح مكة قتال غير مناوشة بسيطة، استشهد فيها اثنان من المسلمين، وأصيب نحو اثني عشر رجلاً من المشركين.

وقد آمن الرسول ﷺ الناس إلا جماعة من المشركين أهدر دمهم وأمر بقتلهم حيث وجدوا.

ولما نزل الرسول ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، ثم خطب الرسول ﷺ في الناس، ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني

(١) انظر: ابن هشام ٢ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بتصرف.

فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم؟ قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد؛ فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده؛ فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية. فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له. فقال: هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يوم برٍّ ووفاء<sup>(١)</sup>.

وبفتح مكة أخذت معاقل الشرك والوثنية في الجزيرة العربية، تنهار واحدة تلو الأخرى، وأخذ الإسلام يسط نفوذه وسلطانه على سائر أجزاء جزيرة العرب.

### يهود المدينة:

قلنا إن الرسول ﷺ عندما قدم المدينة وادع يهود، وعقد بينه وبينهم ميثاقاً.. غير أن يهود نقضوا عهد الرسول ﷺ تباعاً.

فبنو قينقاع: كان من أمرهم أن صائغاً يهودياً عمد إلى طرف ثوب امرأة مسلمة فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحك منها يهود، فصاحت فوثب رجل مسلم على الصائغ فقتله وشدت اليهود على المسلم فقتلوه. ففرض المسلمون عليهم الحصار خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى التسليم، وتم إجلاؤهم إلى (ذرعات) بالشام.

أما بنو النضير: فكان من أمرهم أن جاءهم الرسول ﷺ ليستعين بهم في دية القتيلين الذين قتلتهما (عمرو بن أمية) مرجعه من معونة.. فإذا بيهود يأترون برسول الله ﷺ ليقتلوه.. وانتهى أمرهم بعد حصارهم في حصونهم بنزولهم على حكم الرسول ﷺ الذي أذن لهم بالجلاء عن ديارهم، ولهم ما حملت إبلهم من أموال ما عدا السلاح. وسورة الحشر تحدثنا بشكل مفصل عن هذه المعركة.

(١) انظر: ابن هشام، ٤١٢/٢، بتصرف.

وأما بنو قريظة: فقد كانت نهايتهم أسوأ نهاية لأن غدرهم كان أخطر غدر، فقد تأمروا مع «الأحزاب» للقضاء المبرم على دولة الإسلام.. فحكم سعد بن معاذ فيهم: أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال. وأقر النبي ﷺ هذا القضاء الحازم، قائلاً لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات<sup>(١)</sup>.

وأما يهود خيبر: فقد بلغ الرسول ﷺ أخبار تأمرهم على المسلمين. وتواصلهم مع غطفان ومن حولهم من الأعراب لتشكيل تحالف ضد المسلمين. فتوجه الرسول ﷺ بجيشه إليهم في السنة السابعة للهجرة. «وشن المسلمون على الحصون المشيدة، فبدأت تتداعى تحت وطأتهم حصناً بعد حصن، ودافع اليهود عنها دفاع المستميت.. ولكن المسلمون استبسلوا في الكر على العدو.. وخضعت سائر يهود، ثم جاءت تعرض على الرسول ﷺ أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض، فقبل ولم يجعل ذلك إلى الأبد، بل قال لهم: إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم.. ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من إنتاجها..<sup>(٢)</sup> حتى خلافة عمر بن الخطاب، حيث أخرجهم منها لقتلهم رجلاً من الأنصار.. وبذلك انتهى الوجود اليهودي في جزيرة العرب.

### مراسلة ملوك وأمراء وزعماء العالم:

لأن الإسلام رسالة عامة للبشرية جمعاء ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ [الاعراف: ١٥٨] بعث رسول الله ﷺ برسله إلى كل من أمكن مراسلته من زعماء وملوك وأمراء يدعوهم وقومهم إلى الإسلام.. فبعث بكتاب إلى قيصر الرومان حملة دحية بن خليفة، جاء فيه: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرًا مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين - الفلاحين -».

(١) انظر: فقه السيرة، ص ٢٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٦٣ - ٢٦٧.

وبعث بكتاب إلى أمير دمشق، الحارث بن أبي شمر، وإلى أمير بصرى حملة الحارث بن عمير الأزدي «فاعترضه في الطريق شرحبيل بن عمرو الغساني، وسأله: أنت من رسل محمد؟ قال: نعم فأمر به شرحبيل فقتله»<sup>(١)</sup>.

وكتب الرسول ﷺ رسالة إلى المقوقس عظيم القبط، ورغم أنه لم يسلم إلا أنه رد على رسالة الرسول ﷺ رداً جميلاً وأهداه جاريتين وبغلة.

وكتب رسول الله ﷺ رسالة إلى «كسرى أبرويز» ملك فارس، فأخذته العزة بالإثم ورفض الإسلام.

وأرسل ﷺ العلاء الحضرمي إلى أمير البحرين «المنذر بن ساوي» فأسلم وأسلم معه عدد غير قليل من قومه.

### معركتي مؤتة وتبوك:

وما دفعنا أن نفردهاتين المعركتين بعنوان خاص، هو كونهما قد وقعتا في عهد الرسول ﷺ بين المسلمين والروم. فغزوة مؤتة جاءت رداً على قتل شرحبيل بن عمرو الغساني لرسول رسول الله، الحارث بن عمير الأزدي.

وكان عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف مقاتل، فيما بلغ عدد جيش الروم نحواً من مئة ألف، ومثلها من نصارى العرب. والتقى الجمعان في منطقة «معان» في الأردن، وسقط قادة جيش المسلمين واحداً تلو الآخر، شهداء، زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة.. واصطاح المسلمون بعدهم على خالد بن الوليد؛ فأعاد خالد تنظيم الجيش على نحو جديد، أبهر الأعداء، وأمكن المسلمين من الانسحاب بصورة مشرفة منظمة.

(١) فقه السيرة، ص ٢٧٣.

أما غزوة تبوك: فقد وقعت في السنة التاسعة للهجرة، وقد سميت غزوة العسرة، لأنها كانت في سنة شدة وجذب، وأيام حرّ. وخرج الرسول ﷺ بنفسه في هذه المعركة يقود نحواً من ثلاثين ألف مقاتل حتى بلغ بهم «تبوك» ولم يحدث في هذه المعركة أي قتال. واكتفى الرسول ﷺ بدخول أرض الروم دون أن يعترضه أحد من الروم.. فعاد ﷺ وقد أوصل رسالته الاستعراضية التحذيرية لخصوم الإسلام من الروم، وحلفائهم.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد الى أكيدر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندل فأخذه أسيراً وقتل أخاه وسلبه قباء ديباج منسوجاً بالذهب. وقدم بأكيدر على النبي ﷺ فأسلم وكتب له ولأهل دومة الجندل كتاب أمان ما أقاموا على الإسلام<sup>(١)</sup>.

### وفاة النبي ﷺ:

توفي الرسول ﷺ يوم الإثنين لثلاث عشرة<sup>(٢)</sup> ليلة خلت من ربيع الأول السنة الحادية عشرة للهجرة. وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وستين سنة، وقيل كان ستين وقيل كان اثنين وستين. وصلى عليه المسلمون أفراداً بلا إمام، ودفن ليلة الأربعاء في جوف الليل. ونشهد أنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ﷺ تسليماً كثيراً.



(١) انظر: فتوح البلدان، البلاذري، ص ٤٤.

(٢) وقيل الثاني عشر، وقيل مستهله، وقيل ثانية، وقيل غير ذلك.



## الخلافة الراشدة

لم يوص الرسول ﷺ بإمامة المسلمين وزعامتهم لأحد من بعده، مما أحدث شيئاً من الخلاف والارتباك بين المسلمين بادئ الأمر، لكن سرعان ما توافق الناس على أبي بكر الصديق، وبايعوه خليفة لرسول الله ﷺ. فتولى أمر المسلمين عامين فحارب فيها المرتدين، ومانعي الزكاة، وأعاد توحيد الأمة وجمع كلمتها، وأرسل بعث أسامة بن زيد وجمع القرآن.. وفي عهده بدأ فتح بلاد العراق والشام.. فأى قائد يستطيع أن ينجز ما أنجزه أبو بكر رضي الله عنه في هذه المدة القصيرة من الزمن؟ لله دره! وأوصى أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب: وامتاز عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعدل والإنصاف، حتى سمي الخليفة العادل، وفي عهده فتح بيت المقدس، وفتحت مصر، وفتحت بلاد الشام والعراق بالكامل.. تقول عائشة رضي الله عنها ملخصة فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «.. فقام الصديق حاسراً مشمراً، فردّ نشر الإسلام على غره وأقام أوده بثقافه، حتى فابذعر النفاق بوطأته، فلما أنتاش الدين فنعشه، حتى أراح الحق على أهله، وحقن الدماء في أهبها؛ ثم أتته منيته؛ فسدّ ثلمته نظيره في المرحمة، وشقيقه في المعدلة؛ ذلك ابن الخطاب، لله درّ أم حملت به ودرّت عليه! ففتح الفتوح، وشرّد الشرك، وبعج الأرض فبعجها حتى قاءت أكلها، ولفظت جناها، ترأمة ويأبأها، وتريدة ويصدف عنها، ثم تركها كما صحبها..»<sup>(١)</sup> ومما قيل في عمر رضي الله عنه: كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة.

(١) الأندلسي، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١١/٣، تحقيق مفيد محمد قمبيحة، طبعة ١٩٩٧، دار المكتبة العلمية - بيروت.

وقال المغيرة بن شعبة في عمر: «كان والله له فضل يمنعه أن يخدع، وعقل يمنعه أن يخدع»<sup>(١)</sup>.

ويعتبر عهد عمر بن الخطاب العهد الذهبي، والحكم المثالي، في تاريخ الخلافة الإسلامية ففي عهده هزم المسلمون أعظم امبراطوريتين كانتا في ذلك الوقت: الفرس والروم. وفتح بيت المقدس، كما فتحت العراق والشام ومصر، «وبلاد العجم».. وعلى صعيد سياسته الداخلية فقد استطاع أن يحقق العدل والمساواة بين الرعية ويحفظ حقوق غير المسلمين، ويحقق وفرة في الإنتاج «والمدخولات» وعدالة في التوزيع.. وحارب بشدة كل شكل من أشكال الفساد المالي، خاصة عند أصحاب النفوذ والسلطان والقرار. ويذكر أن أبا بكر الصديق لم يكن يتقاضى أي «مرتب» مالي نظير عمله خليفة للمسلمين أما عمر فاقتطع لنفسه من بيت مال المسلمين درهمين كل يوم!

وكانت ولاية عمر عشر سنين، قتل بعدها على يد غلام نصراني وقيل مجوسي يقال له فيروز أبو لؤلؤة، وكان غلاماً للمغيرة بن شعبة.

وبعد مقتل عمر تولى الخلافة من بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه، وواصل عثمان الفتوحات الإسلامية، فتحت أجزاء من أفريقيا، وقبرص، وتوسعت حدود الدولة الإسلامية، إلا أن عثمان رضي الله عنه لم ينجح في «السياسة الداخلية» كسلفه عمر بن الخطاب، وأخذ البعض عليه حبه لقومه وتقديمتهم على غيرهم ممن هم أصحاب فضل عليهم.. وكان يأتيه من يشكون أمراءه، فلا يعزلهم ولا يحزم حزم عمر معهم. هذه الأمور وغيرها ألّبت بعض القبائل والعامّة عليه، إضافة لأصحاب الأهواء، ومسعري الفتن، وانتهى الأمر بمقتل عثمان رضي الله عنه، بعد أن ولي أمر المسلمين اثنتي عشرة سنة.

(١) العقد الفريد، ٣/ ٩٧٥.

وبعد مقتل عثمان تولى الخلافة علي، أربع سنين وتسعة أشهر وقعت فيها فتنة عظيمة ومقتلة كبيرة بين المسلمين بدأت بخروج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين على رأس جمع من الصحابة إلى البصرة مطالبين بالقصاص لدم عثمان.. وعرف ذلك اليوم بيوم الجمل، وعظمت الفتنة واشتدت برفض معاوية بن أبي سفيان، وهو والي الشام مبايعة علي، وانضم بل وقاد الخارجين عليه المطالبين بدم عثمان. واستمرت الفتنة وبقي الاقتتال بين المسلمين حتى قتل علي، وبويع بالخلافة لابنه الحسن بن علي، وكانت ولايته سبعة أشهر وسبعة أيام. ثم اصطلح مع معاوية وتنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وجمعاً لكلمتهم، وسمي ذلك العام بعام الجماعة.



## الخلافة الأموية (٤١هـ - ١٣٢هـ)

يمكننا تلخيص أبرز سمات ومعالم هذا العصر من التاريخ الإسلامي بالنقاط

التالية:

- تحول نظام الحكم في عهد الأمويين إلى نظام شبه ملكي، وكان معاوية أول من نهج هذا النهج بأخذه البيعة لابنه يزيد، ثم سار على منواله كل من جاء بعده.

- تواصلت الفتوحات الإسلامية، وحميت الثغور وفتحت بلاد جديدة، أبرزها وأهمها «الأندلس» سنة ٩٢هـ على يد القائد المسلم العظيم طارق بن زياد.

- برز وازدهر في عهدهم الفن المعماري الإسلامي، ففي عهدهم بنيت قبة الصخرة في القدس والمسجد الأموي في دمشق.. كما ازدهرت في عهدهم العلوم والصناعات، وازداد الانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى، ونقل منها كل نافع مفيد.

- بنيت «السياسة الداخلية» للأمويين على الأساس الذي أرساه معاوية في حكمته الشهيرة: «لو أن بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها، إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت».

لكن يؤخذ على الأمويين بذخهم وتوسعهم في استغلال واستخدام «المال السياسي» فظهروا في ذلك بصورة مغايرة تماماً لما كان عليه الخلفاء الراشدون، اللهم إلا عمر بن عبدالعزيز الذي ذكر عهده بعهد جده عمر بن الخطاب، في ورعه وزهده، وعدله، ونقاء يده.

## الخلافة العباسية (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ)

أبرز سمات ومعالم الخلافة العباسية:

- حافظ العباسيون على نهج من سبقهم في ميدان «السياسة الخارجية» من مواصلة الفتوحات الاسلامية، وتجييش الجيوش للدفاع عن أرض الاسلام، وحماية الثغور.

وإن كان البعض قد اعتبر إيغال الامويين والعباسيين في الفتوحات نوعاً من تصدير الأزمة الداخلية بتحويل أنظار الناس واهتماماتهم و غضبهم نحو عدو الامة، بدلاً من تفريره داخلياً، ويساند هذا الرأي موقف عمر بن عبد العزيز الذي حد من التوغل في الفتوحات.

- يعتبر العصر العباسي عصر الفرق والطوائف والمذاهب الفكرية والعقدية، فقد ظهرت الكثير الكثير من الفرق والمذاهب الفكرية والعقدية والفقهيّة.. واشتد الخلاف والصراع بينها، ونتج عن ذلك، بدع وفتن «كفتنة خلق القرآن» ودويلات متناثرة متنافرة، أضعفت دولة الخلافة، وأطمعت أعداء الأمة في الانقضاض على جسد الخلافة الإسلامية.

ومع ذلك لا يمكننا تجاهل الدور الإيجابي الذي قدمته بعض الفرق والمذاهب الفكرية، والمتمثل بإثراء الفكر الإسلامي، وتطوير وفرض المنهج العقلي، والبحث العلمي والتفكير المنطقي.

- ازدهرت في العصر العباسي الحركة العلمية، وظهر الكثير من العلماء الأفاذ

في مختلف العلوم والتخصصات، وقدموا للأمة والعالم أجمع إبداعات، واختراعات وابتكارات مميزة استمد الشرق والغرب حضارتهم المعاصرة منها، وبنوا نهضتهم عليها.

• تعرضت دولة الخلافة العباسية في أواخر عهدها لأكبر خطرين هددوا كيانها، ووجودها، بل وهددا الوجود الإسلامي بشكل كامل.

الأول تمثل بالحملات الصليبية، وسبق وتحديثنا - وإن بشكل موجز - عنها.. والثاني باجتياح المغول لبلاد المسلمين، واستباحتهم عاصمة الخلافة بغداد حيث يقدر المؤرخون عدد القتلى من المسلمين في بغداد ثمانمئة ألف نسمة، «وبعد أن أتم هولاءكو وجيشه المغولي التتاري قتل أهل بغداد، وعمرانها ومعالمها الحضارية.. فأمر هولاءكو، قادته وجيوشه بعد القتل والذبح، نهب بغداد فعاث جند المغول والتتار فساداً في المدينة.. وأشعلوا النيران فيها أيضاً»<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن انقسام المسلمين بين خلافتين عباسية وفاطمية، والخلاف والتنازع بين العرب والعجم والترك. وطمع كل فئة في السيطرة على الخلافة، والفساد الذي استشرى في أوصل الدولة، وانتشار الموبقات، والانغماس في الشهوات، كل ذلك جعل من دولة الخلافة لقممة سائغة لأعداء الإسلام من صليبيين ومغول.. ولم يتمكن المسلمون من دحر أعدائهم إلا بعد أن أخذت الأمة بأسباب النصر.. فالتزمت بأمر دينها وأعدت العدة لجهاد عدوها.. وكان أعظم نصر للمسلمين على المغول في معركة عين جالوت التي قادها سيف الدين قطز الذي «اقتحم القتال وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله، ويكر بهم كرة بعد كرة، وألقى

(١) الصلابي، علي محمد، المغول «التتار» بين الانتشار والانكسار، ص ١٩٩، ط ١، ٢٠٠٩م، مكتبة الأندلس الجديدة - مصر.

خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته (وإسلاماه) وحمل بنفسه، وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره»<sup>(١)</sup>.



---

(١) المغول (التتار)، ص ٣٥٤.

## الخلافة العثمانية: (٦٩٩هـ - ١٣٤١هـ)

يمكن تلخيص أهم وأبرز الأحداث والتطورات التي حصلت في عهد الخلافة العثمانية بالنقاط التالية:

- يرجع الفضل للخلافة العثمانية في دخول الإسلام إلى دول وبقاع من الأرض لم يكن دخلها من قبل مثل دول البلقان.
- استطاعت دولة الخلافة العثمانية، ولسنين طويلة صد الهجمات الصليبية والمسيحية التي استهدفت أرض الإسلام والمسلمين، كما حمت الشعوب المسلمة في بقاع واسعة من الأرض، خاصة شمال أفريقيا من العدوان الصليبي.
- تمكنت دولة الخلافة العثمانية من هزيمة ودحر الدولة البيزنطية.
- تمكنت من فتح دول كثيرة في أوروبا، منها: بلغاريا التي استولى عليها السلطان بايزيد الأول. كما استطاع العثمانيون عام (٨٣٤هـ) فتح ألبانيا، واستطاعوا عام (٨٤٢هـ) هزيمة المجرين وأسر سبعين ألف جندي منهم.
- وكان أعظم فتح للعثمانيين هو فتح القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ) على يد السلطان محمد الثاني الذي لقب بمحمد الفاتح، وكان الرسول ﷺ قد بشر بفتحها، فروي عنه ﷺ قوله: «لتنفتح القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»<sup>(١)</sup>.

(١) الشيباني، أحمد بن حنبل، المسند، ٣٣٥/٤، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط١، ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة.



«ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام»<sup>(١)</sup>.

• كما تمكنت الجيوش العثمانية من هزيمة النمسا، وفرضت جزية عليها مقدارها مائتا ألف دوكة من الذهب.

• شهد عهد الخلافة العثمانية حروباً وصراعات كبيرة مع الصفويين الشيعة.. ومن أبرز تلك الحروب معركة جالديران التي انتصر فيها السلطان سليم الأول على الصفويين.. واشتد الصراع في عهد الشاة عباس الصفوي الذي أمعن في عدائه للسنة مستغلاً بداية ضعف الدولة العثمانية، فاحتل أجزاء من العراق، واضطهد أهل السنة، وهادن النصارى وسمح لهم بالتبشير والتنصير.. مما دفع السلطان مراد إلى محاصرة بغداد سنة (١٠٤٤هـ) ودخولها عام (١٠٤٨هـ) حيث قتل نحو عشرين ألف من الجنود الشيعة.

• استغل البرتغاليون الصراع بين الدولة العثمانية والصفويين وحاولوا فرض حصار على البحار الشرقي، وعلى كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

كما سارع الأوروبيون إلى الوقوف الى جانب الصفويين والتحالف معهم، ضد الدولة العثمانية.. في محاولة منهم لوقف الزحف الإسلامي العثماني نحو أوروبا.

• حقق العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول انتصاراً ساحقاً على المماليك، وأنهوا دولتهم.

• تمكن السلطان سليمان القانوني من فتح جزيرة رودس والتي كانت حصناً

(١) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٨٤، تحقيق محمود الأنصاري، ١٩٨٨، مؤسسة فيصل للتمويل - تركيا.

منيعاً لفرسان القديس «يوحنا» الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز.

• يعتبر عصر السلطان سليمان القانوني هو العصر الذهبي للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه (٩٢٦ - ٩٧٢هـ) توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية<sup>(١)</sup>.

• في عهد سليمان القانوني تم عقد معاهدة بين دولة الخلافة العثمانية وفرنسا سميت «بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية» سنة (٩٤١هـ) وشملت هذه المعاهدة بنوداً أعطيت فرنسا من خلالها امتيازات لم يكن لها من داع، شكلت فيما بعد «أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية.. ظهرت آثارها فيما بعد، حيث أنه في أواخر الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل في شؤونها تحت ذريعة حماية الامتيازات والدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدول الأجنبية»<sup>(٢)</sup>.

• في أواخر حكم السلطان سليمان القانوني، بدأت الدولة العثمانية بالانحدار من العظمة إلى الضعف، بفعل عوامل هدم داخلية وخارجية: داخلية تمثلت في استشراف الفساد والخلافات والنزاعات.. وخارجية تمثلت بتحالفات ومؤامرات دولية، منها التآمر الروسي الصليبي ضد ديار الدولة العثمانية.. حيث «كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية.. وفي وصية «بطرس الأكبر» (١٦٢٧ - ١٧٢٥ م) للروس، يقول: «نقترب من القسطنطينية

(١) الصلابي، علي محمد، الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ص ٢٤٦ -

٢٤٧، ط ١، ١٤٢١هـ، دار النشر والتوزيع الإسلامية - مصر.

(٢) الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ص ٢٠٥.

والهند بقدر الإمكان فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم، بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين»<sup>(١)</sup>.

• أمام الهزائم التي منيت بها الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا «اضطرت للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت - مكرهة - على معاهدة «سان ستيفانو عام (١٨٧٨ م)» واحتوت هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية، وبالتوقيع على هذه الوثيقة تفتت أملاك الدولة العثمانية في أوروبا»<sup>(٢)</sup>.

• لم يعجب هذا الاتفاق بعض الدول الأوروبية، مما دفعها للدعوة إلى عقد مؤتمر جديد عرف «بمؤتمر برلين» عام (١٣٠٥ هـ). حضره كل من (فرنسا والمانيا وانجلترا وروسيا) واتفق المؤتمر على تعديل معاهدة سان ستيفانو، واستبدالها بمعاهدة برلين. وفي هذا المؤتمر أرغمت الدولة العثمانية على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها، إضافة إلى تنازلات سياسية واسعة.

• مع زيادة الضغوطات الخارجية على دولة الخلافة العثمانية زادت التوترات والقلاقل والفتن الداخلية التي كان يغذيها، ويشعل ناراها، التآمر المسيحي اليهودي.. «إن الصليبية النصرانية عندما عجزت عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى لجأت إلى تفجير الدولة من الداخل عبر ضعف النفوس ممن ينتسبون إلى الإسلام.. إن أعداء الأمة المسلمة يلجأون دوماً إلى إشعال نار الفتنة داخل ديار الإسلام لتدمير قوة الأمة البشرية والاقتصادية والأخلاقية لتصبح الأمة مؤهلة للسقوط بيد الأعداء»<sup>(٣)</sup>.

(١) الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ص ٤١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٥-٣١٦.

• انتهت دولة الخلافة العثمانية في (٣ آذار ١٩٢٤م) على يد مصطفى كمال أتاتورك وتحولت تركيا إلى جمهورية علمانية يرأسها أتاتورك، الذي سارع إلى اتخاذ جملة من الإجراءات لمحاربة الإسلام، وتغيير معالم الهوية المسلمة لتركيا.



## العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة

كانت معظم دول العالم الإسلامي، يوم سقطت الخلافة العثمانية تزرع تحت نير الاستعمار الأجنبي.. واستمر الاستعمار وتوسع، إلى أن أجبرته ثورات الشعوب المسلمة على الاندحار.. غير أن الشعوب المسلمة التي كانت متعطشة للحرية والاستقلال والانعقاد من استعباد المحتلين، لم يذُر في خَلْدِها أن الزعماء والملوك والرؤساء الذين اعتلوا سدة الحكم في بلادهم، سيكونون «صنيعة الاستعمار» وأداة طيعة في يده «لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»! نسوا أنه الاستعمار ذاته الذي كان بالأمس القريب يقهر الشعوب المسلمة ويحتل أرضها، وكانوا يقاومونه ويثيرون عليه.. فكان ابتلاء الأمة بزعمائها كابتلائها بأعدائها، أو أشد.. كلاهما نهب خيرات البلاد لنفسه وأهله، وكلاهما ساهم في جهل الأمة وتخلفها، وكلاهما قمع الحريات العامة وقهر العباد، وأنزل بأحرار الأمة، ومخلصيها أشد العذاب.

أما الأقليات المسلمة في دول العالم، فقد تعرضت بعد ضعف الخلافة العثمانية ومن ثم سقوطها، وبعد أن ضاعت هيبة المسلمين، وفقدوا القدرة على التأثير والضغط، لحملة اضطهاد وتنكيل دموية بشعة، ففي الهند قتل ملايين المسلمين على أيدي الهندوس.. وتعرض المسلمون في دول الاتحاد السوفيتي السابق والصين وبورما، والبوسنة والهرسك، وكوسوفو.. وغيرها من دول العالم، للقتل والقهر والسجن والتعذيب، وحرمانهم من حقوقهم الدينية والاجتماعية.. وليس ما حل بالمسلمين في أفريقيا الوسطى مؤخراً، من إبادة وذبح، وتقتيل، وحرق للمساجد، إلا حلقة من سلسلة

لن تنتهي إلا إذا أصبح للمسلمين دولة قوية عزيزة أبية، ترعى حقوقهم، وتحميهم وتدافع عنهم، وترفع الظلم والظيم الذي وقع عليهم وتمنعهم وتساندهم وتشد من أزرهم.



## قيام جماعة الاخوان المسلمين

تأسست جماعة الإخوان المسلمين عام (١٣٤٧هـ) في مدينة الاسماعيلية في مصر على يد الإمام حسن البنا، بعد سقوط الخلافة العثمانية، بهدف استنهاض همم المسلمين وبث الوعي في عقولهم ونفوسهم ليعودوا إلى دينهم مصدر قوتهم وعزتهم، وسؤددهم، فيوحدوا صفوفهم، ويلموا شعثهم، ويحرروا أرضهم، ويقيموا دولتهم الإسلامية حرة مستقلة، قوية أبيّة، يتمتع أبنائها بالحرية والعدالة، والأمن والمساواة، وبحقوق المواطنة كاملة غير منقوصة.. وما يميز جماعة الإخوان المسلمين؛ هو أنها تنظر إلى الإسلام على أنه دين شامل، كل لا يتجزأ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً.. يقول الشيخ الندوي عن جماعة الإخوان المسلمين: «لقد نجح الإمام حسن البنا في تكوين حركة إسلامية يندر أن تجد في دنيا العرب خاصة، حركة أوسع نطاقاً وأعظم نشاطاً، وأكبر نفوذاً، وأعظم تغلغلاً في أحشاء المجتمع وأكثر استحواداً على النفوس منها، الدعوة التي أعادت إلى الجيل الجديد في العالم العربي الثقة بصلاحية الإسلام، وخلو درساته»<sup>(١)</sup>.

وجاءت ثورات «الربيع العربي» لتظهر حجم التأييد والتعاطف الذي تحظى به جماعة الإخوان المسلمين، التي تصدرت المشهد السياسي في العالمين العربي والإسلامي.. فكان من الطبيعي أن لا يُسلم أعداء الإسلام بالأمر الواقع، وأن يسعوا لإفشال التجربة الوليدة ووأدها في مهدها.. فأجمعوا أمرهم، ومكروا ومكروهم.. ونجحوا

(١) جابر، حسين علي، الطريق إلى جماعة المسلمين، ص ٢٤١، ط ٧، دار الوفاء - المنصورة.

في وقف المد الإسلامي، وخلط الأوراق في المنطقة، لكن هذه الإرتدادة العكسية التي وضع فيها أعداء الإسلام والحق والحرية - مجتمعين - كل قوتهم، وسخروا لها كل إمكانياتهم، لن تكون - بإذن الله - إلا مؤقتة، وستكون الغلبة للحق وأهله، وسيتمكن للمؤمنين في الأرض، وسترى أمريكا و«إسرائيل» وجنودهما مناً ما كانوا يحذرون.





## ثانياً: السياسةُ والجغرافيا

الجغرافيا: علم يدرس الظواهر الطبيعية لسطح الارض، كالجبال والسهول والغابات والصحارى والحيوان والإنسان، كما يدرس الظواهر البشرية لهذا السطح مما صنعه الإنسان<sup>(١)</sup>.

ومما لا شك فيه أن السياسة تتأثر بالعامل «المكاني» بشكل كبير.. وقد يصبح العامل المكاني - في بعض الأحيان - عاملاً حاسماً، وأساسياً في القرار السياسي لدولة ما.

الجيوبوليتيكي: يشرح العلاقة بين البيئة الطبيعية والسياسية. وهناك من يرى أنه فيما يتعلق باستخدام الجغرافيا بدراسة الشؤون الدولية فإن الجغرافيا السياسية، تعنى بدراسة تغير الظاهرة السياسية من مكان لآخر. طبقاً للتأثر والتفاعل المتبادل بينهما وبين مختلف ظواهر البيئة كموطن للإنسان<sup>(٢)</sup>.

وحول علاقة الجغرافيا بالسياسة يقول الدكتور أحمد داود أوغلو: «من أوائل التمارين التي ندرّب طلابنا عليها لتطوير قدراتهم التحليلية في مجال العلاقات الدولية، أن يمسك الطالب بخريطة ويمعن النظر فيها ويدرسها، متجاهلاً الحدود السياسية الموجودة عليها، حتى يتسنى له رؤية الوضع الحقيقي للعلاقات الدولية»<sup>(٣)</sup>.

(١) المعجم الوسيط، ص ١٢٦.

(٢) العويني، محمد علي، العلاقات الدولية المعاصرة، ص ٣٥.

(٣) العمق الاستراتيجي، ص ٣٥٨.

ويضيف السيد أوغلو في حديثه عن أهمية العمق الجغرافي والتاريخي، فيقول: «إن تفسير عملية ما يتطلب عمقاً تاريخياً يستوعب عامل الزمان، وعمقاً جغرافياً يستوعب عامل المكان، يحقق العمق التاريخي دخولنا إلى روح الأحداث، ويحقق العمق الجغرافي دخولنا إلى المجال المادي الذي تجسدت فيه هذه الروح. إن محاولة تحديد الوضع الدولي للمجتمعات التي لا يمكن حصر تأثيرها بالمساحة الجغرافية التي تقع عليها بسبب اعتبارات تاريخية أو بسبب عوامل تأثير فعلية، لا بد أن تضع في مركز نظرتها التحليلية المتناسقة العمق الثنائي المذكور (الجغرافي - التاريخي). لذا فإن التحليل الذي يفتقر إلى عمق تاريخي، سينتج ظواهر منفصلة يصعب ربطها ببعضها البعض؛ كما أن التحليل الذي يفتقر إلى العمق الجغرافي سينتج عنه عموميات سطحية لا تستطيع ربط الجزء مع الكل. ومن خلال الوحدات الجزئية المتقطعة لا يمكن الوصول إلى تكامل متناسق<sup>(١)</sup>.

أهم العوامل الجغرافية المؤثرة في السياسة المحلية والدولية:

#### ١- الموقع الجغرافي:

يعتبر الموقع الجغرافي لدولة ما أحد عناصر «القوة أو الضعف» التي تحدد بشكل كبير مكانة هذه الدولة السياسية في المنطقة، وضمن المنظومة الدولية. فمن الدول من جلب لها موقعها الجغرافي مكانة سياسية قوية، ومنها من تسبب لها موقعها الجغرافي بأزمات وإشكالات عديدة.. فموقع الولايات المتحدة الأمريكية - مثلاً - المحاطة بالمحيطين الاطلسي والهادي، قدم لها خط حماية بحري قوي، وكذلك قدرة تحكم بحرية بمعظم أنحاء الكرة الأرضية تقريباً.. وهذا الموقع هو ما فرض عليها «أولوية استراتيجية» لتكوين أسطول بحري ضخم متفوق يضم بوارج

(١) العمق الاستراتيجي، ص ٢٢-٢٣.

وحاملات طائرات، ويملك إمكانية النقل المتتابع والدعم اللوجستي.

في المقابل نجد دول أوروبا الشرقية، قد عانت كثيراً بسبب موقعها الجغرافي، حيث فرض الاتحاد السوفيتي عليها التبعية له، أثناء الحرب الباردة. واحتلت معظم دول الشرق الأوسط بسبب موقعها الجغرافي، وبقيت لقرون محط أطماع المستعمرين.. «منذ اكتشاف الكتابة وبداية التأريخ، تعتبر المنطقة التي سميت بالشرق الأوسط مهد الحضارات، ونقطة تقاطع الحضارات التي نشأت في مناطق أخرى من العالم. وتتحقق أهمية المنطقة كنقطة اتصال على المستوى العالمي، ليس في مجال انتقال البضائع التجارية بين الشرق والغرب فحسب، بل في مجال انتقال الثقافات، والعقائد والحضارات أيضاً.. لذا أصبحت السيطرة على الشرق الأوسط، خطوة لا بد منها لأي دولة ترغب في السيطرة على العالم»<sup>(١)</sup>.

إن الموقع الجغرافي لدولة ما يمكن أن يشكل قيمة استراتيجية كبيرة أيضاً، لدول بعيدات عنها، خاصة الدول العظمى التي دأبت على إقامة قواعد لها في أماكن استراتيجية من العالم.. فعلى سبيل المثال وأثناء الحرب الباردة، أقام الاتحاد السوفيتي قواعد له في القرن الأفريقي والشرق الأوسط، واقترب كثيراً من الولايات المتحدة الأمريكية من خلال إقامته قواعد عسكرية في كوبا التي تبعد نحو (١٥٠ كم) فقط عن شواطئ فلوريدا.

في المقابل أقامت الولايات المتحدة قواعد لها في أماكن، مثل: الفلبين، جنوب فيتنام، كوريا الجنوبية، إضافة لقواعدها غرب أوروبا ضمن تحالف (الناتو) وحتى بعد انتهاء الحرب الباردة لا تزال روسيا ترى في وجود قواعد في أماكن حساسة من العالم قيمة استراتيجية لها. وإقامتها للقاعدة العسكرية الكبيرة لأسطولها البحري في ميناء

(١) العمق الاستراتيجي، ص ١٥٧.

اللاذقية السوري، يندرج في هذا السياق.. وما دفاعها المستميت عن النظام السوري إلا لأنه يتيح لها إقامة قواعد عسكرية على أرضه، ويحقق لها مصالحها الاستراتيجية.. أما أميركا فقد استغلت حرب الخليج لتعزيز قواعدها هناك.. إضافة إلى قواعدها الكثيرة المنتشرة حول العالم، مثل تركيا وألمانيا.

ولم يعد الأمر مقتصرًا على الدول الكبرى فحتى «إسرائيل» أصبح لها قواعد عسكرية في أماكن مختلفة من العالم. خاصة في بعض الدول الإفريقية، مثل إرتيريا حيث قامت إسرائيل عام ١٩٩٦م باستئجار أرخبيل «دهلك» وهو تجمع جزر في البحر الأحمر قرب السواحل الإرتيرية، مقابل إنشاء محطات كهرباء تزود المحافظات الإرتيرية بالكهرباء.. وقد أقامت إسرائيل على هذه الجزر أكبر قاعدة عسكرية إسرائيلية خارج حدودها، وتضم هذه القاعدة وحدة تنصت الكتروني تابعة لشعبة «أمان» تحتوي على أبراج هوائية، وأطباق لاقطة، تقوم بالتنصت على المكالمات اللاسلكية الصادرة من السفن في البحر الأحمر، إضافة إلى مراقبة هذه السفن وكذلك التنصت على مكالمات هاتفية واختراق عناوين إلكترونية في السودان.. وذكر أن هذه الوحدة تعترض المكالمات الهاتفية التي يجريها القصر الجمهوري في السودان.. وذكر موقع «عربيل»<sup>(١)</sup> أن الطائرات التي اعتدت على مجمع «اليرموك» في السودان انطلقت من «دهلك».. ولا تزال طائرات إسرائيلية مرابطة هناك.. كما أن إسرائيل تستخدم هذه الجزر للتخلص من نفاياتها النووية.. وفي تقرير نشره موقع معهد «ستراتفور»<sup>(٢)</sup> يبين فيه أن إسرائيل ليست وحدها التي تملك قواعد في إرتيريا، بل إن إيران تحتفظ هي الأخرى بتواجد عسكري في الميناء الجنوبي لإرتيريا، وأضاف الموقع: بالتوازي مع علاقتها مع إسرائيل تقيم إرتيريا علاقات طيبة مع إيران. ولطهران مصلحة شديدة في

(١) عربيل: صوت إسرائيل باللغة العربية.

(٢) معهد «ستراتفور»: معهد استخباراتي أمريكي تطلق عليه الصحافة اسم ال CIA في الظل.

التواجد في هذه المنطقة، وذلك لرغبتها في السيطرة على مضيق باب المندب.. في عام ٢٠٠٨م وقعت طهران اتفاقاً مع إريتيريا تحتفظ بموجبه إيران بقوة عسكرية في «أساب» والهدف الرسمي هو حماية المصافي الموجودة في المنطقة.. كما أن إيران دربت مجموعات من الحوثيين في هذه الجزر.

وفي سياق حديثنا عن الموقع الجغرافي ينبغي أن نشير هنا إلى الأهمية الاستراتيجية التي يتميز بها الشرق الأوسط، بحيث يصل بين ثلاث قارات: آسيا، وأفريقيا وأوروبا، من خلال ثلاث ممرات مائية هامة:

• **الممر الأول:** هو مضائق البسفور والدرديل، اللذان يربطان البحر الأسود مع البحر الأبيض المتوسط، ويفصلان القارة الأوروبية عن الآسيوية. ولأهمية هذه المضائق توجهت الأنظار للسيطرة عليها قديماً.. فقد وقعت حرب طاحنة بين «أثينا» و «أسبارطة» (٤٣١ - ٤٠٠) قبل الميلاد، ولا يزال الصراع على هذه المضائق - التي تعتبر ذخراً ثميناً في يد تركيا - مستمراً حتى الآن.

• **الممر الثاني:** قناة السويس، والتي تعتبر بوابة آسيا وأوروبا لأفريقيا.. ولأهميتها الاستراتيجية كانت عبر التاريخ محط أطماع الغزاة والمستعمرين، فلما وجه نابليون حملته لاحتلال مصر سنة (١٧٩٨م) كان الاستيلاء على القناة أهم أولوياته وأهدافه. ثم ما لبث أن نشب الصراع بين فرنسا وبريطانيا على القناة، ثم عادت قناة السويس التي تصارعها عليها - وجمعتهم - في العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦م) عندما تم تأميمها، وشعرتا بتهديد مصالحتها فيها.

وأحسب أن الخطة التي وضعها الرئيس المعزول «محمد مرسي» - فك الله أسره - لتطوير القناة كانت أحد الأسباب الأساسية التي دفعت «المتأمرين» لسرعة الإطاحة به، ذلك أن الغرب وإسرائيل ما كانوا يسمحوا للإسلاميين التحكم في هذا الممر المائي

الهام والإشراف على حركة الملاحة العالمية، بما في ذلك السفن والغواصات العسكرية الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية التي تجوب البحار دون رقيب أو حسيب.

ويؤكد هذا التصور ما ذكره الدكتور محمد الجوادى على موقع الجزيرة نت، حيث قال: وصل الأمر إلى أن قال لي أحد وزراء الانقلاب الفاعلين: إن القرار بالانقلاب قرار أميركي صرف ولا رجعة فيه، وأنه اتخذ على أعلى مستوى، ونحن نركب موجته ليس إلا. فسألته بتهذيب شديد عن نطاق كلمة «نحن»، فقال بوضوح لا لبس فيه إنها تشمل أربعة: قيادة الجيش، وجبهة الإنقاذ، ومجموعة الفلول، وكبار الموظفين من أمثالنا. وفي ظل التمهيد «المدفعجي» المكثف للانقلاب كانت مقطوعات مخادعة قد ألفت بقصد التشويش فحسب، لكنها سرعان ما تحولت بسبب الإلحاح الاستراتيجي إلى سيمفونيات يتكرر عزفها (فردياً وجماعياً) عن تحالف الإخوان المسلمين الوثيق مع الأمريكان والإسرائيليين، أو على الأقل عن علاقات تعاون جيدة ومتطورة للأحسن.

وهكذا فإنه مع ضيق الوقت كانت تنمو ازدواجية صارخة في الخطابية السياسية. فمن ناحية ازداد حديث الرسميين الأميركيين عن الشرعية واحترامها، وعن الانقلاب واستبعاده واحتقاره، وارتفع ضجيج الآلة الإعلامية المتهمه للإخوان والرئيس المنتخب بالعمالة لأميركا وإسرائيل. ومن ناحية أخرى (لازمة ومتلازمة)، كانت حاجة الانقلابيين تزداد مع الوقت إلى إقناع مؤيديهم سرا ثم علنا بالعكس الصريح، وهو أن أميركا بقضها وقضيضها مع الانقلاب روحا وعملا، وقد وصل الأمر بخلايا الانقلاب إلى تمويل تنظيم رحلات مكوكية لعدد كبير من المصريين البارزين إلى واشنطن ليسمعوا بأذانهم ترحيبا أميركيا بالتغيير المخطط له.. وكان هؤلاء الفنانون والسياسيون والمشاهير يعددون فيصرون في المجالس الخاصة بأن المسألة مسألة

وقت، وأن قرارا أميركيا قد اتخذ بالقضاء البات دوليا على الإخوان في مصر وتركيا وتونس وقطر وغزة وليبيا وكل مكان محتمل مهما كان الثمن، وأن تنفيذ قرار الإعدام الجماعي لن يستغرق أكثر من ثلاثة أيام. وبعدها يمكن لأمركا أن تحتفل بلا موارد بكونها البطل المنقذ الذي قبل أن يتخفى لفترة يكون فيها بمثابة الجندي المجهول.

• الممر الثالث: الخليج العربي، والذي يمثل البوابة لعالم النفط.. يقول وزير الدفاع الأمريكي الأسبق كاسبر وايتبرغر في (آذار ١٩٨٠ م): «إن الحبل السري للعالم الصناعي الحر يمر عبر مضيق هرمز إلى الخليج العربي والبلدان المحيطة. هذه المنطقة، جنوب غرب آسيا هي الآن وستظل مركز التنافس في المستقبل المنظور»<sup>(١)</sup>.

«وفي ٢٣ يناير كانون الثاني ١٩٨٠ م وبعد سلسلة من الهبات في المنطقة حدد الرئيس كارتر بشكل رسمي الخليج كمنطقة ذات أهمية عسكرية كبرى للولايات المتحدة. وأبلغ اجتماعاً مشتركاً لمجلس الكونغرس: «ليكن موقفنا واضحاً قاطعاً، أن أي محاولة من جانب أي قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج العربي ستعتبر هجوماً على مصالح الولايات المتحدة الخارجية» ومن ثم سنرد بكل الوسائل الضرورية بما في ذلك القوة العسكرية» هذا الإعلان الذي سمي على الفور «مبدأ كارتر» أعيد باعباره التبرير الرئيسي لتوسيع آلة الحرب الأمريكية»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا يتضح لنا سبب التدخل الأمريكي العسكري السريع في الخليج عقب احتلال العراق للكويت عام (١٩٩١ م) ضمن ما عرف وقتها بالتحالف الدولي، وسبق ذلك إشراف أميركا وإدارتها للحرب بين العراق وإيران عن بعد بكل مكر ودهاء.

(١) انظر: كليز، مايكل، حروب الطاقة في الشرق الأوسط، ترجمة: محبوب عمر، ص ٥٥،

منشورات شمس، ط ١، ١٩٨٢ م، مؤسسة الإيمان العربية - بيروت.

(٢) حروب الطاقة في الشرق الأوسط، ص ٤٧.

وقد دفعت الأهمية: «الجيوبوليتيكية» للشرق الأوسط الدول العظمى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لفرض حالة «التبعية» على دول الشرق الأوسط. وذلك حتى تضمن الحفاظ على مصالحها في المنطقة، ومن البدهي أن تقيّد هذه التبعية القرار السياسي لهذه الدول، وتجعلها مرتبطة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً بالدولة المهيمنة عليها.. ومعلوم أن الدولة التي تمنح برضاها لدولة أخرى جزءاً من أرضها لإقامة مواقع وقواعد استراتيجية عليها، تحصل على بعض المساعدات من هذه الدولة، وهذه المساعدات تعزز من تبعيتها للدولة الكبرى، وتجعلها تدور في فلكها.. وستبدل «الدولة الكبرى» ما وسعها من جهد للمحافظة على تلك التبعية، ولن تسمح لحدوث أي تحول سياسي في الدولة «التابعة» يمكن أن يؤثر على تلك العلاقات، وتلك المصالح.

وبالحديث عن الموقع الجيو-استراتيجي للدول، نشير إلى أن علماء الجغرافيا السياسية قسموا الدول الواقعة على حدود الدول العظمى إلى: دول حاضرة، ودول حدودية.

• **الدولة الحاضرة:** وهي الدولة التي تقع بين دولتين أو أكثر من الدول القوية المتصارعة، وهذا الموقع الحساس يحولها إلى ساحة صراع في حالة وقوع حرب أو اشتباك مسلح بين الدولتين المتحاربتين.. أما في أوقات السلام، فإن الدول القوية تعتبر الدولة «الحاضرة» مصدر تهديّة واستقرار، ومن أجل المحافظة على الواقع القائم تعمل على ضمان أمن واستقرار تلك الدولة.. ومن أمثلة تلك الدول: بولندا التي فصلت بين ألمانيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق، وبلجيكا التي فصلت بين فرنسا وألمانيا في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ومن أمثلة الدولة الحاضرة في الشرق الأوسط «الأردن» - في نظر إسرائيل -



فهي ترى فيها حاجزاً بينها وبين دول معادية لها مثل العراق - سابقاً - وإيران.. ومن أجل ذلك، فإن استقرار الوضع الأمني والسياسي في الأردن يعتبر هدفاً استراتيجياً لإسرائيل، تسعى جاهدة للحفاظ عليه. وهذا ما يفسر قيام طائراتها بالتحليق فوق قافلة الدبابات السورية التي كانت متوجهة نحو الأردن، أبان أحداث أيلول الدامية بين منظمة التحرير والنظام الأردني، واجبارها على الرجوع.

وضمن هذه السياسة الاستراتيجية اشترطت إسرائيل في اتفاقية السلام بينها وبين مصر إبقاء سيناء منطقة معزولة السلاح.

• **الدولة الحدودية:** وهي الدولة الواقعة على حدود دولة أقوى منها، وترى فيها جزءاً من الساحة الأمنية لها، وكلما زادت أهمية تلك الحدود للدولة الكبرى، زاد تطلعها ورغبتها في ضمها إلى منظومة دفاعها، لتوسع العمق الاستراتيجي لها، بحيث تجعل منها ساحة قتال أولي لصد الهجوم المعادي قبل أن يصل عمقها، فتبعد بذلك الخطر المباشر عن المركز السكاني لها. ومن أمثلة الدول الحدودية: أوكرانيا التي تشهد اليوم صراعاً دائماً بين الغرب وروسيا عليها، ف فيما بذل الاتحاد الأوروبي وأمريكا جهوداً مفضية لضمها إلى الاتحاد الأوروبي.. فإن روسيا قاومت ذلك بكل قوة، واستخدمت كل ما في يديها من أوراق للحيلولة دونه.

## ٢- القرب من المسطحات المائية:

يشكل القرب من المسطحات المائية ميزة هامة جداً للدولة، فهو يتيح لها إدارة علاقات تجارية و سياحية واسعة، ويشكل مصدراً مهماً للموارد الاقتصادية كالنفط والغاز، إضافة إلى الصيد، ومن الناحية العسكرية يتيح لها تحريك القوات بشكل سلس، و متميز عن التحرك البري والجوي. كما يشكل القرب من المسطحات المائية «رئة» للتواصل مع العالم الخارجي، خاصة لدولة محاطة بالأعداء.. فيما تعتبر الدول

التي ليس لها اتصال بالبحر «مخنوقة» وعليها الاستعانة في حالات كثيرة بدول أخرى للوصول إلى البحر.. وتصنف الدول من حيث قربها وإطلالها على المسطحات المائية إلى ثلاثة أنواع:

- دول هن جزر، مثل بريطانيا واليابان.
- دول شبه جزر، مثل إيطاليا والهند.
- دول تطل على المسطحات المائية من أحد الشواطئ فقط، ومعظم دول العالم من هذا النوع.

ونذكر مثلاً على أهمية الإطلال على المسطحات المائية: العراق، فخلال حربه مع إيران أغلق المنفذ الوحيد له مع البحر وهو «شط العرب» فاضطر إلى نقل نفطه عبر أنابيب عن طريق السعودية إلى الخليج وعن طريق تركيا للبحر المتوسط.. ويعتبر تطلع العراق لتوسيع اتصاله بالخليج العربي، أحد الأسباب وراء غزوه للكويت لما يتمتع به الكويت من إطلالة واسعة نسبياً على الخليج.

### ٣- مساحة الدولة:

تعتبر مساحة الدولة أحد العناصر المهمة في تحديد قوتها.. فمساحة الدولة لها تأثير مباشر في قوة اقتصادها، وفي مقدرتها على الدفاع عن نفسها وصد أي عدوان عليها.. من هنا نرى أن الدول العظمى القوية هن - أيضاً - صاحبات مساحة كبيرة.. فالاتحاد السوفيتي «السابق» كان يمتد على مساحة قدرها (٤, ٢٢) مليون كم مربع بما يمثل سبع مساحة الكرة الأرضية، ويوازي ضعف قارة أوروبا، وقد كان لمساحة الاتحاد السوفيتي الشاسعة دور كبير في صد غزو نابليون وهتلر لها.. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي بقيت روسيا تحتل المركز الأول بين دول العالم من حيث مساحة أراضيها والتي هي نحو ١٧ مليون كم مربع فيما تتربع الولايات المتحدة على مساحة

قدرها نحو (١٠) مليون كم مربع. لكن يلزم أن نشير الى أنه بعد التقدم التكنولوجي الكبير، تقلص دور مساحة الدولة مقارنة بالماضي.. فقد قربت التكنولوجيا الحديثة المسافات بين الدول وجعلت من العالم قرية صغيرة - كما يقولون - وأصبح من الممكن أن تنشب بين الدول حروب حتى وإن لم تكن متجاورة. ورأينا كيف أن العراق في حرب الخليج قصف «إسرائيل» بصواريخ سكاك رغم أنه ليس بين الدولتين حدود مشتركة.. وهذا ما تتخوف منه إسرائيل اليوم من إمكانية تعرضها لوابل من الصواريخ الإيرانية في حال نشوب حرب بينها وبين إيران، أو بين إيران والغرب.. وهذا ما يجعلها تتردد وتحجم حتى الآن عن قصف مواقع إيران النووية. وفي بعض الأحيان تصبح مساحة الدولة عنصر ضعف لها وليس عنصر قوة، وذلك إذا كانت محاطة بالأعداء ولا تستطيع حماية حدودها الواسعة، لقلة عدد سكانها مقارنة بمساحتها، ولضعفها العسكري والتقني.

من هنا لزم أن ندرس مساحة الدولة موازاة بعدد سكانها، كعامل ضمن عوامل عدة تحدد قوة أو ضعف الدولة.

إنك لتجد دولاً ذات مساحات شاسعة، وأرض خصبة معطاءة غنية بالمواد الخام والمعادن.. ومع ذلك، فهي تعد من الدول الفقيرة المتخلفة!! وذلك لفساد وعدم أهلية قيادتها، وعجز وكسل شعبها.. فيما تجد دولاً صغيرة المساحة قليلة الموارد ومع ذلك فهي تعد من الدول الغنية المتقدمة، التي استطاعت أن توفر لشعبها الاكتفاء والرفاهية.

انظر إلى مساحة كلٍّ من: السودان (٢،٥٠٥،٨١٣) والجزائر (٢،٣٨١،٧٩١) والسعودية (٢،٢٤٠،٠٠٠) مقابل مساحة هولندا - مثلاً - (٤٠) الف كم ٢!

بقي أن نذكر أن مساحة الدولة يمكن أن تلعب دوراً مهماً في حال تعرضها

لهجوم بأسلحة غير تقليدية حيث تعطى لها مساحتها الواسعة فرصة لنجاة جزء من سكانها من الإبادة، في حين تقل الفرصة أمام الدول صغيرة المساحة.

#### ٤- الحدود:

تعد الحدود - اليوم - عنصراً من عناصر قيام الدولة واستقلالها. وهي قضية حيوية في العلاقات الدولية، فما زالت الصراعات على الحدود على مستوى العالم من القضايا الرئيسية التي تكاد تشغل كل دولة، خاصة دول الشرق الأوسط وأفريقيا حيث أن رسم الحدود بين هذه الدول فرضته القوى الاستعمارية دون مراعاة وحدة الشعوب، والقبائل والعائلات، والأديان، والثقافات.. فبسبب ذلك صراعات وحروب كثيرة.. «إن القبيلة الواحدة في أفريقيا كانت تقسم إلى جزئين، جزء ينتمي إلى الدولة، وجزء آخر ينتمي إلى دولة أخرى. ولذلك فإن ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية ينص ضمن ما ينص على بقاء الحدود على ما هي عليه في محاولة للتقليل من الصراعات الإفريقية، ورغم ذلك فإن قضايا الحدود ما زالت قضية رئيسية من قضايا الصراعات الإفريقية، ونذكر من هذه الصراعات: الصراع الأثيوبي الصومالي على الحدود»<sup>(١)</sup>.

والمتمفحص لخارطة الوطن العربي يجد أن دول الاستعمار أبقت قبل جلائها بشكل متعمد حدوداً مختلفاً عليها بين كل دولة وجارتها، فالمملكة العربية السعودية على سبيل المثال لها خلافات ونزاعات حدودية مع جميع الدول المحيطة بها: خلافات مع اليمن على الحدود، ونزاع مع الإمارات العربية المتحدة أيضاً على الحدود، ومع الكويت على جزر قاروح وأم الرادم «حدود بحرية» ومع قطر نزاع حول شريط من الأرض تبلغ مساحته عشرة أميال مربعة غنية بالنفط والغاز الطبيعي، ولقطر أيضاً نزاع مع البحرين حول الحدود ظل قائماً بينهما منذ استقلالها عن بريطانيا

(١) العويني، د. محمد علي، العلاقات الدولية المعاصرة، ص ٤٠.

في أوائل السبعينيات وهو يدور حول جزر حوار الغنية بالإمكانات النفطية، وفشت الدبل ومنطقة قطعة الجرادة للمياه الضحلة إضافة إلى مجموعة من الشعاب المرجانية والحوارج البحرية، ولها كذلك نزاع مع إيران حول مستودع للغاز<sup>(١)</sup>.

ومن أشنع صور تمزيق السكان والعائلات عبر الحدود ما حل بعائلات مدينة «رفح» التي قسمها الاحتلال شطرين بين قطاع غزة ومصر فألحق جزء منها بمصر، فيما بقي الجزء الآخر يزرع تحت الاحتلال الصهيوني.. ثم جاء النظام المصري - الحالي - ليكمل المأساة، وليفعل ما أحجم الاحتلال عن فعله! فدمر جميع بيوت «رفح المصرية» وشرّد أهلها في الأرض، مباعداً بينهم وبين أقاربهم في قطاع غزة.. وهدم الأنفاق - التي تمثل شريان حياة قطاع غزة - وشرع بإقامة منطقة عازلة بعرض كم واحد، والنية تتجه لتوسيعها حتى تبلغ ٥ كيلو مترات مع قناة مائية بعمق ٣٠ متراً.. كل ذلك - فقط - لترضى عنه اليهود والنصارى، وتقبل به، وتبقيه حاكماً مستبداً، متسلطاً على شعبه!

وحتى يسهل تمرير مؤامراته سخر زمرة من وسائل إعلامه ومن الإعلاميين «المأجورين» لتشويه المقاومة الفلسطينية الباسلة المشرفة، موهمين المغفلين البسطاء السذج من المصريين، أن المقاومة الفلسطينية تهدد أمنهم القومي، وتقتل جنودهم!

ومن المضحك حد السخرية، إجماع «المحللين العسكريين النظاميين» على القول بأن السلاح والمتفجرات تهرب من غزة إلى سيناء! فيما كانوا هم أنفسهم بالأمس القريب، ومعهم أمريكا وإسرائيل يقولون أن السلاح يهرب لغزة من سيناء.. وكم من مرة زعمت السلطات المصرية وضع يدها على أسلحة وصواريخ في طريقها إلى غزة من سيناء! وكم من مرة أعلنت إسرائيل ضربها أو سيطرتها على سفن بحرية

(١) انظر: عيسى، محمود، نظرية المؤامرة في القرآن الكريم، ص ٥٤، ط ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، مؤسسة فلسطين للثقافة.

محملة بالأسلحة في طريقها إلى قطاع غزة عبر سيناء؟! فمن يهرب السلاح إلى من؟!!

### الحدود المسكونة والفارغة:

الحدود الخالية من السكان تتيح للدولة زراعتها بالألغام، والاستفادة من هذه المساحة في حالة الانسحاب التكتيكي في الحروب. بينما تشكل الحدود المسكونة هدفاً مفضلاً لضربه من قبل الدولة المعادية. ومع ذلك يمكن أن يكون للحدود المسكونة دوراً إيجابياً بحيث تشكل خط دفاع أولى للدولة، وتساعد القوات المسلحة لوجستياً.

### ٥- الطوبوغرافيا:

تؤثر الطوبوغرافيا في السياسة الدولية إذ أنها تدرس شكل الأرض، وما إذا كان هناك تضاريس، ومواقع طبيعية تعوق نظم الاتصالات في الدولة، ونظم العلاقات بين الكائنات البشرية فيها. فمثل هذه المسائل الخاصة بشكل الأرض أو الطوبوغرافيا تشكل نوعاً من التحديات - إن صح ذلك التعبير - التي تواجه النظام السياسي في الدولة، كما أنها في نفس الوقت تؤثر على السياسة الخارجية للدولة<sup>(١)</sup>.

كما أن «الطوبوغرافيا» تأثيراً كبيراً أعلى وضع الدولة الاقتصادي والأمني، وبالتالي السياسي. فتضاريس الدولة تلعب دوراً مركزياً في إنتاجها الزراعي والصناعي، وفي وفرة، وسهولة أو صعوبة استخراج ما في باطن الأرض من خيرات.. وفي استقطاب السياحة العالمية إليها.. كما تلعب التضاريس دوراً هاماً في قدرة الدولة على الحفاظ على أمنها القومي ورد العدوان عنها.

### ٦- المناخ:

للمناخ تأثير واضح على اقتصاد الدولة لم يستطع التقدم التكنولوجي الحد

(١) العلاقات الدولية المعاصرة، ص ٣٨ - ٣٩.

منه. فدرجة الحرارة، والجفاف والرطوبة وقوة الرياح في مواسم السنة المختلفة وغير ذلك يؤثر على القدرة الزراعية، وبالتالي على مقدرتها إنتاج وتوفير غذائها.. كما ويؤثر على عدد المستثمرين الأجانب.

أما من الناحية العسكرية فإن المناخ يؤثر على سهولة وصعوبة السيطرة على هذه الدولة بالقوة. كما ظهر ذلك جلياً من خلال فشل حملة نابليون، وغزو الجيش النازي لروسيا، حيث وجد الغزاة أنفسهم في مواجهة عدو لا قبل لهم به وهو «برد الشتاء القارص» ويتحدث بعض الكتاب وخاصة الفرنسيون منهم عن نظرية المناخ في العلاقات الدولية، ويتعرضون لتقسيم العالم إلى: مناطق حارة، ومناطق معتدلة، ومناطق باردة، وأن الدول المتخلفة تقع في المناطق الحارة، أما المناطق الحرجة وهي الواقعة بين الحارة والباردة (والعالم العربي جزء منها) فهي منطقة وسط ما بين التقدم والتخلف.. وواضح أن هذه دعاوى عنصرية في المقام الأول<sup>(١)</sup>.

لكن مع ذلك لا يمكننا أن نتجاهل أن سكان المناطق الحارة يجابهون تحديات جمة تُصعب عليهم العمل بجد وكد، مما دفع كثيراً منهم لأن يؤثروا الراحة مع دخل قليل على العمل الشاق المضمني بدخل وافر.. ولو أنهم فكروا استراتيجياً بروح الجماعة والمسؤولية الوطنية والقومية، لتحملوا المشقة والتعب والنصب لفترة من الزمن، ولنهضوا بوطنهم وأعلوا من مكانته اقتصادياً وسياسياً.. فإن الوطن - بلا شك - سيحملهم فيما بعد، ويوفر لهم وللأجيال من بعدهم الراحة والرفاهية التي يفتقدونها.. ولسجل لهم التاريخ هذا الدور المشرف، كما سجل من قبل للصينيين والكوريين واليابانيين.



(١) العلاقات الدولية المعاصرة، ص ٤١، بتصرف.

## ثالثاً: السياسة والاقتصاد

الاقتصاد لغة: هو إتيان الشيء، تقول: قصدته، وقصدت له، وقصدت إليه. والقصد بين الإسراف والتقتير، يقال: فلان مقتصد في النفقة<sup>(١)</sup>.

مفهوم علم الاقتصاد: لا يوجد تعريف واحد محدد لعلم الاقتصاد.. ونختار من بين تلك التعريفات الكثيرة، تعريفاً يقول: «إنه العلم الذي يدرس كل ما يتعلق بالنشاط الإنساني المؤدي إلى خلق المنافع، أو زيادتها، مستهدفاً من وراء ذلك إشباع أكبر قدر من حاجاتنا المتعددة، بما نملك من إمكانيات محدودة»<sup>(٢)</sup>.

ويرتبط علم السياسة ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد، فالاقتصاد هو العنصر الأساسي الذي تبنى عليه سياسة الدولة الحديثة، وقد كان علم السياسة وعلم الاقتصاد يدرسان معاً ضمن مبحث «الاقتصاد السياسي». «وعرف الاقتصاد لأول مرة باسم الاقتصاد السياسي» وكان ذلك عام (١٦١٥) حيث نشر الاقتصادي الفرنسي أنطوان دي مونتكر يستيان كتاباً يحمل التعبير نفسه عنواناً له. وكان يقصد به تقديم بعض النصائح المفيدة للأمر في إدارة الدولة مما أدى إلى اقتران الاقتصاد بالسياسة نظراً لما تضمنه من خلط بين متطلبات الحكم الصالح ومبادئ نمو ثروة المجتمع. وقد استمر هذا الخلط إلى أن قام آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) بنشر كتابه المشهور ثروة الأمم عام ١٧٧٦ الذي

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصَّحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٣، ١٩٨٤م، دار العلم للملايين - بيروت.

(٢) بابلي، محمود محمد، الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية، ص ١٨، طبعة ١٩٧٥م، دار الكتاب اللبناني.



استخدم فيه تعبير الاقتصاد السياسي بمعنى العلم الذي يبحث في كيفية اغتناء الأمة ونمو ثروتها»<sup>(١)</sup>.

وكمثال حي يدل على عمق العلاقة بين الاقتصاد والسياسة «أعلنت الأكاديمية السويدية الملكية للعلوم في شهر تشرين أول عام ١٩٨٦م عن منح جائزة نوبل للاقتصاد للأستاذ الجامعي جيمس بوفانان المحاضر في جامعة جورج ماسون في ولاية فرجينيا الأميركية تقديراً لمؤلفاته في موضوع الاختيار العام، وهو من الحقول الحديثة نسبياً في علم الاقتصاد ومجاله هو السياسة العامة للدولة وأثر القرارات السياسية للدولة على الواقع الاقتصادي، ويستخدم أصحاب هذه المدرسة أساليب الاقتصاد الكمي كالإحصاء والرياضيات في توضيح العلاقة بين الاقتصاد والسياسة. إن ما يثير الاهتمام في هذه النظرية هو مفهومها للسياسة العامة للدولة على اعتبار أن القرار السياسي في أي من مجالات أنشطة الدولة هو قرار اقتصادي في جوهره يقوم على مبدأ تحقيق أكبر قدر من الفائدة للأطراف المشتركة فيه»<sup>(٢)</sup>.

إن القوة الاقتصادية للدولة هي بالأساس ما يحدد موقعها ومكانتها وتأثيرها في المجتمع الدولي. والقوة الاقتصادية لدولة ما هي مصدر مركزي في قدرتها على تحقيق أهدافها الاستراتيجية والسياسية والاجتماعية، فهي أساس التقدم التكنولوجي، وأساس بناء وتأهيل القدرات البشرية. ولا يمكن لأي دولة أن تقوم من غير اقتصاد. والقوة الاقتصادية للدولة هي بالأساس ما يمكنها من ممارسة سلطتها وبسط نفوذها. وعمل الحكومة بوزاراتها المختلفة هو في جوهره اقتصادي.

«إن من المشكوك فيه أن تستمر دولة ما في ممارسة حقها في السيادة لفترة

(١) مبادئ التحليل الاقتصادي الجزئي والكلّي، ص ١٦-١٧.

(٢) شهبان، أسامة، إدارة الدولة (المفاهيم والتطور)، ص ٧٨، ط ١، ٢٠٠١، دار الشروق، عمان - الأردن.

طويلة من الزمن في ظل أوضاع اقتصادية متدهورة، فضلاً عن كون التدهور الاقتصادي عاملاً رئيسياً من عوامل زعزعة النظام السياسي فإنه يفسح المجال أمام احتمالات تدخل قوى خارجية تقتنص الفرصة لبسط هيمنتها. لقد كان الفقر والفوضى الاقتصادية من الأسباب الكبرى لهيمنة الشركات متعددة الجنسيات على الدول الفقيرة في أمريكا الوسطى واللاتينية بحيث أطلق على بعضها لقب جمهوريات الموز نسبة إلى الشركات الاحتكارية الأمريكية التي كانت تسيطر على زراعة وتسويق محصول الموز في تلك الدول»<sup>(١)</sup>.

إن القوة الاقتصادية، متصلة اتصالاً مباشراً ووثيقاً بالمصادر المادية والبشرية المتوفرة بين يدي الدولة. من هنا فإن دراسة الاقتصاد يستدعي دراسة المصادر الطبيعية والبشرية.

#### المصادر الطبيعية:

الأرض قطع متجاورات.. وقد فضل الله بعضها على بعض، فجعل منها أرضاً خصبة صالحة للزراعة.. وجعل منها صحراء قاحلة لا تمسك ماءً ولا تنبت زرعاً.. وفجر في بعضها الأنهار، وأبقى بعضها جذباء شحيحة الماء.. وأودع في بطن بعضها كنوزاً وموارد مهمة مفيدة.. وجعلها في بعض الأرض ظاهرة سهلة الاستخراج.. وفي بعضها «غوراً» يصعب استخراجها، والاستفادة منها.. ومنع بعض الأرض منها بالمطلق.. من هنا فإن طبيعة الأرض تمثل عامل قوة أو ضعف للدولة.. وقد تجعل منها محل اهتمام وأطماع الآخرين.. فيحددون سياستهم نحوها - في الأساس - بناءً على غناها أو فقرها.

وسنستعرض فيما يأتي المصادر الاستراتيجية الأساسية الموجودة في الطبيعة،

وهي:

(١) إدارة الدولة (المفاهيم والتطور)، ص ٧٧.

١- الفحم: كان الخشب منذ آلاف السنين مصدر الطاقة الأساسية الذي اعتمد عليه الإنسان في حياته.. ومنذ القرن الخامس عشر أصبح الإنسان يستخدم الفحم كمصدر أساسي للطاقة، كونه أكثر منفعة وملاءمة، وفي القرن الثامن عشر ومع الثورة الصناعية أصبح الاعتماد على الفحم عنصراً أساسياً لا يمكن الاستغناء عنه، في الصناعة والتسخين، وتحريك عربات القطار.. وبلغ ذروة استخدامه كمصدر للطاقة في الحرب العالمية الأولى، وفي الفترة بين الحربين العالميتين. لكن بعد صناعة السيارات المتحركة بفعل «النفط»، وصناعة محركات الاحتراق الداخلي، والمحرك الكهربائي والتوربين، والمفاعل التوربيني. بدأ التحول نحو الاعتماد على النفط بدل الفحم في وسائل النقل الجوي والبري والبحري.. وأصبح معدل استخدام الفحم - بالتالي - ينحدر تدريجياً، وتأثرت بذلك اقتصاديات الدول الأوروبية المنتجة الأساسية للفحم. والتي أصبحت مضطرة للارتباط بالنفط، غير المتوفر في أراضيها.

«وقد خرجت أولى السيارات متكررة النموذج من مصانع فورد في ١٩٠٧، وبعد بضعة أعوام أعلن ونستون تشرشل، أن البحرية الملكية ستتحول لاستخدام المازوت»<sup>(١)</sup> لكن يلزم أن نشير إلى أنه رغم اكتشاف النفط فإن استخدام الفحم لم يتوقف بالمطلق، فلا زال يستخدم كمصدر للطاقة خاصة في إنتاج الكهرباء لرخص سعره. «فلا زال الفحم يمثل اليوم ٢٥٪ من تغطية حاجتنا من الطاقة. وفي الصين تبلغ ٦٩٪ وفي استراليا ٤٣٪، وفي جنوب إفريقيا ٧٥٪. وتبلغ تكلفة إنتاج طن الفحم (٢٠) دولاراً في كبرى المناجم الأسترالية المكشوفة و(١٢٠) الى (١٤٠) دولاراً للطن بالنسبة للفحم الألماني المدعم، وبالطبع ينبغي أن يضاف إلى تكاليف الإنتاج هذه، تكاليف النقل إلى

(١) شوفالييه، جان ماري، معارك الطاقة الكبرى، ص ٩٢، ترجمة: لميس عزب، ط ١، ٢٠١٠م، كتاب العربية - الرياض.

الوجهة النهائية<sup>(١)</sup>. وتعتبر استراليا وجنوب إفريقيا أكبر الدول تصديراً للفحم.

٢- النفط: اكتشف النفط في القرن الثامن عشر في روسيا، وأواسط القرن التاسع عشر في أمريكا لكنه لم يستخدم كمصدر أساسي للطاقة إلا في النصف الأول من القرن العشرين.. وهناك من يقول أن أول اكتشاف للبترول كان «في ١٨٥٩م في مدينة تيتوسفيل في بنسلفانيا، حيث اكتشف العقيد دريك حقل نفط عمقه ٢١ متراً»<sup>(٢)</sup> علماً أن البترول كان معروفاً منذ القدم حيث كان يتسرب من الأرض في بعض الأماكن مثل العراق، ويستخدم لإشعال النيران، والإنارة، وطلاء الأخشاب.

وتركز استخراج النفط في مطلع القرن العشرين في روسيا والولايات المتحدة، فقد حافظت الولايات المتحدة مدة ٥٠ عاماً على مكانتها كأول منتج ومصدر للنفط في العالم، تليها روسيا. ثم بدأ استخراجه بين الحربين العالميتين في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية أخذت دول الخليج العربي تحتل موقعاً مركزياً في استخراج النفط. «فقد بدأ الغزو النفطي للشرق الأوسط في بداية القرن العشرين عندما حصل ويليام نوكسي دراسي من شاه إيران بعد سلسلة من المساومات عام (١٩٥١م) على حق الانتفاع لمدة (٦٠) عاماً امتياز نفطي يغطي إجمالي البلد ثم في ١٩٠٨م تم اكتشاف حقل نفطي، وحتى يتمكن دراسي من استغلاله فقد أسس شركة «الأنجلو - برشن أويل» وهي التي أصبحت فيما بعد «بريتش بتروليوم».. وحصلت الحكومة البريطانية على مساهمة بالأغلبية في شركة (الأنجلو - برشن) وهكذا فقد تم اختيار موقع في عبادان في قلب الخليج لبناء مصنع تكرير في ١٩١٣م كان هو الأكبر على مستوى العالم»<sup>(٣)</sup> وسرعان ما تحولت أنظار

(١) معارك الطاقة الكبرى، ص ٤١ - ٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٩٢.

المستعمرين البريطانيين نحو العراق. وذلك بعد النجاح الذي تم تحقيقه في إيران، ومعلوم أن نفط العراق كان يطفو على سطح الأرض من القدم.

وأدى اكتشاف النفط في دول معينة دون غيرها لازدياد تأثير هذه الدول في منظومة العلاقات الدولية.. فظهرت وبرزت للعيان دول وإمارات صغيرة كانت مغمورة، لم يعرها العالم - إذ ذاك - أي اهتمام، مثل: عمان، قطر، الكويت، دبي، أبو ظبي، وغيرها.. فرفع النفط من شأن هذه الدويلات والإمارات، وعزز من مكانتها.. وجدير بالذكر أن منطقة الخليج العربي تميزت - كمنبع للنفط - بثلاث مزايا، هي: احتوائها على كميات ضخمة من النفط، وسهولة استخراج هذه الكميات، واستهلاكها القليل للنفط مقارنة بالكميات المستخرجة. «إن تكلفة إنتاج برميل نفط خام تتراوح بين دولار في أكثر المناطق إنتاجية مثل الشرق الأوسط و ١٢ إلى ١٥ دولاراً في أصعب المناطق وأقدمها، ومنها الشاطئ الشمالي الكبير، وشرق سيبيريا، والحقول الهامشية في تكساس»<sup>(١)</sup> لقد ظهر اهتمام وحرص الأمريكيين في الحصول على موقع قدم لهم في الشرق الأوسط مبكراً، ففي عهد الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي، دافع الأمريكيون عن مبدأ «الباب المفتوح» والذي يقضي بأن أي بلد واقع تحت الانتداب ينبغي أن يكون مفتوحاً للتجارة الدولية بشكل لا تمييز فيه.. «وكان عالم الجيولوجيا الشهير إفريت لي دي جولير، قد عاد من مهمة في الشرق الأوسط في (١٩٤٤م) وكان قد أقنع الحكومة الأمريكية بأن هذه المنطقة من العالم تحوي نفطاً يمثل أعظم كنز يمكن أن يمنحه باطن الأرض في تاريخ الإنسانية. وعليه فكان ينبغي الاهتمام بشكل خاص ببلد محدد هو المملكة العربية السعودية، إن هذا ما أدى بالرئيس روزفلت إلى تنظيم مقابلة مع الملك ابن سعود في فبراير ١٩٤٥م

(١) انظر: معارك الطاقة، ص ٤٠.

لدى عودته من يالطه، ومنذ هذه المقابلة.. بدأت علاقة نفطية مميزة جداً بين الرياض وواشنطن»<sup>(١)</sup>.

ومع ازدياد طلب الدول الصناعية على النفط، ازداد بشكل غير مسبوق استخراجها في الشرق الأوسط، ولم يكن حتى السبعينيات لدى دول الخليج النفطية أي مقدرة أو دراية باستخراج النفط، وبالتالي فإن شركات خارجية أمريكية وأوروبية، هي التي استحوذت واحتكرت استخراج وتسويق النفط. وظلت الشركات العالمية الكبرى لعشرات السنوات تستحوذ على نفط الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، ولا تقدم للدول التي يستخرج النفط من أراضيها إلا مبالغ رمزية.. وكانت هذه الشركات تبقى كل ما يتعلق بعملية التنقيب عن النفط واستخراجه وتسويقه، سرّاً لا تطلع عليه أحداً..

لكن ما لبث أن حدث بعد ذلك نزاع وصراع بين الدول النفطية والشركات الأجنبية. فقد تنهت البلدان المنتجة للنفط - ولو متأخراً - أن «ذهبها الأسود» يسرق من أرضها على عينيها.. فأخذت تتمرد بشكل تدريجي على الواقع القائم، وكانت دول أمريكا اللاتينية هي أول المتمردين، ثم تبعتها دول الشرق الأوسط.. وفي ١٩٥٠م تبنت كل من السعودية والكويت مبدأ القسمة على أساس المناصفة بين الدول المنتجة والشركات المستحوذة. وفي عام ١٩٦٠م تم تشكيل منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) من كل من إيران والعراق والسعودية والكويت وفنزويلا، وفي البداية كان عمل «الأوبك» يتمحور حول الأسعار، ثم اتسع ليشمل الاتفاق على نظام ضريبي موحد، ووسائل التحكم في الإنتاج. وتوسعت «الأوبك» لتصبح اليوم مكونة من كل من: السعودية، العراق، الكويت، فنزويلا، الجزائر، الإمارات العربية، أندونيسيا، الاكوادور، الجابون، ليبيا، قطر، نيجيريا.

(١) انظر: معارك الطاقة، ص ٩٨ - ٩٩.

ورغم انتقال السيطرة على استخراج وتسويق النفط إلى أيدي الدول النفطية إلا أن الشركات الكبرى الأجنبية بقيت تهيمن على سوق النفط، فحتى شركة (أرامكو) السعودية تتحكم فيها شركتا «سوكال» و«تكساكو» الأمريكيتان اللتان اندمجتا عام ٢٠٠٠م، وفرضتا على شركة «أرامكو» التعاون بل التبعية لشركتي «ستاندارد أويل» و«موبييل أويل» الأمريكيتين الكبيرتين.. وهكذا أصبحت الشركات الأمريكية هي المسيطر الوحيد في بلد كان يمتلك ولا يزال أكبر احتياطي نفطي في العالم<sup>(١)</sup>.

ولم تكتف أمريكا وأوروبا بهيمنة شركاتها الكبرى على النفط، بل دبرت لأن تعود أموال النفط إلى بنوكها وتستثمر في اقتصادها، فيما يحتفظ العرب بأرقام حسابات لهم في هذه البنوك!

«كان جزء كبير من البترودولارات السعودية «يعاد تدويرها» في الاقتصاد الأمريكي وخصوصاً في صناعة التسليح وبناء الطائرات، والخدمات النفطية والمالية»<sup>(٢)</sup>.

ثم تحول النفط لسلاح سياسي، استخدمه العرب مرة واحدة فقط في أعقاب حرب أكتوبر - رمضان (١٩٧٣ - ١٩٧٤م) وهنا يذكر فيشكر الدور المشرف للملك فيصل في حمل العرب على استخدام النفط كسلاح في وجه الغرب.. وبعد هذا الحدث أصبحت الدول التي تعتمد بشكل كبير على استيراد النفط، تنوع مصادر وارداتها، ولا تربط نفسها بمصدر واحد قد يشكل انقطاعه لسبب أو لآخر أزمة اقتصادية لديها.. كما أصبحت الدول الصناعية المستوردة للنفط تبحث بشكل جدي عن مصادر بديلة للطاقة.

(١) انظر: معارك الطاقة، ص ٩٩.

(٢) معارك الطاقة، الكبرى، ص ٣٠٦، نقلاً عن كتاب «النوم مع الشيطان» لروبيد باير.

ولإبراز أهمية النفط وتأثيره على الاقتصاد العالمي نذكر المعطيات التالية: «بيع المنتجات المكررة من النفط الخام في الأسواق العالمية يمثل دخلاً يبلغ (٢٠٠٠) مليار يورو في السنة، شامل كل الضرائب.. وينبغي استقطاع مجمل النفقات التي لزمّت للكشف عن النفط الخام ولإنتاجه ونقله إلى معامل التكرير.. ويمكن تقدير هذه النفقات بحوالي ٥٠٠ مليار يورو. يمثل إذن الفرق بين الدخل والتكاليف والذي يبلغ (١٥٠٠) مليار يورو فائض النفط.. وهو «الكعكة» التي يتقاسمها الفاعلون من القطاع العام والخاص الداخليين في سلسلة القيمة.. ويتواجه ثلاثة فاعلين للحصول على الربح، أولهم الدولة المنتجة التي عادة ما تكون صاحبة جوف الأرض، وشركات الطاقة الموجودة في مختلف التخصصات، وأخيراً حكومات البلدان المستهلكة التي تهتم بالدخل الضريبي»<sup>(١)</sup>.

لقد استطاعت بعض الدول النفطية - مؤخرًا - استغلال ثروتها الهائلة، وتشويه أنبل ظاهرة شهدها الوطن العربي، منذ عقود.. وتمكنت من حرف ثورات الربيع العربي عن مسارها.. بشرائها ذمم حفنة من الفاسدين المفسدين.. لكننا على يقين أن الزبد يذهب جفاءً، وأن ما ينفع الناس سيمكث في الأرض.. وأن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله سينفقونها «ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون»، وقد بدأت أمارات ذلك تظهر مؤخرًا، بعد أن أخذت أسعار النفط بالانخفاض الحاد في أعقاب اعتماد الولايات المتحدة الأمريكية سياسة جديدة تقضي باستخراج النفط الصخري من أرضها على نطاق واسع، حيث تشير التوقعات إلى أن الولايات المتحدة ستنتج نحو ١١ مليون برميل يومياً، وهذا يعني أن أسعار النفط مرشحة لمزيد من الانخفاض، وإذا أضفت إلى ذلك رفع العقوبات عن إيران، وإمكانية تحسين الوضع الأمني في كل من العراق وليبيا، مما سيتسبب بفائض كبير في الإنتاج، وبالتالي حدوث مزيد من الانخفاض في

(١) معارك الطاقة، ص ٤٢ - ٤٤.



أسعار النفط، الأمر الذي من شأنه أن يحدث انقلاباً في الخارطة السياسية والاقتصادية العالمية، فستنهار اقتصادات، وتنمو اقتصادات.. ودول الخليج العربي ستكون من أكثر دول العالم تضرراً، بسبب اعتماد اقتصادها، على مصدر واحد هو البترول.. إذ يشكل النفط حوالي ٧٥٪ من ميزانية السعودية.

وقد رأينا كيف أدى انهيار أسعار النفط الخام عام ١٩٦٨ م وعام ١٩٩٨ م إلى اقتراب الاقتصاد السعودي من الانهيار، حيث اضطرت إلى الاستدانة حينها.

وهنا يلزم أن نوضح أن من يحدد سعر النفط بشكل حقيقي هو «أميركا» وليس «الأوبك» وقد بقيت أمريكا حتى اليوم تحافظ على بقاء سعر النفط ضمن مستوى مناسب لها.. إذ أن انخفاض الأسعار بشكل كبير، يؤثر على إنتاجها المحلي مرتفع التكلفة في تكساس، خصوصاً، ويمكن أن يؤدي إلى توقفه بالكامل. كما سيؤثر على أرباح شركاتها النفطية الكبرى، وعلى حجم الأموال الهائلة التي تضخها دول الخليج العربي في بنوكها.. في المقابل فإن زيادة الأسعار، ستؤثر سلباً على قطاعي الصناعة والطاقة، وسيؤدي إلى ارتفاع أسعار السلع بشكل كبير.. وبالتالي فهي دأبت على المحافظة على سعر «معتدل» مناسب لها. أمّا وقد اتخذت قراراً استراتيجياً بتغيير أصول اللعبة، ومن الواضح أن هذا القرار قد جاء بعد أن تمكنت من تطوير تقنياتها في مجال الاستكشاف والإنتاج. فهذا يعني أن سياستها القديمة قد تغيرت بشكل كامل.

«وكان الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، قد قدّم عام ٢٠٠١ م خطة توصي ببدء الاستكشاف والتنقيب عن النفط والغاز في أراضي تملكها الحكومة، وكذلك في مناطق كانت قد أغلقت حفاظاً على البيئة، ومنها جزء من الشواطئ وجبال الروكي وبعض المناطق الواقعة تحت الحماية مثل المحمية البيئية في الاسكا»<sup>(١)</sup> وإذا

(١) معارك الطاقة، ص ٦٩.

أضفنا إلى ذلك الاحتياطي النفطي الهائل الذي تمتلكه كندا والممثل «برمال ألبرتا الزفتية» والتي تقدر بثلاثي الاحتياطي القابل للاستخراج في السعودية، فإننا سنشهد في المستقبل القريب فائض إنتاج كبير من النفط من شأنه أن يؤدي إلى إنهاء اقتصاد الدول التي يعتمد اقتصادها بشكل أساسي على النفط.

«إن بلدان المنطقة كلها هشة، وقد جعلها اعتمادها على النفط سجيناً دخول مالية خارجية، لم تعد كافية للحفاظ على سلام سياسي واجتماعي ولو مؤقتاً.. وحتى دبي التي تعتبر ميناءً محمياً يتمتع بالراحة والحدائث والغنى يمكن أن يختل توازنه بين ليلة وضحاها بسبب الإرهاب»<sup>(١)</sup>.

٣- الطاقة الذرية: اكتشف اليورانيوم في نهاية القرن الثامن عشر، ولم يعره أحد حينها أهمية تذكر، لأن الطاقة الهائلة الكامنة فيه لم تكن قد اكتشفت بعد.. وحين اكتشفت عام ١٩٣٩م وحدث لأول مرة عملية الانشطار الذري.. كشف للبشرية مصدر طاقة جديدة، هو «الطاقة الذرية» وحتى نوضح حجم الطاقة الموجودة في اليورانيوم نقول إنه في كغم واحد من اليورانيوم يمكن استخراج طاقة توازي الطاقة المستخرجة من ٣ مليون كغم من الفحم.

وبخلاف الطاقة المستخرجة من الفحم والنفط فإن الطاقة الناتجة عن اليورانيوم هي تقريباً غير مقيدة، مع العلم أن استخراجها مكلف وباهظ، وذلك يعود للحاجة إلى إنشاء محطات قوة نووية.

وإضافة لاستخداماته في إنتاج الطاقة السلمية، فإن لليورانيوم أيضاً استخدامات عسكرية، حيث يدخل - كما هو معلوم - في إنتاج قنابل ذرية.

ويشكل الحصول على السلاح النووي مصدر قوة ومنعة للدولة، ويعطيها

(١) معارك الطاقة، ص ٣١٨.

قدرة كبيرة على الردع، من هنا نجد أن الدول الكبرى تبذل ما وسعها من جهد حتى لا يصل هذا السلاح الاستراتيجي لغيرها.. خاصة الدول العربية والإسلامية.. وأزمة البرنامج النووي الإيراني خير شاهد على ذلك.

ويلزم أن نشير هنا إلى أن للطاقة الذرية مخاطر جملة لا ينبغي تجاهلها، والغفلة عنها، مثل التسرب النووي الذي يمكن أن يتسبب بكارث هائلة، كما حدث في مفاعل تشيرنوبل في اوكرانيا سنة ١٩٨٦م، ومفاعل فوكوشيما في اليابان سنة ٢٠١٠م.

٤- الغاز: يعتبر الغاز مصدراً استراتيجياً إضافياً من مصادر الطاقة، وهو يستخدم كوقود في الصناعات.. ويعتبر ضرورياً للاستخدامات البيئية، وهو أقل المصادر الحفرية الثلاثة تلويثاً للبيئة. ومن أهم الدول التي يتركز وجود للغاز فيها روسيا، اذ تسيطر على ثلث الاحتياطي العالمي، وهي المصدر العالمي الأول للغاز بنسبة ٢٢٪، تليها كندا بنسبة ١٩٪ ثم النرويج بنسبة ١١٪ فالجزائر ١٠٪، وهولندا وكوبا، وإيران، والولايات المتحدة، وأستراليا، وقطر، بنسب متفاوتة.

ويشكل نقل الغاز مشكلة أمام تسويقه، اذ أن النفط يمتاز بسهولة نقله مقارنة بالغاز، الذي يتطلب نقله بحراً تبريده إلى درجة (- ١٦٠) مئوية حتى يصبح سائلاً.

ويدخل الغاز في الاستخدام العسكري، من خلال كونه عنصراً أساسياً في تركيبة «السلاح الكيماوي» الذي تتسلح به كثير من دول العالم، ويعتبر من أسلحة الدمار الشامل، ويحظر القانون الدولي استخدامه.. وقد استخدم هذا السلاح في الحرب العالمية الأولى.. واستخدمته العراق في حربها مع إيران، حيث استخدمت غاز الأعصاب، وغاز الخردل ضد الأكراد، وضد القوات الإيرانية التي اجتازت الحدود العراقية. كما أكدت مؤسسات دولية استخدام النظام السوري - مؤخراً - للسلاح الكيماوي في مناطق مختلفة من سوريا.. وتسبب ذلك بأزمة دولية، انتهت بتسليم

النظام السوري لترسانته من السلاح الكيماوي، مقابل عدم ضرب طائرات حلف «الناتو» لأهداف تابعة للنظام.

٥- المياه: المياه، مادة الحياة، وتستخدم للشرب، والري، والتنقل، والإنتاج الصناعي.

ومع أن ٧٧٪ من سطح الأرض مسطحات مائية، إلا أن جزءاً صغيراً منها فقط هي مياه عذبة، تصلح للاستخدام، وتشكل المياه العذبة نسبة ٣٪ فقط، وأيضاً هذه الكميات الصغيرة لا تصل جميعها أنابيب المياه. واليك المعطيات التالية:

• ٧٩٪ من مجموع المياه العذبة هي مياه مجمدة.

• ٢٠٪ مياه جوفية موجودة في باطن الأرض.

• ١٪ فقط متوفرة على سطح الأرض.

من ال ١٪ المتبقي:

• ٥٢٪ موجودة في البحيرات.

• ٣٨٪ موجودة في رطوبة الأرض.

• ٨٪ موجودة في الجو.

• ١٪ في أجسام الكائنات الحية،

• ١٪ في الأنهار والشلالات.

من هنا وبصورة فعلية فإن مياه الأنهار والشلالات تشكل نحو ٨٠٪ من المياه العذبة التي يستخدمها الإنسان بما يشكل ٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من المياه التي على سطح الأرض!

ومع ضحالة المياه العذبة المتوفرة على سطح الأرض، إلا أنها تكفي سكان الأرض، إذا ما تم توزيعها بشكل يتلاءم مع الحاجة والكثافة السكانية. لكن وبسبب النقص المستمر في كمية المياه العذبة، والزيادة المستمرة والسريعة في عدد السكان، فإن الصراع على الاستحواذ على المياه العذبة سيصبح أمراً لا مفر منه.. وسيزيد من حدة هذا الصراع كون مصدر المياه العذبة الرئيسي هو الأنهار. وكون هذه الأنهار تمر عبر عدة دول، فإن ذلك يعقد المسألة ويزيد من حدة الصراع. فالدول التي تصب فيها الأنهار ستكون متعلقة «وتحت رحمة» الدول التي ينبع ويمر عبرها النهر.. والتي يمكن أن تحول أو تحد من وصول المياه إلى تلك الدول، عبر إقامتها للسدود، والأفرع الاصطناعية.

ومثال حي معاصر على هذه الحالة: الصراع على مياه نهر النيل بين مصر وأثيوبيا والسودان. فقد كان الصراع على مياه نهر النيل بفرعيه الأزرق والأبيض، قديماً بين دول عدة في إفريقيا بينها: أوغندا، تنزانيا، بوروندي، روندا، زئير، كينيا، أثيوبيا، السودان ومصر. لكن الصراع تمحور - في هذه الأيام - بين مصر وأثيوبيا والسودان، وفي أعقاب قيام أثيوبيا بإنشاء سد النهضة الأمر الذي أثار مخاوف مصر - التي تعتبر نهر النيل تاريخياً شريان حياتها - من انخفاض منسوب مياه النهر التي تصلها بشكل كبير.. مما سيخلف أزمة مائية حادة، سيتعذر عليها تجاوزها.

ومن أشكال الصراع على المياه أيضاً:

- الصراع بين تركيا وسوريا والعراق على مياه نهر الفرات.
- الصراع بين الأردن وسوريا و«إسرائيل» على مياه نهر الأردن وقد شمل اتفاق السلام بين الأردن وإسرائيل سنة ١٩٩٤ م على بنود خاصة بتوزيع حصص المياه بين الدولتين، وإقامة سدود على نهري الأردن واليرموك بتمويل دولي.

• الصراع على المياه بين الهند وباكستان وقد تدخلت الولايات المتحدة وعدد من الدول الغربية لحل هذه الأزمة.

وتشكل مواسم الجفاف تهديداً خطيراً للدول الفقيرة التي لا تملك إمكانيات مادية تساعدها في اتخاذ إجراءات احترازية لتجاوز هذه الأزمات.. مما يجعلها تعاني مجاعات صعبة وقاسية بين فترة وأخرى.

٦- الغذاء: يرتبط إنتاج الغذاء في دولة ما، بدرجة أساسية بكمية المياه المتوفرة لديها، ومناخها وطبيعة تضاريسها.

«والبلاذ ذات الاكتفاء الذاتي، أو ما يشبه الاكتفاء الذاتي تكون متفوقه تفوقاً عظيماً على الدولة التي لا تملك هذا الاكتفاء، والتي يجب أن تكون قادرة على استيراد المواد الغذائية التي لا تنتجها وإلا تعرضت للمجاعة»<sup>(١)</sup>.

وبناءً على الأزداد المضطرد في عدد سكان العالم، فإن الأمن الغذائي، أصبح يشكل هاجساً يطارد معظم دول العالم، ويهدد السلم العالمي.. وقد أدى الاتساع المستمر لنطاق المدنية إلى نقص حاد في مساحات الأرض غير المستغلة من أجل الزراعة.. ولم يعد من سبيل أمام الدول غير تحسين وتطوير الإنتاج الغذائي.. وما من شك أن التقدم العلمي والتكنولوجي يساعد كثيراً في زيادة كمية الغذاء.. وذلك من خلال زيادة خصوبة الأرض، وإمكانية حفظ وتخزين الغذاء لفترات أطول من الماضي.. ولكن من أجل تحسين إنتاج الغذاء نحتاج إلى مصادر طاقة متعددة: مثل النفط والفحم والغاز، وغيرها، وذلك لتفعيل وسائل الإنتاج.. مما يكبل أيدي الدول الفقيرة، ويحد من قدرتها على تأمين غذاء مواطنيها.. ومعلوم أن نقص الغذاء في الدولة يعد مؤشراً على ضعفها، فهي تكون مرتبطة ومتعلقة بتوفير حاجتها اليومية

(١) السياسة بين الأمم، ص ١٦٤.

من الغذاء، بالخارج، مما سيؤثر بشكل كبير على قراراتها ومواقفها السياسية، وعلى قرارات الحرب والسلم، فهي لن تستطيع الدخول في حرب طويلة الأمد يمكن أن تسبب لها انقطاع إمداداتها من الغذاء.. ويجب الإشارة هنا إلى أن الغذاء يعد مصدراً غير مستقر، خاصة عندما يدور الحديث عن مدى زمني بعيد، ونضرب مثلاً على ذلك مصر التي كانت تعد قديماً «خزائن الأرض» - كما وصفها القرآن الكريم - من كثرة الخيرات التي تنتجها، وقص علينا القرآن الكريم في سورة يوسف. كيف لجأ أبناء يعقوب إلى مصر، بعد أن أصاب جنوب فلسطين الجذب والقحط. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. ثم جاء يعقوب عليه السلام مع أهله جميعاً وسكنوا مصر. وفي عام «الرمادة» الذي تعرضت فيه الجزيرة العربية لمجاعة شديدة، وجدب وقحط، استغاث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بمصر، مرسلًا إلى واليها عمرو بن العاص: «من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص، سلام عليك، أما بعد: أفتراني هالكاً ومن قبلي، وتعيش أنت منعماً ومن قبلك؟ فواغوثاه واغوثاه» فكتب إليه عمرو بن العاص: إلى أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد أتاك الغوث، فالريث الريث، لأبعثن إليك بعير (قافلة) أولها عندك وآخرها عندي، مع أنني أرجو أن أجد سبيلاً أن أحمل في البحر.

فبعث في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والدهن، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء»<sup>(١)</sup>.

أما مصر اليوم فلم تعد توفر لمواطنيها قوت يومهم، وأصبحت تتسول الطاقة

(١) انظر: الصلابي، علي محمد، عمر بن الخطاب، ص ٢٨٥، ط ١، ٢٠٠٤م، دار الفجر للنشر.

والغذاء ممن كانت بالأمس تمدهم بهم! وأصبحت مصر اليوم أحد أبرز مستوردي القمح على مستوى العالم!

٧- المعادن الأساسية والنادرة: اعتبرت المعادن الأساسية خاصة: الذهب، الفضة، الحديد، النحاس والرصاص.. في الماضي معيار قوة الدولة، ولكن بعد اكتشاف مصادر الطاقة الحديثة خبا نجم هذه المعادن، مع أنها لم تفقد شيئاً من أهميتها، وما زالت عناصر أساسية واستراتيجية لا يستغنى عنها.. وإضافة إلى هذه المعادن التي ذكرناها، يوجد هنالك معادن نادرة، غير مشهورة! رغم أهميتها البالغة، مثل: الكولومبيوم، التيتانيوم، المنغنيز، الكوبلت، الكروم، البلاتين، القصدير، النيكل والزنك.

وتبرز أهمية هذه المعادن بشكل كبير لدخولها في إنتاج الكثير من المنتجات التكنولوجية الدقيقة، وبخاصة المنتجات العسكرية. «يستعمل الكولومبيوم في إنتاج سبائك تقاوم الإنهاك، تستعمل في المحركات النفاثة، ومعدات المصافي والمفاعلات النووية، ويستعمل التيتانيوم في إنتاج سبائك خفيفة الوزن للطائرات الثقيلة والصواريخ، والمنغنيز يعد عنصراً أساسياً في صناعة الصلب، ويستعمل الكوبلت في إنتاج سبائك عالية القوة تقاوم الحرارة، وهي تستخدم في المحركات النفاثة، والبوكسيت هو الخام الرئيسي المستعمل في خام الألمنيوم. والكروم والنيكل يستعملان في صناعة صلب لا يصدأ، وسبائك أخرى متخصصة.. ويستعمل البلاتين في صناعة محولات حفّازة في السيارات وكعنصر حفّاز في تصفية النفط، ويستعمل الزنك في مجموعة واسعة من التطبيقات الصناعية»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الدول الصناعية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة، معنية بعدم إثارة وإبراز أهمية هذه العناصر، وحاجتها الملحة لها، حتى تبقى مستحوذة عليها من

(١) حروب الطاقة في الشرق الاوسط، مايكل كليبر، ص ٧١.



الدول المنتجة لها بأسعار زهيدة.. فالولايات المتحدة على سبيل المثال تتوفر لديها العناصر الأساسية المشهورة مثل، الحديد، النحاس، الرصاص.. لكنها تعتمد اعتماداً شبة كامل على استيراد العناصر النادرة مثل: الكولومبيوم، والتيتانيوم، والمنغنيز، والكوبالت، والبوكسيت، والكروم.. ولطالما دار جدل داخل أروقة صانعي السياسة الأمريكية الخارجية، حول أهمية هذه العناصر، حيث دعا كثير من الاستراتيجيين إلى ضرورة استعمال القوة عند الضرورة لحماية المصادر الرئيسية من المعادن النادرة.. من هذه التحذيرات ما ذكره المعهد الجيولوجي الأمريكي في تقرير له: «كل النفط الموجود في العالم ليس له قيمة إن لم يكن من الممكن بناء الآلات والمحركات التي تستعمله أو صيانتها، فبدون المنغنيز والكروم والبلاطين والكوبلت لن تكون هناك سيارات ولا طائرات ولا مولدات نفاثة ولا أقمار صناعية ولا أسلحة معقدة»<sup>(١)</sup>.

إن حصول الولايات المتحدة، والدول الصناعية الكبرى على احتياجاتها من هذه العناصر النادرة، بأسعار زهيدة جداً، وبسهولة ويسر من دول العالم الثالث، هو ما يجعلها تحيط بعملية استخراج ونقل هذه العناصر بالهدوء والكتمان.

### القوة البشرية كمصدر للقوة الاقتصادية

حتى تستطيع الدولة استخراج خيراتها أرضها، وحتى يدار اقتصادها بشكل مفيد، عليها الوصول إلى حالة توازن بين كمية المصادر الطبيعية التي بيدها وكمية القوى البشرية النوعية العاملة فيها.

والوضع المثالي للدولة هو: أن يكون لديها مصادر طبيعية متعددة، وقوى بشرية مدربة بالأعداد المطلوبة، لكن تحقيق ذلك يصطدم بعقبات جمة، عادة ما يصعب تجاوزها.

(١) كليز، مايكل، حروب الطاقة في الشرق الاوسط، ص ٦٨.

في مرحلة ما قبل الحداثة - قبل الثورة الصناعية - كان هذا التوازن أقل أهمية، من زماننا هذا.. فقد اعتمدت الأعمال الصناعية قديماً على أيدي عاملة كثيرة قليلة التدريب.. أما اليوم، في عصر التقدم التكنولوجي، فقد ازدادت الحاجة للعمال المدربة ذات القدرات العالية، وقلت الحاجة للكثرة العددية.

يوجد دول تمتاز بتنوع وتعدد مصادرها الطبيعية لكن القوى البشرية عندها، قليلة.. ويوجد دول القوى البشرية فيها كبيرة ومدربة، لكن المصادر الطبيعية التي بحوزتها قليلة.. ومن أجل تضيق الفجوة فإن الدول تعتمد إلى تبادل المصادر الطبيعية والقوى البشرية بينها، حتى تتمكن من تفعيل اقتصادها.

اليابان هي مثال للدولة التي يوجد لديها قوى بشرية مدربه، لكنها تفتقر للمصادر الطبيعية، وتعتمد بشكل كبير على استيراد المواد الخام من الخارج.. أما دول النفط العربي فهي مثال جيد للدول التي تمتلك مصادر طاقة طبيعية هائلة، لكنها تفتقد للقوى العاملة المدربة.

بعد أن حصلت معظم دول العالم الثالث على استقلالها، رأت الدول المتقدمة تقنياً فيها، هدفاً مغرياً، بسبب وفرة المصادر الطبيعية، وكثرة الأيدي العاملة غير المدربة، فنشأت علاقة بين دول العالم الثالث والدول المتقدمة تقوم على أساس «التبعية» غير المتكافئة.. ولم يكن من مصلحة الدول المتقدمة تطوير الدول المتخلفة، حرصاً منها على استمرار تبعيتها لها، وبالتالي استغلال مصادرها الطبيعية، والأيدي العاملة الرخيصة المتوفرة عندها، كما وتستغل الشركات متعددة الجنسيات مثل (IBM، جنرال موتورز، كوكا كولا، فلبس..) الأيدي العاملة الرخيصة، والسوق الاستهلاكي الكبير في دول العالم الثالث. فتقيم على أراضي تلك الدول مصانع واستثمارات خاصة، في المجالات التي تحددها هي، غير مكترثة بما يفيد أو يضر اقتصاد الدولة التي تعمل على أرضها، ومصالحها القومية، فهي تعمل بناءً على حساباتها الاقتصادية ومصالحها الشخصية فقط.

ختاماً نقول أن الدولة التي بيدها عنصر استراتيجي واحد تستند إلى قاعدة قوة ضيقة، وستكون قوتها بشكل عام محدودة، وغالباً ما يكون اقتصادها مرتبطاً وتابعاً للاقتصادات الكبرى، لكن إن كان للدولة عناصر قوة استراتيجية متعددة، فإن قاعدة قوتها ستكون - بلا شك - أوسع، وقدرتها على الصمود ومواجهة الأزمات الصعبة أكبر. «إن التيارات الانتعاشية والتيارات الانكماشية المرتبطة بالاقتصادات المسيطرة تنتقل تلقائياً إلى الاقتصادات التابعة وهذا في حد ذاته من أخطر القيود على مفهوم السيادة الوطنية. ومن أمثلة ذلك الدول ذات المحصول الواحد، أو الدول التي تتميز بسيطرة مادة استراتيجية كالبتروول مثلاً على اقتصادها، وهي من أبرز الأمثلة على القوى التابعة في عالم اليوم للقوى الخارجية، رغم ما تشدق به هذه الدول من عبارات كالاستقلال والسيادة ومحاربة الاستعمار وخلافه. فالواقع أن هذه الدول تعاني شكلاً قوياً من أشكال السيطرة الخارجية، وهو التحكم في اقتصادها وخضوعه لما يسري على اقتصادات الدول الخارجية، ولا سيما ما يتعلق بالتيارات الانكماشية وتدهور قيمة العملة والتقلب في قيمتها الدولية»<sup>(١)</sup>.

وعند حديثنا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة، لا بد أن نتعرف ولو بشكل عابر على النظامين: الرأسمالي والاشتراكي، اللذين مثلاً قمة العلاقة بين السياسة والاقتصاد في العصر الحديث.

## النظام الرأسمالي

يطلق الاقتصاديون تعبير «النظام الرأسمالي» على كل نظام يتصف بالخصائص التالية:

١- حرية العمل والإنتاج: حرية العمل تعني أنه يمكن للعامل أن يحدد بحرية نوع النشاط الذي يود القيام به. أما حرية الإنتاج: فيقصد بها حرية مالكي وسائل الإنتاج،

(١) العلاقات الدولية المعاصرة، ص ٤٩.

مهما كان نوعها في تحديد نوع المنتجات، ومواصفاتها وكمياتها.. وهذا طبعاً يتحدد تبعاً للهدف الذي يسعون إلى تحقيقه. وهو دائماً السعي لتحقيق أعلى درجة ممكنة من الأرباح.

٢- حرية المستهلك وسيادة المستهلك: ويقصد بحرية المستهلك هنا: حرية التصرف بالدخل الذي يحصل عليه الفرد، بشراء ما يرغب من السلع والخدمات المعروضة.

٣- حرية التملك والتصرف بالملكية: تعتبر الملكية الخاصة من أهم مظاهر النظام الرأسمالي، حيث في ظل هذا النظام تكون النسبة الأكبر من وسائل الإنتاج مملوكة من قبل الأفراد والشركات الخاصة.

٤- عدم تدخل الدول في النشاط الاقتصادي: أي لا تقوم الحكومة بامتلاك المصانع والشركات ذات الطابع الإنتاجي، كما أن الحكومة لا تتدخل في توجيه الشركات والمشروعات الإنتاجية، لأن كل فرد أو شركة يتصرف وفقاً لما تمليه عليه مصلحته الشخصية<sup>(١)</sup>.

## النظام الاشتراكي

أخذ الفكر الاشتراكي بالنشوء والتبلور في أعقاب الثورة الصناعية وما خلفته من آثار اقتصادية واجتماعية، حيث أوجدت تفاوتاً كبيراً في مستويات دخل الأفراد، فقلة زادت ثروتها وزيادة ضخمة، وأثرت ثراءً فاحشاً، فيما نقصت أجور العمال نقصاً كبيراً.. ناهيك عن استغلال الطبقات البرجوازية للعمال أكبر استغلال، وارتفاع معدلات الهجرة من الريف إلى المدينة بحثاً عن العمل، والتوسع في استخدام

(١) انظر: شامية، د. احمد، كتاب مبادئ التحليل الاقتصادي، ص ٣٩ - ٤١، ط ٢، ١٩٩٨ م.

الآلات والذي أدى إلى الاستغناء عن عدد كبير من الحرفيين اليدويين.

كل ذلك دفع عدداً من المفكرين إلى البحث عن قواعد تحقق العدالة في توزيع الثروة، بحيث يكون لكل فئة نصيب عادل منها.. وبرز من هؤلاء الكتاب والمفكرين «كارل ماركس» وهو فيلسوف ألماني عاش ما بين عامي (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) ويرى ماركس أن الترابط بين العمال سيؤدي بهم في النهاية إلى تحقيق الإشراف الاجتماعي على العملية الإنتاجية. من هنا أطلق نداءه الشهير: «يا عمال العالم اتحدوا فليس للعامل وطن». وكان ماركس يتصور أنه سوف يأتي اليوم الذي يصبح فيه الإشراف التام على وسائل الإنتاج للشعب، وعند ذلك سيقضي على «المنافسة» التي تمكن رأس المال في ظلها من استغلال العمال، وسيحل محلها بالتالي نظام إنتاج جماعي تحت رقابة الدولة.

ويعتقد ماركس أن تحقيق الاشتراكية لن يتم إلا بوسائل ثورية عنيفة.. ومن هنا أصبح يطلق على ماركس وأتباعه اسم «الشيوعيين» لأنهم يؤمنون بالفكر الثوري، أما الذين يؤمنون بفكرة التطور التدريجي، ولا يؤمنون بمبدأ كفاح الطبقات يطلق عليهم اسم «الاشتراكيين».

## خصائص النظام الاشتراكي:

أهم خصائص الاشتراكية:

١- الملكية العامة لوسائل الإنتاج.

٢- الإدارة الجماعية لوسائل الإنتاج: الحكومة في النظام الاشتراكي هي الممثلة

للمجتمع، تندب لإدارة الوحدات الإنتاجية موظفين حكوميين يعملون بالنيابة عن المجتمع في تحقيق الأهداف التي قامت المشروعات من أجل تحقيقها.

٣- أهداف النشاط الاقتصادي: المشروعات في النظام الاشتراكي لا تتخذ من الربح مقياساً وموجهاً لقراراتها الإنتاجية بل تعتمد معياراً آخر أكثر أهمية وهو مدى نجاحها في إنتاج السلع والخدمات الاقتصادية اللازمة لإشباع الحاجات الضرورية لأبناء المجتمع ككل. ويتم تحديد السلع والخدمات هذه بموجب خطة اقتصادية محددة سبقاً من قبل الجهة العامة المسؤولة عن مراقبة وتوجيه هذه المشروعات، حيث تخول الحكومة هذه الجهة حق تحديد الحاجات الأكثر أهمية للمجتمع طبقاً لمعايير دقيقة. وكذلك الكميات الواجب إنتاجها من كل سلعة أو خدمة<sup>(١)</sup>.

وقبل أن أختتم الحديث حول علاقة السياسة بالاقتصاد، أقدم هذا المثال من داخل الأسواق الأوروبية المشتركة الذي يبين كيف أن السياسة والتجارة تسيران جنباً إلى جنب « فالخطوة الأولى نحو تكامل اقتصادي كانت الأسواق الأوروبية المشتركة للفحم والفولاذ التي تأسست في العام (١٩٥١ م) من قبل فرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج. وكان الهدف السياسي هو ضم قدرات ألمانيا في الإنتاج العسكري إلى إطار عمل أوروبي فوق قومي. وفي العام ١٩٥٧ شكلت الدول الست مجموعة اقتصادية أوروبية عرفت باسم الأسواق المشتركة وانضمت بريطانيا وإيرلندا والدانمارك إلى المجموعة في العام ١٩٧٣ وانضمت إسبانيا والبرتغال واليونان في الثمانينات، بعد استبدال أنظمة الحكم الديكتاتورية فيها بحكومات ديمقراطية، ولم يكن دافع دول أوروبا الجنوبية في المشاركة الحصول على مزايا اقتصادية فحسب بل الأمل في أن تحسن المجموعة استقرارها السياسي حيث أن مؤسساتها الديمقراطية ما زالت حديثة العهد نسبياً.

وفي العام ١٩٩٢ أكملت المجموعة الأوروبية إيجاد سوق أوروبي موحد

(١) انظر: مبادئ التحليل الاقتصادي، ص ٥٣ - ٥٥.

تتمتع فيه السلع والخدمات والناس بحرية التنقل بين دول الأعضاء، وعددها اثنا عشر، ولتحقيق سوق موحد كان على المجموعة أن تطور سلطة سياسية فوق قومية. وعلاوة على إلغاء الرسوم الجمركية كان على الدول الأعضاء أن توافق على عدم اتباع سياسات صناعية تعطي الصناعات فيها مزايا تنافسية. وفي الزراعة حيث القاعدة السائدة في تقديم الإعانات، كان على الدول الأعضاء قبول أنظمة المجموعة التي تبقي أسعار الغذاء أعلى من مستويات السوق العالمي، وتعمل الدول الأوروبية أيضاً على تنسيق سياستها النقدية بالتدريج، بهدف خفض التضخم والسيطرة على التقلبات الكبيرة في أسعار تبادل العملات.

وتشكل الدول الأعضاء في المجموعة الأوروبية مجتمعة قوة اقتصادية وسياسية ضخمة مقارنة بالولايات المتحدة وكندا التي انضمت إلى اتفاق التجارة الحرة، واليابان<sup>(١)</sup>.




---

(١) انظر: آلموند، جابريل ايه، و جي بنغهام باويل الابن، السياسات المقارنة في وقتنا الحاضر، ص ٤٨، ترجمة وتحقيق هشام عبدالله وسمير نصار، ط ٥، ١٩٩٨ م، الأهلية للنشر - الأردن.







الفصل الثاني  
السياسة الواقعية



## مفهوم السياسة الواقعية

يمكن تعريف السياسة الواقعية على أنها: نظرية تقوم على اعتبار أن العلاقة بين الدول تقوم وتدار من خلال صراع القوى، ومن خلال بحث كل دولة عن مصالحها الشخصية الخاصة. يقول هانز مورجتاو- الذي يعتبر أب ومنظر المدرسة الواقعية:- «وما قصة الفكر السياسي الحديث إلا قصة الصراع بين مدرستين تختلفان اختلافاً جوهرياً في مفاهيمهما عن طبيعة الإنسان والمجتمع والسياسة، ويعتقد المرء من أبناء المدرسة الأولى أن النظام السياسي الأخلاقي والعقلاني النابع من المبادئ المطلقة التي ثبتت صحتها، قادر على الوجود الآن وفي كل مكان، فهذا الإنسان يفترض وجود طبيعة فطرية ومرونة لا حدود لها في الطبيعة الإنسانية.. وتؤمن المدرسة الثانية بأن العالم وهو يفتقر إلى الكمال من وجهة النظر العقلانية وهو الثمرة الطبيعية للقوى الكامنة في الطبيعة الإنسانية وعلى الإنسان إذا أراد إصلاح العالم، أن يتعاون مع هذه القوى لا أن يحاربها.. ولما كان هذا العالم تجسداً لمصالح فطرية متعارضة وتناقضات بين هذه المصالح، فإن من العسير إدراك المبادئ الأخلاقية إدراكاً كاملاً، وإن كان في الإمكان تفههما بصورة تقريبية عن طريق التوازن المؤقت في المصالح والتسوية المؤدية لعناصر المنازعات، وهكذا ترى هذه المدرسة في نظام الكوابح والموازنات مبدأ عالي الشمول يجوز تطبيقه على كافة المجتمعات، وهي ترجع إلى السوابق التاريخية لا إلى المبادئ الأخلاقية في سعيها لتحقيق الحد الأدنى من الشر إذا عجزت عن تحقيق الخير المطلق، وقد جاز بالنسبة إلى هذه العناية النظرية بالطبيعة الإنسانية، كما هي، وبالعمليات التاريخية كما تتحقق فعلاً، إطلاق صفة

الواقعية علي هذه النظرية»<sup>(١)</sup> ويرجع البعض فكر المدرسة الواقعية قديماً إلى عهد المؤرخ اليوناني «ثوسيد يدس» وكتاباته التاريخية حول حروب «بيلوبونس» حيث ركز في هذه الكتابات على الأهمية المركزية «للقوة» في العلاقة بين الأمم.. فيما يعتبر نيكولا مكيا فيللي رائد هذا الفكر في العصر الحديث، وسيتضح لنا عمق التشابه والتقارب بين الفكر المكيا فيللي، وفكر المدرسة الواقعية، عند دراستنا النقدية لكتاب «الأمير» في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

ومن أشهر أصحاب هذا الفكر من المعاصرين: (أ. هـ. كار Carr ١٩٣٩) و(هانز مورجنتاو Morgenthau ١٩٩٨) و(رينهولد نيبور Niebahr ١٩٩٧) و(كنت تومبسون Thompson ١٩٦٠).

وبرزت أهمية خاصة لكتاب «السياسة بين الأمم» لمورجنتاو، الذي وضع فيه ستة مبادئ للواقعية السياسية، نذكرها هنا، بشكل مختصر:

١- تعتقد الواقعية السياسية، أن السياسة خاضعة لتحكم عدد من القوانين الموضوعية التي تمتد جذورها في الطبيعة الإنسانية، ومن الضروري لتحسين المجتمع أن نفهم القوانين التي يعيش المجتمع في ظلها أولاً.. ولما كانت الواقعية تؤمن بموضوعية قوانين السياسة، فإنها ترى من الضروري أن نؤمن باحتمال تطوير نظرية عقلانية تعكس هذه القوانين الموضوعية مهما كان عكسها من جانب واحد مفتقراً إلى الكمال.. ومن الواجب إخضاع أية نظرية سياسية لاختبار مزدوج من العقل والتجربة.

٢- تتمثل اللافتة الرئيسية التي تساعد الواقعية السياسية في العثور على طريقها عبر الصورة الأمامية للسياسات الدولية في مفهوم المصلحة الذي تعرفه تعابير

(١) مورجنتاو، هانز، السياسة بين الأمم، ترجمة: خيرى حمّاد، ص ٢٣- ٢٤.

السلطان، ويؤمن هذا المفهوم بالصلة بين العقل الذي يحاول فهم السياسات الدولية وبين الحقائق التي يجب فهمها..

ونحن نفترض أن الساسة من رجال الدول. يفكرون ويعملون في حدود المصلحة التي تعرف كسلطان، ولا ريب في أن الأدلة التاريخية، تدلك على صحة هذه الفرضية.. وتتجنب النظرية الواقعية في السياسة الدولية أيضاً الخطأ الآخر الشائع في معادلة السياسات الخارجية لأي سياسي بعواطفه الفلسفية والسياسية، ومحاولة استخلاص تلك السياسات واستنتاجها من العواطف.

٣- ولا تضيي الواقعية على مفهومها الأساسي عن المصلحة المسماة بالسلطان، معنى محدداً، في جميع الحالات. ففكرة المصلحة هي في الواقع جوهر السياسة ولبابها، وهي لا تتأثر بظروف الزمان والمكان. فلقد حمل اللورد سالسبوري في القرن التاسع عشر القول الذي أورده ثوسيد يدس<sup>(١)</sup> والذي انبعث من تجاربه في بلاد الأغرريق القديمة بأن «وحدة المصلحة هي أوثق صلة بين الدول والأفراد» وراح يردده في قوله بأن «الوشيجة الوحيدة للوحدة بين الدول والتي يقدر لها البقاء، هي عدم وجود المصالح المتضاربة بينها. ولقد عاد ماكس وبيير<sup>(٢)</sup> في قرنا الحالي فردد هذه الفكرة وتوسع فيها عندما قال: «تسيطر المصالح المادية والمعنوية، لا الأفكار سيطرة مباشرة على أعمال الناس وتتحكم فيها.

٤- وتعي الواقعية السياسية الأهمية المعنوية للعمل السياسي وعياً كاملاً، وهي تعي أيضاً التوتر العنيف الذي لا يقهر بين الفروض الأخلاقية، وبين متطلبات العمل السياسي الناجح.

(١) ثوسيد يدس (٤٦٠ - ٤٠٠ ق.م) من أشهر المؤرخين الاغريق.

(٢) ماكس وبيير (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ابرز علماء الاجتماع الالمان المحدثين.

وهي لا ترغب في التسامح مع ذلك التوتر وتجاهله، مخافة أن تعقد الناحية السياسية والخلقية عن طريق إظهارها وكأن الحقائق الصارخة للسياسة أكثر إرضاء من واقعها، وكأن القانون الاخلاقي أقل التزاماً من حقيقته.

وترى الواقعية أن المبادئ الخلقية العامة والشاملة لا يمكن أن تطبق على أعمال الدول، في أشكالها العامة المطلقة. وأنه لا بد من تنقيتها وترشيحها لتكون صالحة لظروف الزمان والمكان المحددة. وقد يقول الإنسان لنفسه «دع العدالة تأخذ مجراها حتى لو فني العالم». ولكن ليس من حق الدولة أن تقول ذلك نيابة عن مواطنيها الذين ترعاهم.. وعلى هذا فإن الواقعية تعتبر الروية - أي وزن نتائج كل سبيل من سبل العمل السياسي - القضية الكبرى في السياسة... أما الاخلاق السياسية فتحكم على العمل على ضوء نتائجه السياسية. وقد عت الفلسفات الكلاسيكية القديمة، وفلسفات القرون الوسطى هذه الحقيقة كما عاها لينكولن عندما قال...: «أنا أعمل خير ما أعرف عمله، وأقصى ما أستطيع، وأنا عازم على أن أوصل ذلك حتى النهاية. فإذا كانت النتيجة طيبة فإن كل ما يقال عني يغدو أمراً لا قيمة له. أما إذا أثبتت النتيجة خطأي فإنني مهما أقسمت بأنني كنت على حق، لن يجدي ذلك ولن يفيد».

٥- وترفض الواقعية السياسية الربط بين التطلعات الخلقية لأي شعب وبين القوانين الخلقية التي تسود الكون، وهي كما تميز بين الحقيقة والرأي، تميز أيضاً بين الحقيقة والعبادة، وتميل بعض الأمم وهي لا تستطيع مقاومة فعلها هذا طويلاً إلى إلباس تطلعاتها الخاصة، وأعمالها لبوس الأهداف الخلقية للكون. فهناك فرق بين معرفة أن الامم تخضع للقوانين الخلقية، وبين ادعاء القدرة الثابتة على التمييز بين الخير والشر في العلاقات بين الأمم.. ولا ريب في أن مفهوم المصلحة المسماة بالسلطان هو الذي ينقذنا من الناحية الأخرى، من ذلك التطرف الخلقى، والحمق السياسي.

٦- ومن هنا يكون الفرق بين الواقعية السياسية وبين المدارس الفكرية الأخرى، واقعياً وعميقاً.. ويؤكد السياسي الواقعي من الناحية الإدراكية استقلال المجال السياسي، كما يؤكد كل من عالم الاقتصاد، والقانون، وعالم الأخلاق، استقلال مجاله الخاص به فهو يفكر على صعيد المصلحة المسماة بالسلطان كما يفكر الاقتصادي على صعيد المنفعة، والقانوني على صعيد التطابق بين العمل والقانون<sup>(١)</sup>.

وللتعريف أكثر بفكر هذه المدرسة السياسية، نضيف النقاط التالية:

- تعتبر المدرسة الواقعية أن هدف الدولة هو الحفاظ على وجودها، وبالتالي فلا وسيلة ممنوعة أمام حصولها على القوة، ولا قواعد وقيم أخلاقية تحول دون ذلك.

- احترام قواعد الأخلاق. ليس إلتحلاً يفسد السياسة ويشكل خطراً على أمن واستقلال الوطن.. وبالتالي فلا يجوز أن يسمح للقواعد الأخلاقية التضييق والتشويش على السياسة المنتهجة.

- اللعبة السياسية بين الدول تقوم على «القوة»: امتلاكها، تعظيمها، استعراضها، واستخدامها.. من أجل فرض إرادة الدولة على الآخرين.. من هنا فإن السياسة الواقعية تعتبر الحرب حالة طبيعية، وقد لا يكون بداً منها. يقول مورجتاو: «الدولة التي تميل سياستها الخارجية إلى الاحتفاظ بالسلطان دون أي رغبة في إعادة توزيعه لمصلحتها، تسير على سياسة الحفاظ على الوضع الراهن. والدولة التي تهدف سياستها الخارجية إلى اكتساب المزيد من السلطان، عن طريق إحداث تبدل في علاقات السلطان القائمة، أي التي تنشدها الخارجية بدلاً لمصلحتها في أوضاع القوة والسلطان، تسير على سياسة استعمارية. أما الدولة التي تنشدها سياستها

(١) السياسة بين الامم، ص ٢٤-٣٨.

الخارجية عرض ما تملكه من قوة وسلطان، إما بقصد الاحتفاظ به أو زيادته فتسير على سياسة إظهار المهابة»<sup>(١)</sup>.

• يعتبر الفكر «الواقعي» أن البشر بطبيعتهم مهتمون بأنفسهم، ولا يمكنهم التحرر من حقيقة أنهم: «ولدوا للاهتمام بأنفسهم».

• أعظم ما ينسب إلى الإنسان من سوء هو حرصه على امتلاك القوة والرغبة في السيطرة على الآخرين.. واقتلاع رغبة القوة من الإنسان وهم لا يمكن أن يتحقق.

• واجب كل دولة تقديم المصلحة القومية لها، وامتلاك القوة لتحمي نفسها، وتحقق مصالحها، وتخضع الآخرين لسلطانها، وإرادتها.

• أهمية الاقتصاد تنبع من كونه مصدراً لامتلاك القوة والاعتراف الدولي.

• الدول الحليفة يمكن أن تساعد الدولة على تقوية نفسها، وردع أعدائها، لكن لا ينبغي الاعتماد والبناء عليها.

• إذا توجهت كل الدول إلى جمع القوة بأكبر قدر ممكن، يكون الاستقرار من خلال توازن القوى بمساعدة نظام التحالفات الدولية.

• تعمل المدرسة الواقعية على ربط معاني القوة بمفهومى المنفعة والسيادة بشكل متكامل، وترى إمكانية إنشاء النظام العالمي وفق توازنات من القوى التي تربط بين الدول القومية.

• تعتبر النظرية الواقعية بأن الصراع من أجل القوة ظاهره شاملة زماناً ومكاناً، «وأن التجربة أقامت الدليل على صحه وجودها كحقيقة وليس ثمة من ينكر أن جميع

(١) السياسة بين الامم، ص ٦٨.



الدول على اختلاف أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد التقت في جميع الأزمنة والأماكن على الصراع من أجل القوة»<sup>(١)</sup>.

• تعتبر «الواقعية» أن السياسة الداخلية والخارجية ليست إلا مظهرين مختلفين لظاهرة واحدة، وهي: «الصراع من أجل السلطان».

• القوة المسلحة هي العامل المادي الأكثر أهمية في السياسات الدولية. ذلك أنه يصنع هيئة الدولة، من خلال التهديد به، وتظل الدولة ضعيفة من الناحية السياسية إذا لم يكن لديها قوة عسكرية، قادرة على فرض إرادتها السياسية، في كل وقت تحتاج إليها فيه.

ونشير إلى أن معظم دول العالم بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية تتبنى هذا الفكر «الواقعي» وتعمل به، صرحت بذلك أو لم تصرح.

### الواقعية الجديدة:

جاءت الواقعية الجديدة لتركز فكرها ونظرياتها في طبيعة الدولة وليس طبيعة الإنسان.. ومن أبرز منظري «الواقعية الجديدة» (كنت وولتز Waltz ١٩٧٩) وسعى وولتز من خلال كتابه واسع التأثير «نظرية السياسة العالمية» (Theory of International Politics) لتحويل المبنى الهش للسياسة الواقعية إلى نظرية إصلاحية.

وقد بقيت «القوة» هي الفكرة المركزية بالنسبة للواقعية الجديدة. يقول وولتز: إن الدول دائماً تعتقد أن القوة هي عنصر قيامها.

وتقسم الواقعية الجديدة وسائل امتلاك القوة إلى قسمين:

١- وسائل داخلية (خطوات لتقوية القدرات الاقتصادية من أجل تعظيم القوة العسكرية، وابتكار استراتيجية ذكية).

---

(١) السياسة بين الامم، ص ٦٠.

٢- وسائل خارجية: (خطوات لتقوية التحالفات وتوسيعها، أو لإضعاف تحالفات معادية وتقليصها).

## مفهوم القوة

«القوة» موجودة في كل شبكة علاقات: بين الأفراد وبين المجموعات، وبين الدول. وتعرف «القوة» بصورة عامة على أنها: المقدرة على تحقيق الأهداف والغايات من خلال الإمكانيات المتوفرة، بوسائل متعددة.

وتعرف «القوة» في العلاقات الدولية على أنها: قدرة جهة صاحبة إمكانيات على توظيف الإمكانيات الموضوعية تحت تصرفها من أجل تحقيق أهدافها.

ويتم تعريف القوة السياسية بأنها القدرة على جعل الآخرين يفعلون ما تريد من دون أن تأمرهم بذلك<sup>(١)</sup>.

### عناصر القوة:

ينبغي الإشارة أولاً إلى أن «مقاييس قوة الدول لم تعد عناصر مجردة ومستقلة عن بعضها البعض، بل يجب النظر إليها مع وظائفها الجديدة كعناصر ديناميكية يؤثر بعضها في بعض»<sup>(٢)</sup>.

وتقسم عناصر القوة إلى: عناصر ثابتة، وأخرى متغيرة.

(١) في الاجتماع السياسي والتنمية والاقتصاد وفقه الإصلاح، مدخل لتكوين طالب العلم في عصر العولمة، مجموعة من المؤلفين، ص ١٨، تقديم: عبدالعزيز القاسم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر - بيروت.

(٢) أوغلو، أحمد داود، العمق الاستراتيجي، ص ٣٥، ترجمة: محمد جابر تلجي وطارق عبد الجليل، مركز الجزيرة للدراسات.

• العناصر الثابتة: هي التي لا يمكن لإرادة الدولة تغييرها، كالجغرافيا، والتاريخ، وعدد السكان، والثقافة.

• أما العناصر المتغيرة فهي التي يمكن تفعيلها، وتغييرها والتأثير فيها. وهذه العناصر تعد المحك الذي تختبر فيه قدرة الدولة على استغلال وتوظيف القوى الكامنة فيها، لتحقيق مصالحها العليا، وأهم هذه العناصر: الاقتصاد، والقدرة العسكرية، والتكنولوجيا، والمعنوية القومية، ونظام الحكم.

## أشكال القوة

### ١- القوة العسكرية:

ويعبر عنها في مجال العلاقات الدولية «بالقدرة العسكرية» وهي تعني: قدرة جهة معينة على تهديد جهة أخرى، أو استخدام القدرة العسكرية، من أجل فرض إرادتها عليها.

وتقوم القوة العسكرية على أربعة عناصر، وهي:

#### أ- القيادة:

القيادة بمثابة الرأس من الجسد بالنسبة للجيش. وكما أن عمل الرأس معقد ومركب، ودقيق، إذ أنه يدير ويتحكم في جسد كبير، متعدد الأطراف، والأجهزة والأعضاء، فإن عمل القيادة ودورها مشابه مماثل، إذ تلعب القيادة دائماً دوراً حاسماً في القوة العسكرية، فهي إما أن تقود شعبها إلى النصر أو الهزيمة وهي إما أن توقعه في الأزمات، وإما أن تنقذه منها.. «قائد الجيش هو المتحكم في أقدار الشعب فهو الرجل الذي يعتمد عليه إذا ما كانت الأمة ستعيش في سلام أم في خطر»<sup>(١)</sup>. من هنا ينبغي أن تتوفر في القائد

(١) تزو، سون، فن الحرب، ص ١٩، اعداد وترجمة: رؤوف شبايك.

صفات وميزات خاصة: أهمها الحكمة والفطنة والدهاء، والعلم والخبرة والتجربة، والقدرة البدنية والعقلية والنفسية.. قال المدائني: «قال نصر بن سيار: كان عظماء الترك يقولون: القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان؛ شجاعة الديك، وتحزن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب»<sup>(١)</sup>.

ويقول «مونتغمري: إن الميزة الأولى للقائد الذي نشده، هي أن يكون مخلصاً إخلاصاً عميقاً وعظيماً وحقيقياً. والإخلاص الذي أعنيه، هو النوع الذي ينبعث من القائد دون تكلف، فهو فيه بالطبيعة، وهو لا يملك إلا أن يكون مخلصاً»<sup>(٢)</sup>.

ولا بد من توفر أربعة شروط في القائد المتميز المنتصر: «الطبع الموهوب، العلم المكتسب، التجربة العملية، والعقيدة الراسخة»<sup>(٣)</sup>، ولا يصلح للقيادة الجبان، ولا المتهور، ولا المتردد، ولا المرتبك، ولا المندفع، ولا سريع الانفعال والتأثر، والانبهار بالأخبار السار منها وغير السار.. «الشجاعة وحدها لا تكفي لتحقيق النصر إذ يلزمها العقل والتدبر والتروي وحساب العواقب»<sup>(٤)</sup> والقائد العسكري الماهر المتميز يعرف متى يحارب ومتى لا يحارب، وهو الذي يعرف كيف يستغل «القوة» الموجودة بين يديه جيداً كثيرة كانت أم قليلة، ويوظفها بالشكل المناسب.. وهو الذي يحافظ دائماً على روح معنوية عالية، لدى جنوده كافة. والقائد العسكري الماهر هو الشرس في

(١) ابن قتبية، عبد الله بن مسلم، عيون الاخبار ١/ ١٩٥، طبعة ١٤١٨ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) مونتغمري، السبيل إلى القيادة، ترجمة وتحقيق: حسن مصطفى، ص ٢١، ط ٢، ١٩٦٩ م، دار الطليعة للطباعة والنشر.

(٣) خطاب، محمود شيت، بين القيادة والعقيدة، ص ٥١٤.

(٤) فن الحرب، ص ٤٧.

هجومه، المتأني عند اتخاذ قراره «تشبه دقة اتخاذ القرار الصائب من القائد تلك الدقة التي ينتهجها الصقر عندما يهجم كالبرق على فريسته في دقة فائقة تمكنه من الإمساك بها وتدميرها. «هذه الدقة ناتجة عن حسن قياس وتقدير المسافات وخط سير الفريسة وتوقع رد فعلها للهجوم عليها»<sup>(١)</sup>.

كم من قائد عظيم جلب لأمتة نصراً كان يراه الجميع مستحيلًا! وكم من قائد فاشل مستهتر عابث أحال نصراً محققاً لهزيمة نكراء وجلب على أمتة خزيًا وعارًا، وذلاً وصغارًا! والتاريخ حافل بالشواهد والأمثلة:

إن أعظم قائد عرفه التاريخ هو رسولنا محمد ﷺ، فقد كان عظيمًا في حربه، وعظيمًا في سلمه، وعظيمًا في سائر أمره.

قاد المسلمين في أول معركة لهم مع المشركين يوم بدر، فكان عدد الذين شهدوا المعركة من المسلمين بضعة عشر وثلاثمئة رجل، فيما كان عدد المشركين خمسين وتسعمئة رجل.. ومع ذلك انتصر المسلمون نصراً عظيماً، بقيادة الرسول ﷺ «ونزل الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ليباشر القتال بنفسه ضارباً لأصحابه أروع الأمثلة في التضحية والفداء، فقد شوهد في أثر المشركين مصلاً بالسيف يتلو هذه الآية: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لما كان يوم بدر، وحضر البأس، اتقينا برسول الله ﷺ. وكان من أشد الناس باساً يومئذ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه»<sup>(٢)</sup>.

وفي غزوة الخندق، بلغت الشدة والمحنة بالمسلمين ما وصفه الله في كتابه:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الاحزاب: ١٠-١١] في

(١) فن الحرب، ص ٣٠.

(٢) خطاب، محمود شيت، بين العقيدة والقيادة، ص ١٦٤، ط ١، ١٩٩٨ م، دار القلم - دمشق.

هذا الموقف بالغ الشدة والحرص، ظهر ثبات وشجاعة وحكمة رسول الله القائد ﷺ.. عن جابر رضي الله عنه: «إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبنا ثلاثة أيام لا ندوق ذوقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية، فعاد كشيأ أهيل»<sup>(١)</sup>.

ويوم فتح مكة تجلت أخلاق رسول الله ﷺ القائد العظيم بتواضعه وعفوه وصفحه.. فقد دخل مكة منحنى الرأس، حتى كادت لحيته تلامس راحلته، وبدا عليه الخضوع والتواضع.. ووقف على باب الكعبة خطيباً فكان مما قاله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو ما يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سُدانة البيت وسقاية الحاج.. يا معشر قريش! إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم من آدم من تراب: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. «يا معشر قريش! ما تروني أني فاعل بكم؟! قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»<sup>(٢)</sup>.

وفي غزوة «حنين» انهزم المسلمون لا يلوي أحد منهم على أحد، فانهز الرسول ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أين أيها الناس هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله». وقد بقي معه نفر من الأنصار والمهاجرين وأهل بيته، فأمر عمه العباس أن ينادي: «يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة» فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها، يقولون: يا لبيك! يا لبيك!.. وحملوا على المشركين»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري، (٤١٠١).

(٢) السيرة، لابن هشام، ٤١٢/٢.

(٣) بين العقيدة والقيادة، ص ١٦٩.

وعلى هدي رسول الله سار قادة عظام من الصحابة والتابعين. ومن تبعهم ممن اقتبسوا من نوره ﷺ أو تخلقوا بخلقه ومضوا على دربه.. وخالد بن الوليد أحد أعظم هؤلاء القادة العسكريين الذين خلد التاريخ ذكرهم.. فقد استطاع في غزوة مؤتة بحكمته وحنكته ودهائه أن ينقذ جيش المسلمين من هلاك محتم وهزيمة نكراء، وينسحب بالجيش انسحاباً منظماً أذهل جيش الأعداء وأربكهم.. وكان جيش المسلمين في مؤتة ثلاثة آلاف، بينما كان جيش الروم مئة ألف، وانضم إليهم من القبائل العربية المتحالفة مع الروم مئة ألف أخرى.. وبعد أن استشهد قادة المسلمين الثلاثة الذين أمرهم رسول الله ﷺ واحداً تلو الآخر، اصططح الناس على خالد بن الوليد «فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس»<sup>(١)</sup> وقد اثنى رسول الله ﷺ على حنكة وحكمة خالد، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرًا وابن رواحة، وذكر باقي الحديث.. ثم قال: «فأخذها - يعني الراية - سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»<sup>(٢)</sup> وتاريخ خالد العسكري الحافل بالبطولات والانتصارات والفتوحات، يحتاج مجلدات لتدوينه، وحصره.. ومن قادة الإسلام العسكريين العظام: أبو عبيدة الجراح «أمين هذه الأمة»، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، والمثنى بن حارثة الشيباني، وعقبة بن نافع الفهري، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وأسد بن الفرات، وصلاح الدين الأيوبي، وقطر والظاهر بيبرس، والسلطان محمد الفاتح، ومثلهم قادة وأبطال أفذاذ كثيرين خلدتهم التاريخ وخلد بطولتهم وفتوحاتهم بمداد من نور.. وعلى النقيض من هؤلاء حفل تاريخنا الاسلامي، بقيادة فاسدين مفسدين. أضاعوا البلاد، وظلموا العباد، وسعوا في الأرض فأكثروا فيها الفساد.. لهؤلاء: خزري وعار.. ولأولئك: عز وفخار.

(١) السيرة النبوية، ٢ / ٣٨٠.

(٢) رواه البخاري، (٣٧٥٧).

## ب- التقنية:

لا نبالغ إن قلنا أن «القوة» هي التقنية.. فمهما امتلكت من أسباب القوة؛ الرجال والمال، والعزيمة والإرادة، والإدارة السليمة والقيادة الحكيمة.. فإن ذلك كله لن يغنيك شيئاً إن افتقدت التقنية المتقدمة.

نرى اليوم كيف تأتي طائرة دون طيار من أقاصي الأرض فتقصف أبسل الرجال وأشجعهم في عقر دارهم، وتحيلهم أشلاء متناثرة، وتعود إلى قاعدتها بسلام، فلا تغني عنهم بسالتهم وشجاعتهم شيئاً!

إن التوسع الاستعماري الأوروبي الذي بدأ في القرن الخامس عشر واستمر حتى القرن التاسع عشر، وخضعت من خلاله بلاد كثيرة من أفريقيا وآسيا، لنير الاستعمار، إنما كان بسبب تفوق أوروبا التقني، في مقابل تخلف وجهل أهل هذه البلاد.

وحول أهمية التكنولوجيا ودورها الحاسم في حفظ الولايات المتحدة الأمريكية لهيمنتها على العالم، يقول «زبغنيو بريجنسكي»، مستشار الأمن القومي الأمريكي سابقاً: «إن أمريكا حافظت على مكانتها القيادية في توظيف آخر الاكتشافات العلمية للأغراض العسكرية ووسعتها، فأوجدت بذلك مؤسسة عسكرية لا نذ لتفوقها التكنولوجي، وهي المؤسسة الوحيدة القادرة على الوصول بشكل مؤثر إلى أية نقطة في العالم. كما حافظت، طوال الوقت على تميزها التنافسي القوي في تكنولوجيا المعلومات ذات الأثر الحاسم على الاقتصاد.

يشير تفوق أمريكا في القطاعات الحديثة من اقتصاد الغد بأن السيادة التكنولوجية الأمريكية غير مرشحة للزوال القريب<sup>(١)</sup>.

(١) بريجنسكي، زبغنيو، رقعة الشطرنج الكبرى، ص ٣٨، ترجمة أمل الشرقي، ط ١، ٢٠٠٠م، الأهلية للنشر والتوزيع - الأردن.



وفيما نرى - اليوم - دول العالم تسابق بعضها البعض وتسابق الزمن، وتبذل كل جهد ممكن في التقدم والتطور التقني، نجد دولنا العربية تحافظ بشكل غريب عجيب، وباستماتة على لقبها «الفخري» بالدول المتخلفة! وتلزم مكانها المحدد لها، لا تبرحه! رغم أن دول الشرق الأوسط هي أكثر دول العالم عسكره، وتنفق على شراء السلاح وصيانه، وتحديثه، أكثر مما تنفقه معظم دول العالم!

إن الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا، وروسيا والصين تخوض فيما بينها حرباً تنافسية - تكنولوجية، شرسة، لكنها حتى الآن تدار في الخفاء، وغير معلنة» وقد عكست أزمة التجسس التكنولوجي بين الولايات المتحدة وفرنسا، التي تفاقمت في بداية عام ١٩٩٥م ساحة أخرى للصراع في هذا المجال، كما أن التنافس بين شركتي بوينغ وإيرباص، قد تحول إلى تنافس أمريكي - أوروبي في مجال صناعة الطائرات.. وتظهر فضيحة التجسس التكنولوجي التي تورطت فيها أسماء بعض الدبلوماسيين الأمريكيين في فرنسا مدى شدة الصراع بين القوى العظمى في هذا المجال. إن الحرب التكنولوجية التي تزداد حدة يوماً بعد يوم سترسم ملامح الحروب الاقتصادية والسياسية والعسكرية في المستقبل، كما أن هذه الحروب التي تخوضها الولايات المتحدة الأمريكية على جبهات متعددة، ستحدد الشكل الذي ستؤول إليه الهيمنة الأمريكية في المستقبل»<sup>(١)</sup>.

إن حروب اليوم حروب أدمغة وتقنية، بقدر ما تمتلك منها بقدر ما تكون حظوظك من النصر أوفر.

ويعتبر غزو الفضاء إحدى الدلالات على القوة ومقدرة الدولة «التكنولوجية» وتفوقها على غيرها من الدول. وأهم دور تلعبه هذا المقدرة التقنية هو التجسس، والاتصالات

(١) العمق الاستراتيجي، ص ٤٨.

وفي هذا الإطار برز تفوق امريكا في حرب الخليج في مقدراتها على استخدام الأجواء والفضاء لأغراض عسكرية.

ومنذ عام ١٩٩٧ م تم وصل «دولة إسرائيل» بشبكة الأقمار الصناعية الأمريكية للإنذار المبكر، والتي تمكنها من الحصول على معلومات حول إطلاق صواريخ باتجاهها.

والأهمية التي تكمن وراء الانضمام لشبكة الأقمار الصناعية الأمريكية، تتمثل باختصار الزمن المطلوب للحصول على الإنذار.. منذ حرب الخليج تم اختصار وقت الإنذار إلى «دقيقة».

يُشار إلى أنه للحصول على هذه التقنية المتوفرة اليوم، بذلت عشرات السنين من البحث العلمي، ومئات مليارات الدولارات، ومئات الأطنان من التكنولوجيا المتقدمة.. ومع التقدم التكنولوجي، أصبحت هناك إمكانية لتشويش بث هذه الأقمار الصناعية، ووقف عملها، ومقدرة- أيضاً- على اختراق الحواسيب المتعلقة بها، ومعرفة المعلومات التي تحتوي عليها، وتزويدها بمعلومات تضليلية، ضمن ما أصبح يعرف بالحرب الإلكترونية، وقراصنة الحواسيب.

قرأت قبل فترة تقريراً صحفياً نشرته صحيفته «يديعوت احرنوت» العبرية في أحد ملاحظتها، روى صاحب المقال أحداث قصة حقيقية، مفادها: «.. توالى الاتصالات الهاتفية على موظف شركة الكهرباء القطرية في مدينة حيفا المحتلة، في وقت متأخر من الليل كلها تبلغ عن انقطاع التيار الكهربائي في مناطق سكنهم.. الموظف المناوب، القابع في قمرة المتابعة والتحكم الخاصة، وأمامه شاشة عملاقة، متصلة بالحاسوب المركزي، ذهل عندما وجد كل المؤشرات على الشاشة تؤكد أن التيار الكهربائي، يسري بانتظام، وأن لا خلل في أي مكان يذكر! لم يستطع الموظف فهم الذي يجري إلا

بعد أن قطع الهدوء المخيم على المكان صوت انفجار ضخم، ألقى بالموظف من على كرسيه أرضاً، وتناثر الزجاج في كل مكان.. فيما أخذت أصوات سيارات الإسعاف والشرطة تملأ المكان.. كان الانفجار قد أصاب المحول الرئيسي لشركة الكهرباء، ونتج عنه مقتل شخصين، وإصابة عدد آخر بجراح مختلفة.

بعد لحظات اقتحم قمرة التحكم والمتابعة مجموعة من «رجال الأمن» تقدم أحدهم نحو الحاسوب، وقام بتفحصه، ثم هز رأسه، وقال: إنهم قرصنة الحواسيب!». وعلق كاتب التقرير على الحادثة بقوله: لقد أصبح اليوم بإمكان شاب في «غزة» وهو جالس في بيته يحتسي فنجان قهوة أن يقوم بعمل «تخريب» داخل «إسرائيل» ويوقع أضراراً وأصابات أكبر مما يمكن أن توقعه عملية فدائية.

وقد أدرك جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي «الشاباك» خطورة المسألة فأقام جهازاً خاصاً بأمن المعلومات تابع له.. وأعد هذا الجهاز قائمة بأسماء المواقع والمؤسسات والجهات، التي تعتبر حيوية، وذات أهمية خاصة للدولة، وزودها بأنظمة حماية متطورة لكافة حواسيبها. وللتأكد من نجاعة هذه الأنظمة، تم تخصيص مجموعة من أمهر خبراء الحواسيب، وتكليفهم بمهمة واحدة فقط، وهي: محاولة اختراق هذه الأنظمة! فإذا ما نجح أحدهم في ذلك، عرفت عندها نقطة الضعف التي يمكن أن تستهدف، وتم علاج الخلل، وهكذا.

ومن الأساليب التي يتبعها جهاز «الشاباك» في استقطاب أمهر وأبرع العناصر الشابة في علم الحاسوب، للخدمة في صفوفه، أنه يقيم مسابقات خاصة لهواة الحواسيب، تحت اسم وهمي، ثم يقيم حفلة يدعو إليها الفائزين، وفي الحفلة تقدم للفائزين مغلفات مغلقة بداخلها بطاقة مسابقة جديدة، وتحدد للفائزين حفلة أخرى، وفيها تقدم مسابقة أخرى، وهكذا حتى يتم استخلاص الصفوة من المتنافسين، وعندها يقدم لهم جهاز «الشاباك» عرضاً مغرياً للعمل معه، يصعب عليهم رفضه.

## ج- الكم والكيف:

الكم: يقصد به عدد ما لدى الدولة من مقاتلين، وأسلحة.

والكيف: يقصد به نوعية المقاتلين ونوعية السلاح.

ويعتبر عدد المقاتلين ونوعية السلاح المتوفرة لدى الدولة عنصراً مهماً من عناصر القوة «قد تظل الدولة من الناحية العسكرية، وبالتالي من الناحية السياسية ضعيفة إذا لم يكن لديها الجهاز العسكري الكبير أو الصغير الصالح لأداء المهام التي قد يوكل إليه أمرها، وذلك من ناحية قوته العددية الشاملة، وقوة أجزائه المختلفة»<sup>(١)</sup>.

وقد يكون عدد الجنود، وكمية السلاح المتوفرة عنصراً حاسماً في بعض المعارك، وهذا ما ظهر جلياً في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكذلك الأمر بالنسبة للحرب العراقية الإيرانية، فلولا الأعداد الهائلة من الجنود الذين كانت تدفع بهم إيران إلى جبهات القتال، لانهارت دفاعاتها، ولخسرت المعركة في وقت مبكر.. وعليه فإنه رغم احتلال «التقنية» للمرتبة الأولى ضمن عناصر القوة العسكرية، فإنه لا يمكن تجاهل دور «الكم» إذ أنه يكون في بعض الأحيان حاسماً، كما سبق وبيننا.

أمّا النوعية، فتشمل:

- بالنسبة للمقاتلين:

• الكفاءة البدنية والعقلية.

• مستوى التدريب.

• الروح المعنوية، والعقيدة القتالية.

• درجة النظام والانضباط.

(١) السياسة بين الامم، ص ١٧٦ - ١٧٧.

• هيكلية الجيش وملائمة فروعته ووحداته المختلفة للمهام المناطة بها.

- وبالنسبة للسلاح:

• حدائته وتطوره.

• فاعليته، ودقة إصابته، وملاءمته للأهداف المحددة.

• تنوعه.

د- الاستخبارات:

وتعتمد على عنصرين من عناصر القوة وهما: العنصر البشري والتقنية. ولا

يماري اثنان

في أهمية «الاستخبارات» ودورها المركزي في القوة العسكرية للدولة.. فالاستخبارات هي عين القوة التي تبصر بها، ودونها تكون عمياء متخبطة.. وأضرب مثالا يوضح مدى خطورة وتأثير الاستخبارات في القوة العسكرية.

حتى تضمن بريطانيا بشكل قاطع دخول (أمريكا) الحرب مع الحلفاء بكل قوتها، لم تجد سبيلا أفضل من إيصال الحرب إلى أراضيها.. ولتحقيق ذلك قامت المخابرات البريطانية بتسريب إحدى شفراتهم الجديدة إلى اليابانيين، عبر أحد جواسيسها، والذي تم كشفه، وغض الطرف عنه لاستغلاله في إيصال ما يريدون من معلومات للعدو.. وأوعزت المخابرات البريطانية لقطع من أسطولها البحري، والتي تقع في مجال يمكن لأجهزة اللاسلكي اليابانية رصد واعتراض اتصالاتها، تبادل الرسائل المشفرة فيما بينها.. وحتى يتلع اليابانيون الطعم جيدا، تم في البداية تبادل معلومات صحيحة- لكن درجة الضرر فيها محدودة - ثم بعد ذلك تم تبادل مجموعة من الرسائل التي تحمل معلومات عن عزم الأسطول الأمريكي توجيه ضربة عنيفة للأسطول الياباني، بالقرب

من سواحل اليابان.. والتقط اليابانيون تلك الرسائل وسارعوا إلى فك رموزها، وهم يعتقدون أن هذه المعلومات مؤكدة وموثوق بها.. وبناء على هذه المعلومات قامت اليابان بتوجيه ضربة استباقية للأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور)، وأوقعوا فيه خسائر بشرية ومادية فادحة. وبعد هذا الهجوم لم يكن أمام أمريكا إلا دخول الحرب بكل قوتها.

وترتب على ذلك إلقاء أمريكا أول قنبلة ذرية على مدينة (هيروشيما) اليابانية، وأتبعها بقنبلة ثانية على مدينة (ناجازاكي)، وقد كتب في هذا المجال الكثير، أما هنا فسأقتصر على عرض صفحة من تاريخ جهاز «الموساد» الصهيوني كشفت تفاصيلها صحيفة «يديعوت احرنوت» الصهيونية، مؤخراً، وهي تعطينا فكرة واضحة عن أسلوب وطريقة عمل هذا الجهاز، وعن أهمية ودور الاستخبارات، «.. إسرائيل بداية سنوات (ال ٦٠) ساحة العمل الأساسية للموساد، قائمة في أوروبا، وقيادتها السرية موجودة في باريس.. وهذا لم يكن مصادفة ففرنسا في هذه السنوات تعد الصديقة الكبرى لإسرائيل، وبين الدولتين يوجد تعاون أمني قوي، الفرنسيون الذين كانوا غارقين في «الوحل الجزائري» ويقاثلون «الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر» التي تقاوم الاستعمار الفرنسي، طلبوا مساعدة «الموساد» وبالتأكيد «الموساد» قدم للفرنسيين معلومات عن المقاومة الجزائرية، وبعد ذلك نقل عملاء «للموساد» مواد قتالية (بنادق قنص، مسدسات، مواد متفجرة) حتى يستخدمها جهاز المخابرات الفرنسي، في تصفية قيادات المقاومة الجزائرية في القاهرة.. ولأن هذه العمليات أصبحت متواصلة، وكانت هناك حاجة لتأمين طريق لإيصال «المواد» إلى مصر «العدوة الكبرى لإسرائيل» قام نائب رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية «أمان» «يوفل نأمن» بتجنيد طيارين يهوديين أمريكيين، وزودهما بتمويل كبير.. الاثنان توجهوا إلى «الكويت» وعرضا على حكومته إقامة «شركة طيران».. تقبلت الحكومة الكويتية العرض بكل ترحاب، وأصبحت طائرات

هذه الشركة تنتقل من الكويت إلى جميع أنحاء الدول العربية.. وعبر هذه الطائرات كان ينقل الموساد ما يريده من «مواد».. وبعد الاستغناء عن الخدمات التي تقدم عبر هذه الشركة تم بيعها للحكومة الكويتية، وهي اليوم تعرف باسم (Kuwait Airways) شركة الطيران الوطنية الكويتية!

اضطرت فرنسا للجلاء عن الجزائر عام ١٩٦٢م، لكنها قدرت جداً المساعدة الإسرائيلية. فباريس كانت بالنسبة للموساد نقطة لقاءات آمنة ومريحة، أيضاً مع جهات لم تكن لها علاقات معلنة مع إسرائيل.. ذكر لنا رئيس الموساد السابق «ماتير عاميت»: «أنا بنفسني كنت أسافر إلى باريس وألتقي مع رؤساء أجهزة استخبارات عدد من الدول. وأعمل معهم تحالف على أساس المصالح المشتركة».

عن طريق باريس فتحت في وجه «الموساد» الطريق لدخول أفريقيا، وآسيا، وتحول «الموساد» إلى واحد من أجهزة الاستخبارات الأكثر فاعلية في هذه المناطق. صفقات التبادل شملت عادة مساعدات عسكرية إسرائيلية، وتدريب أجهزه الاستخبارات المحلية، وأحياناً إقامتها من الأساس. في المقابل حصل «الموساد» على إذن للعمل بمطلق الحرية - تقريباً - في هذه الدول، وليجمع المعلومات عن الدول العربية، وأيضاً عن نشاطات الاتحاد السوفيتي «وهذه المعلومات كان يتم تبادلها مع أمريكا».. أكثر التحالفات أهمية كان الذي بين الموساد، وما يقابله في تركيا، إيران، وأثيوبيا. لكن «الموساد» وضع لنفسه هدفاً أكثر إثارة، ويصعب بلوغ أكثر منه، وهو «المغرب» والسبب واضح، المغرب دولة عربية لها علاقات قوية مع أعداء إسرائيل الأساسيين، ومع ذلك «المغرب» دولة معتدلة، ولا يوجد لها حدود مهددة مع إسرائيل، وعلى رأسها يقوم ملك مؤيد للغرب - نوعاً ما - هو الملك الحسن الثاني.

العلاقة الاستخباراتية مع المغرب بدأت في (١٩٦٠م) عندما كان «الحسن الثاني» حينها «ولي العهد» عاماً بعد ذلك، تم تنصيبه ملكاً على المغرب.. وعندها

طلبت إسرائيل منه السماح ليهود المغرب بالهجرة إلى «إسرائيل»، محمد أوفقي الذي كان رئيس الأجهزة الاستخباراتية في المغرب، عقد اتفاقاً مع مبعوثي «الموساد»: (٢٥٠) دولاراً مقابل كل يهودي. المبلغ شمل (٨٠ ألف) يهودي، ونقل عبر شيكات، ربع مليون دولار إلى حساب سري.

بعد ذلك طلب المغاربة من «الموساد» أن يقيم لهم وحدة حماية شخصيات، رجلي الموساد «دافد شمرون ويوسكا شينر» من الحراسة الشخصية لبن غوريون أرسلوا لهذه المهمة. «الملك خشي أن يقتلوه» أخبرنا في الماضي شمرون، كان له أعداء كثير.. لم يكن آمناً على نفسه.. أوفقي قال لي: «نحن نريد أن نؤمن بالملك». ثم تبين أن أوفقي ونائبه أحمد الدليمي لم يكونا حريصين على سلامة الملك فقط وإنما على النظام الملكي ككل.. وبشكل خاص أخفهم محاولات عدة من المصريين والجزائريين الإطاحة بالملك الحسن الثاني، ودعم معارضييه.. «إسرائيل» أعادت بناء جهاز الاستخبارات المغربي من جديد، وزودت سفن مغربية بمعدات إلكترونية لاكتشاف التسللات عبر البحر.. في المقابل حصلت «إسرائيل» على حق إقامة محطة دائمة في العاصمة الرباط «للموساد»، وهذا كان الإنجاز الأكثر أهمية.

عندما وقع الصراع على الحدود بين المغرب والجزائر طار «عميت» مزوداً بجواز سفر مزور لمقابلة الملك.. المقابلة حدثت بعد منتصف الليل، في خيمة ضيوف قريبة من القصر الملكي في مراكش. «نحن نستطيع مساعدتك، ونريد المساعدة» قال: «عميت» للملك.. العرض قبل، وإسرائيل أوصلت إلى المغرب معلومات استخباراتية، ودرت طيارين مغاربة، وقدمت أسلحة كثيرة للجيش المحلي، في المقابل حصلت إسرائيل على الاطلاع على أسرى الجيش المصري الذين ساعدوا الجزائر ووقعوا في الأسر، وكذلك إمكانية التدريب في مواجهة الطائرات والدبابات السوفيتية، والتي تستخدمها - أيضاً - الدول المجاورة لإسرائيل.



التعاون بلغ ذروته في سبتمبر (١٩٦٥م) عندما عقدت في الدار البيضاء «القمة العربية» والتي بحثت اقامة قيادة عربية مشتركة للمعارك القادمة مع إسرائيل، الملك الحسن، سمح «للموساد» متابعة القمة عن قرب، طاقم وحدة «العصافير» بقيادة «تسفي ملحين ورافي إيتان» وصل إلى الدار البيضاء، تحت حراسة مشددة.. وضع الفريق في طابق كامل في أحد الفنادق.. يوم قبل بدء القمة طلب الملك من الفريق مغادرة الفندق خشية حدوث احتكاك مع نزلاء عرب، لكن مع نهاية القمة مباشرة «نقلوا الناكل المعلومات المرادة، ولم يمنعوا عنا أي شيء منها» قال رافي إيتان لصحيفة «يديعوت أحرنون»: لهذه المعلومات كانت أهمية كبيرة، مكتنتنا من الاطلاع على أوضاع وأحوال الدول العربية المعادية لإسرائيل، ومعرفة ما تفكر فيه.. وفي هذه القمة قدم قادة جيوش الدول العربية تقاريرهم التي تفيد أن قواتهم غير جاهزة لحرب قادمة مع إسرائيل. هذه المعلومات كانت واحدة من الأساسات التي جعلت إسرائيل تقدم على حرب مفاجئة للعرب في (١٩٦٧م) وكانت سبباً أساسياً في النصر الساحق لإسرائيل في هذه الحرب، «حرب الأيام الستة».

لكن في عالم الاستخبارات لا يوجد هدايا مجانية.. وقت قصير بعد تقديم المغرب لهذه المعلومات، تبين ان المغاربة يطلبون المقابل بشكل سريع.. المستهدف كان عدو الملك، زعيم المعارضة «مهدي بن بركة» والذي كان زعيماً شديداً التأثير في العالم العربي، ومعروف بأنه رجل يساري، وكان من المعارضين بشدة للملك الحسن، وفي بداية الستينات هاجر من المغرب، ثم حكم عليه بالإعدام، حاول أوفقيير والدليمي العثور عليه لكنهم فشلوا، فتوجهوا إلى «الموساد» الاسرائيلي لمساعدتهم في ذلك.. طلبهم من «الموساد» لم يقتصر على تحديد مكانه، وإنما تصفيته والتخلص منه بشكل نهائي.. «الموساد» وافق على تقديم معلومات، والمساعدة، على أن يتولى المغاربة التنفيذ الفعلي بأنفسهم.. «للموساد» وصلت معلومة عن اشتراك «بن بركة»

في أسبوعية «The Jewish observer»، ولأنه ينتقل كثيراً بين الدول وضع «بن بركة» عنواناً لتصل إليه هذه الأسبوعية وكان بين الحين والآخر، يمر على هذا المكان لاستلام الصحف منه، أرسل «الموساد» العنوان إلى «الدليمي» وقال له: المطلوب منكم مراقبة المكان مدة اسبوعين، حتى يظهر هدفكم، لكن المغاربة لم يكتفوا بذلك، فطلبوا من «الموساد» مساعدتهم في استتجار بيت سري، وأدوات تنكرية، وجوازات سفر مزورة، وأيضاً إرشادات من الموساد بكيفية التعامل مع الهدف.

وحدد لهم الموساد طريقة لاستدراجه، متمثلة بصحفي يطلب إجراء مقابلة صحفية معه.. في صباح ٢٩ أكتوبر جاء «بن بركة» من «جنيف» مزوداً بجواز سفر جزائري دبلوماسي، وسارع في الذهاب إلى المكان المحدد للقاء الصحفي الفرنسي، ولم يكن يعلم أن الصحفي، طعم وضعه له جهاز الاستخبارات المغربي لجره إلى المصيدة، وعندما وصل المكان، اقترب منه شرطيان فرنسيان، وهما في الحقيقة يعملان لصالح «الدليمي» وطلبا منه مرافقتهما، وتم سحب «بن بركة» إلى الشقة المستأجرة. وهناك أخذ الدليمي ورجاله بتعذيب «بن بركة» بشدة لانتزاع معلومات منه.. وما لبث «بن بركة» أن توفي في التعذيب.. عندها اتصل «الدليمي» بالموساد وطلب منهم مساعدته في التخلص من الجثة.. وصل رجال الموساد إلى الشقة، وقاموا بلف الجثة ونقلها إلى غابة «سان جيرمن» القريبة، وقاموا بحفر بئر عميق في الأرض، ودفنوا الجثة فيها، وقاموا برش مادة كيماوية فوق الجثة وتحتها، من شأن هذه المادة أن تعمل على تحليل الجثة بشكل سريع عندما تختلط بالماء.. سريعاً جداً تم تسريب معلومات من أجهزة الاستخبارات الفرنسية إلى مقرين من «ديغول» مفادها أن المخابرات الغربية خطفوا وقتلوا زعيماً سياسياً في وسط باريس. رئيس فرنسا رد بغضب شديد، فأقال عدداً كبيراً من رؤساء الاستخبارات في بلاده، وحل جهاز الاستخبارات الخارجي ال (SDECE). وطلب من الملك الحسن أن يسلمه أوفقيير

والدليمي. ولما رفض الملك. قطع ديغول العلاقات الدبلوماسية مع المغرب.

أثار هذا الحادث هزة كبيرة داخل «إسرائيل».. فعندما علم بالقصة «أيسر هرتيل» المستشار الاستخباراتي لرئيس الوزراء الإسرائيلي «ليفني أشكول» وكان «أيسر هرتيل» يعد «أب الاستخبارات الاسرائيلية» وتم إقالته من قبل «بن غوريون»، وجدها فرصة للانتقام من «مائير عميت» الذي حل مكانه والإثبات أنه ليس أهلاً «لهذا المنصب».. فطلب من ليفني أشكول إقالة رئيس الموساد، لكن أشكول رفض ذلك.. وتم تشكيل عدة لجان تحقيق، وخرجت بتوصيات.. «إلا أن أيسر» بقي مصراً على طلبه باستقالة رئيس الموساد أو رئيس الحكومة.. فلم يجد الاثنان أمامهما إلا طريق واحدة لإسكاته، وهي: تهديده بإثارة فضائح تسيء لسمعته في الفترة التي عمل فيها رئيساً «للموساد».. وكان من الأوراق التي استخدمت ضده: أنه في عام (١٩٥٤م) أرسل مبعوثين من «الموساد» و«الشاباك» إلى فرنسا، بهدف خطف ضابط في الجيش الإسرائيلي يشتبه في محاولته بيع وثائق سرية. وإحضاره للمحاكمة في إسرائيل «ولسبب ما مات المخطوف في الطريق. فأمر «هرتيل» بإلقاء جثته في البحر، وأن تدفن وثائق هذه القصة إلى الأبد»<sup>(١)</sup>.

هذه صورة مما كان في سالف العهد وقديم الزمان.. فلك أن تتخيل الذي

يحدث الآن!

## ٢- القوة الاقتصادية:

ذكرنا أن «مورجنتاو» اعتبر أن أهمية الاقتصاد تكمن في كونه مصدراً أساسياً لامتلاك القوة العسكرية. غير أن دور الاقتصاد أكبر من ذلك، إذ يشكل بحد ذاته وجهاً

(١) برجمن، رونن، ونقديمون، شلومي، ملحق «سبعة أيام»، جريدة «يديعوت احرنوت»، بتاريخ

١٥/٠٣/٢٠١٥، ترجمة المؤلف.

«اللقوة» لا يقل أهمية عن وجهها العسكري.. فالدولة القوية اقتصادياً، يقل أعداؤها، ويكثر أصدقاءها.. فالمصلحة هي البوصلة التي توجه الدول، وتحدد سياساتها، وهذا واضح في العلاقات الدولية اليوم، الدول الغنية، كدول الخليج، تحاول معظم دول العالم خطب ودها، والتقرب منها، وعقد صفقات واتفاقات وتفاهمات معها.. بينما الدول الفقيرة كالسودان- مثلاً- لا أسرع من أن تهاجم، وتعادى، وتتهم، وتحارب.

والدول القوية اقتصادياً، يمكنها أن تحصن جبهتها الداخلية، وترسخ سلطتها، وتخدم القلائل والفتن في مهدها.

والدول القوية اقتصادياً، يمكنها بسهولة، إن امتلكت الإرادة، أن تتقوى عسكرياً.

والدول القوية اقتصادياً يمكنها أن تؤثر إلى حد بعيد في السياسات الدولية، والإقليمية.

إن الدول القوية اقتصادياً، كدول أوروبا وأميركا تخضع الدول الفقيرة وتهيمن عليها، سياسياً واقتصادياً، وأمنياً وثقافياً.. ويلعب كل من صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، دوراً مركزياً في إبقاء الدول الفقيرة مرتبطة ومتعلقة بالغرب «هَبَّ كُلُّ من صندوق النقد الدولي (IMF) والبنك الدولي إلى «مساعدة» العالم الثالث بواسطة «برامج التكيف الهيكلي» مما أجبر البلدان المطالبة بالمساعدة إلى خصخصة كافة الصناعات والمواد المملوكة للدولة وخفض قيمة عملاتها، وتحرير اقتصادها، وتفكيك الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى إعادة استعمار «العالم الثالث» بعد ان قامت الشركات والمصارف الغربية بشراء جميع ممتلكات هذه الدول ومواردها، وخلقت الظروف المهيئة لإبادة اجتماعية جماعية، مع

انتشار الفقر الجماعي، وظهور النخب الوطنية الفاسدة، والتي كانت خاضعة لمصالح النخب الغربية»<sup>(١)</sup>.

ويؤكد هذه الحقيقة «بريجنسكي» في كتابه رقعة الشطرنج الكبرى حيث يقول: «على المرء بالإضافة إلى ذلك أن يعتبر الشبكة العالمية للمنظمات المتخصصة، والمؤسسات المالية «الدولية» بالتحديد جزءاً من النظام الأمريكي. يمكن مثلاً القول بأن صندوق النقد الدولي IMF والبنك الدولي يمثلان المصالح (العالمية) وأن العالم كله يعتبر ساحة لعملهما. إلا أنهما في الواقع خاضعان بشدة للسيطرة الأمريكية. ويمكن تتبع منشأهما إلى مبادرات أمريكية من بينها، على التحديد مؤتمر بريتون وودز المنعقد في عام ١٩٤٤م<sup>(٢)</sup>.

وتعد السلطة الفلسطينية مثلاً صارخاً لخضوع وخنوع واستخذاء الدول، والكيانات لسلطان المال.. «إسرائيل» تستخدم عائدات الضرائب، ورقة ابتزاز، وضغط ومساومة، تشهرها في وجه السلطة، كلما حاولت اتخاذ موقف لا يروق لها.. وكذلك تفعل كل من أمريكا، ودول الاتحاد الأوروبي «المانحة» حيث تهدد السلطة دائماً، بوقف المساعدات والدعم المالي المقدم لها، إذا ما اتخذت موقفاً مخالفاً لرغبتها.

«وفقاً لتقرير صدر مؤخراً عن «خدمة أبحاث الكونجرس» التزمت الولايات المتحدة بدفع أكثر من (٣،٥) مليار دولار من المساعدات للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، منذ توقيع اتفاقية أوسلو، ومنذ وفاة عرفات (٢٠٠٤م) بلغ متوسط المساعدات للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حوالي (٤٠٠) مليون دولار سنوياً،

(١) نخلة، خليل، فلسطين وطن للبيع، ص٣٦، طبعة ٢٠١١، ترجمة عباب مراد، مؤسسة روزا لوكسمبورغ.

(٢) رقعة الشطرنج الكبرى، ص ٤٣.

ومع ذلك منذ أن أحكمت حركة حماس السيطرة على غزة عززت الولايات المتحدة بشكل كبير مستويات المعونة لدعم السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية والرئيس الفلسطيني محمود عباس ضد حماس، فقد خصصت الولايات المتحدة أو أعادت برمجة ما يقرب من ٢ مليار دولار منذ (٢٠٠٧م) لدعم أمن رئيس حكومة السلطة الفلسطينية سلام فياض، والحكم والتنمية وبرامج الإصلاح، بما في ذلك (٦٥٠) مليون دولار مساعدات مباشرة لميزانية السلطة الفلسطينية ونحو (٤٠٠) مليون دولار تم تخصيصها للتدريب، والمعدات غير القتالة، والمرافق والتخطيط الاستراتيجي، والإدارة لتعزيز قدرات قوات الأمن الفلسطينية، وإصلاح نظام العدالة الجنائية في الضفة الغربية. أما الباقي فقد خصص للبرامج التي تديرها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والتي تنفذها المنظمات غير الحكومية العاملة في مجال المساعدة الإنسانية والتنمية الاقتصادية والإصلاح الديمقراطي وتحسين الوصول إلى المياه وغيرها من البنية التحتية والرعاية الصحية والتعليم والتدريب المهني»<sup>(١)</sup>.

ولا يقتصر ابتزاز السلطة الفلسطينية المالي على «إسرائيل» والدول الغربية «المانحة» وإنما يشمل كذلك الدول العربية التي تخضع معوناتها المالية والإنسانية للسلطة والفلسطينيين بشكل عام لحسابات كثيرة، منها: علاقتها بأمريكا والغرب و«إسرائيل»، والعلاقات العربية العربية، والعربية الفلسطينية، والفلسطينية الفلسطينية.. وبعد هذا كله لا تنفك قيادة المنظمة تتغنى باستقلالية القرار الوطني الفلسطيني!

لقد ارتبط «الابتزاز المالي» منذ القدم بيهود، الذين امتازوا بطبيعة جمع المال وكنزه، والربا والسحت.. وما قصة تاجر البندقية إلا مثلاً معبراً عن هذه الشخصية

(١) نخلة، د. خليل، فلسطين وطن للبيع، ص ٤٣.

اليهودية التي تعبد المال وتقده.. وقد أثار ذلك نقمة شعوب العالم عليهم، ودفعهم في فترات معينة للعيش في «جيتوهات» خاصة بهم.

ولم يعد خافياً على أحد الدور الكبير الذي يلعبه «المال اليهودي» على مستوى العالم بالتأثير في سياسات الدول الداخلية والخارجية، من خلال: جماعات الضغط، ووسائل الإعلام التي يتحكم بها المال اليهودي.. والواقع القائم اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية خير شاهد على ذلك.. إذ يلعب اللوبي والإعلام اليهودي دوراً كبيراً في دعم الحملات الانتخابية للشخصيات المؤيدة والموالية لإسرائيل، في الانتخابات الرئاسية، ومجلس النواب والشيوخ، وعمدة الولايات.. حيث أصبح المرشحون الديمقراطيون والجمهوريون، يتسابقون على تقديم «فروض الطاعة والولاء، لدولة إسرائيل، والتعهد بالحفاظ على أمنها ومصالحها، وتقديمها فوق كل اعتبار.. وقد وصل الحد برئيس وزراء «إسرائيل» أن يتحدى الرئيس الأمريكي والبيت الأبيض ويأتي ليلقي خطاباً أمام مجلس النواب والشيوخ وليعلن معارضته اتفاق التفاهم الذي يسعى البيت الأبيض للتوصل إليه مع إيران حول ملفها النووي.

### ٣- القوة العقديّة والفكرية والثقافية والمعنوية:

عندما نتحدث عن «قوة العقيدة» فإننا نقصد كل عقيدة تمكنت من نفس صاحبها، بعد اعتقاده الجازم بها، حتى وإن كانت باطلة.. فكثير هم الذين يقاتلون ببسالة وحماسة، واندفاع، واستماتة لاعتقادهم أنهم على حق، وهم في واقع الأمر على باطل.. وما كان إنسان ليقدم على التضحية بروحه، وهي أعلى ما يملك إلا إذا كانت عقيدته راسخة، وإيمانه جازماً، وأن ما يؤمن به ويدافع عنه يستحق في نظره أن يقدم روحه فداءً له.

والعقيدة قد تكون دينية، أو قومية، أو وطنية، أو حزبية، أو قبلية.

وتفاوتت الروح المعنوية، والحماسة، والاندفاع، ودرجة الاستعداد للتضحية من شخص لآخر، حسب المعتقد الذي يؤمن به، ودرجة إيمانه واعتقاده به.

فقد كان العرب في الجاهلية أصحاب بأس وشدة وشكيمة، عقيدتهم الحمية الجاهلية ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾ [الفتح: ٢٦] فلما التقى أصحاب هذه العقيدة الباطلة في سوح القتال بأصحاب العقيدة الإسلامية الحقة، وكانوا من ذات البيئة وذات الموطن، كان النصر، وكانت الغلبة والتميز لأصحاب العقيدة الإسلامية.. في معركة بدر كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فيما كان عدد المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً، وانتصر المسلمون لأنهم كانوا أقوى إيماناً، وعقيدة.. هذا المقداد بن عمرو يخاطب رسول الله ﷺ قائلاً: «يا رسول الله: امض لما أراك الله، فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالله الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (برك الغماد)<sup>(١)</sup> لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».. وقال سعد بن معاذ مخاطباً الرسول ﷺ: «.. قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقتنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، أنا لصبرٌ في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»<sup>(٢)</sup> وهذا عمير بن الحمام يسمع رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة» وكانت بيده تمرات يأكلهن، فقال: بخ.. بخ.. أفما بيني وبين أن

(١) برك الغماد: موضع بناحية اليمن.

(٢) ابن هشام، ١/ ٦١٥.



أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم كذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وبعد وفاة الرسول ﷺ، استمرت انتصارات المسلمين لما استمرت العقيدة ثابتة راسخة في قلوبهم.. في معركة «اليمامة» يقول سالم مولى أبي حذيفة مطمئناً إخوانه المجاهدين، معه: «بئس حامل القرآن أنا.. إن أوتيتم من قبلي».. وفي تلك المعركة ألجا المسلمون المرتدين إلى حديقة الموت، وفيها مسيلمة الكذاب، فقال البراء بن مالك: «يا معشر المسلمين! ألقوني عليهم في الحديقة. فقال الناس: «لا تفعل يا براء!» فقال: «والله لتطرحني عليهم فيها» فاحتمل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار اقتحم فقاتلهم عن باب الحديقة، حتى فتحها للمسلمين<sup>(١)</sup>.

وقال زيد بن الخطاب رضي الله عنه قبل استشهاده في معركة اليمامة: «لا والله، لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي! وقال ثابت بن قيس في تلك المعركة أيضاً: «اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين لعدم كفاية بأسهم واستماتتهم في قتال عدوهم - ثم خاطب المسلمين قبل أن يستشهد: «يا معشر المسلمين! إنكم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولحزبه.. أروني كما أريكم»<sup>(٢)</sup>.

لقد كان تعداد المسلمين في «اليمامة» نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل، وكان تعداد قوات مسيلمة نحو أربعين ألفاً أو أكثر أي أن المشركين كانوا متفوقين عددياً على المسلمين، كما أن المشركين كانوا يقاتلون في منطقتهم وفي قواعدهم، وكان المسلمون يقاتلون بعيداً عن منطقتهم وبعيداً عن قواعدهم.

(١) بين العقيدة والقيادة، ص ٢٣٧، وانظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك

٥١١/٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٧، وانظر: الطبري ٥١٣/٢.

وبالرغم من ذلك استشهد من المسلمين ألفاً ومئتي شهيد منهم خمسمئة من القراء.. أما بنو حنيفة، فقد قتل منهم أربعة عشر ألفاً، وقتل في الطلب سبعة آلاف، أي أن نسبة الشهداء من المسلمين تعادل ستة بالمئة (٦٪) فقط من نسبة قتلى المشركين، بينما كانت نسبة المسلمين الذين شهدوا المعركة واحداً إلى ثلاثة فقط من نسبة المشركين الذين شهدوا المعركة. وهذا يعد أروع انتصار للعقيدة الراسخة وأوضح دليل على أهميتها في القتال<sup>(١)</sup>.

أما معركة اليرموك فقد شهدت هي الأخرى نماذج رائعة للبطولة والتضحية والفداء، عزّ أن تجود الأيام بمثلها.. «حملت الروم في (اليرموك) حملة أزالوا المسلمين عن مواقعهم، فقال عكرمة: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفرّ منكم اليوم؟! ثم نادى: «من يباعدني على الموت؟! فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمئة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد بن الوليد حتى أثنخوا جميعاً جراحاً، فمنهم من برأ ومنهم من قتل. وكان عكرمة أعظم الناس بلاءً، يركب الأسنة حتى جرحت صدره فقبل له: «اتق الله وارفق بنفسك» فقال: «كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها لها، أفأستبقها الآن عن الله ورسوله؟! لا والله أبداً» فلم يزد إلا إقداماً<sup>(٢)</sup> واستشهد رحمه الله وبه بضع وسبعون ما بين طعنة وضربة ورمية.

هذه النماذج، وغيرها كثير، كثير.. صنعتها في النفوس العقيدة الراسخة والإيمان الخالص، واليقين الصادق، أن ما عند الله خير وأبقى. هذا الفهم وهذا الاعتقاد جسده، قول عبدالله بن رواحة يوم مؤتة عندما وقف المسلمون يفكرون في أمرهم لما وجدوا

(١) بين العقيدة والقيادة، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) ابن الأثير، أبو الحسن محمد بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٤/ ٦٧، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط ١، ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية.

أنفسهم وهم يومئذ ثلاثة آلاف يقابلهم من الروم والمشركين العرب مئتي الف! قال عبد الله بن رواحة يومها: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إمّا ظهور وإمّا شهادة.. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فحضر الناس<sup>(١)</sup>.

قد يقول قائل: قد كانت هذه النماذج في زمان وانقضى بانقضاء رجاله، وأدوات حربه ولم يعد إلى مرد من سبيل.. فأقول: إن الرجال «الذين لا يقهرون» والذين خرجتهم مدرسة العقيدة الإسلامية، والدعوة المحمدية، فضربوا أروع الأمثلة في الصبر والتضحية والثبات، والشجاعة والبسالة، والإقدام، لم ولن ينقطعوا عبر الزمان.. وحسبكم اليوم في أهل غزة وكتائب القسام أسوة حسنة لمن كان يبحث عن الصمود الأسطوري، والتضحية التي لا تعرف حدوداً، والعزة التي لا تعرف الخنوع، والعزيمة التي لا تكسر، والشجاعة التي لا تفهر.

غزة الصغيرة التي يحاصرها اليهود والعرب على حد سواء، ويرمونها عن قوس واحدة، بأسلحتهم الفتاكة وألسنتهم الحداد، تصمد في كل حرب تشن عليها صموداً أسطورياً، فلا تستسلم أبداً، ولا تعرف الانكسار، ولا تعطي الدنية.. تقابل الموت، والجراح، والدمار والجوع والحصار، بكل شموخ وإباء وكبرياء.. وتقاوم بكل بسالة وشجاعة واستماتة.. غزة؛ هذه البقعة الصغيرة من الأرض، أذلت كبرياء «إسرائيل» وانتصرت عليها.

انتصرت غزة: عندما أمطرت «إسرائيل» من شمالها إلى جنوبها؛ من حيفا والخضيرة، ويافا و«تل أبيب»، والقدس، إلى عسقلان وبئر السبع، وديمونا، والنقب، بمئات القذائف الصاروخية، المصنوعة بمعظمها بأيدي غزية.

(١) ابن هشام، ٢ / ٣٧٥.

انتصرت غزة: عندما تمكنت من إيقاف حركة الملاحة الجوية في أكبر وأهم مطارات «إسرائيل»، مطار «بن غوريون».

انتصرت غزة: عندما استطاعت شل الحياة الطبيعية في ثلثي مساحة «إسرائيل» وألزمت نحو ثلاثة ملايين صهيوني بما فيهم، رئيس، ورئيس وزراء إسرائيل، دخول الملاجئ.

انتصرت غزة: عندما فرضت أن تكون الكلمة الأخيرة لها.. عندما وجه رئيس أركان جيش الاحتلال دعوة للمستوطنين في غلاف غزة للعودة إلى منازلهم، لم يعودوا إلا بعد أن سمعوا كلمة «حماس».

أجرت القناة الصهيونية الثانية مقابلة مع رئيس «الشاباك» السابق آفي دختر أياماً قبل انتهاء معركة «العصف المأكول»، فقال: «لا يعقل الذي يجري اليوم!! «إسرائيل» الدولة العظيمة عسكرياً، أصبحت حكومة وشعباً تنتظر كلمة «السحر» من حماس؛ هل سيكون غداً هدوء أم حرب؟!».

لقد شهد العدو قبل الصديق ببسالة وشجاعة، وجرأة وإقدام مجاهدي كتائب الشهيد عز الدين القسام.. يقول رئيس أركان جيش الاحتلال في حرب «العصف المأكول» الأخيرة «بني جانتس» لا يمكنني أن أصف شباب حماس الذين يصعدون على ظهر الدبابات ويضعون عليها العبوات الناسفة بغير: «الشجاعة والجرأة».

وقد شاهد الجميع عبر تسجيل مصور نشرته «كتائب القسام» أفراداً من وحدة «الكوماندوز البحري» القسامية يخرجون من البحر عند موقع «زيكيم» العسكري، ويشتبكون بالرشاشات مع جنود الاحتلال، ثم يتقدم أحد «الفدائيين» ويعلو ظهر دبابة صهيونية، ويضع فوقها عبوة ناسفة، ثم ينزل، وتنفجر الدبابة.

وكان جيش الاحتلال لما عرض مشاهد من هذه العملية. قد قام بحذف المقطع الذي يظهر اشتباك مجاهدي القسام مع جنود الاحتلال وصعود أحد الفدائيين على ظهر الدبابة.. وتفاجأ جيش الاحتلال بحصول حماس على التسجيل الكامل وبثه عبر شاشات التلفاز.. الأمر الذي دفعه لتشكيل لجنة تحقيق لمعرفة: كيف وصل التسجيل ليد حماس؟

وكانت كتائب القسام قد نشرت الكثير من التسجيلات المصورة لمجاهديها، وهم يستهدفون جنود وآليات الاحتلال، ويوقعون فيها إصابات مباشرة، ومن أهم هذه التسجيلات، تسجيل مصور لعملية «ناحل عوز» والذي يظهر فيه مجاهدو كتائب القسام يقتحمون موقعاً عسكرياً صهيونياً، ويجهزون على من فيه من جنود صهيانية، من نقطة الصفر، ثم يدوسون بأقدامهم رؤوس جنود «الجيش الذي لا يقهر»!

وعملية بطولية أخرى لم تكشف حماس حتى الآن تفاصيلها ونتائجها؛ هي عملية أسر الضابط الصهيوني «هدار جولدن» في رفح، فحسب مصادر صهيونية فإن مجموعة من الجنود الصهيانية من وحدة «جفعاتي» تقدمت نحو منزل مهدم في مدينة رفح، وبينما هي تجري عملية تمشيط للمكان تفاجأت بمجموعة من مجاهدي كتائب القسام يخرجون لهم من نفق تحت الأرض، ويتقدم أحد المجاهدين ويفجر نفسه في الجنود، فيسقط قائد المجموعة واثنين من الجنود الصهيانية قتلى، ويصاب عدد آخر، بجراح مختلفة، وفي تلك الأثناء يشتبك المجاهدون مع الجنود الصهيانية ويتمكنون من أسر الضابط «هدار جولدن» وسحبه عبر أحد الأنفاق، ولا يعلم مصيره حتى الآن.

وتابعت مقابلة أجرتها القناة العبرية الثانية مع جندي صهيوني يرقد في مشفى «سوروكا» في بئر السبع، بعد أن أصيب في معركة العصف المأكول... وروى

الجندي قصة إصابته، بقوله: تقدمنا نحو أحد البيوت المقامة على أطراف غزة، بعد أن اتخذنا كل الإجراءات الأمنية المطلوبة، حيث طبقنا سياسة «الأرض المحروقة» فقصفنا الطائرات والدبابات المكان بكميات هائلة من القذائف والصواريخ، ثم إننا لم ندخل البيت من أبوابه أو نوافذه، وإنما أحدثنا فتحة في جداره، ودخلنا عبرها... وقبل أن ندخل ألقينا كمية كبيرة من القنابل اليدوية وفتحنا نيران رشاشاتنا بكثافة في كل اتجاه حتى لا تبقى أي احتمال لإمكانية وجود أحياء، ورغم ذلك، ما إن دخلنا البيت حتى تفاجأنا، بمسرح فلسطيني، لا ندري من أين، ولا كيف خرج لنا: القى قبلة يدوية نحونا، فقتلت جندياً وأصابت آخرين، ثم شرع بإطلاق النار علينا، فأصبت بعدة عيارات نارية في رجلي.

وقصص بطولة وشجاعة وإقدام المجاهدين الفلسطينيين، في حرب «العصف المأكول» الأخيرة على غزة، وغيرها، كثيرة يصعب أن تعد وتحصى.. ونكتفي هنا بما عرضناه على سبيل المثال لا الحصر، وأعزز بخبر ذكرته وسائل الإعلام الصهيونية مؤخراً، مفاده: أن وزارة «الدفاع» الصهيونية اعتمدت حتى الآن نحو خمسمئة طلب، من الطلبات التي تقدم بها جنود صهاينة أصيبوا في «معركة العصف المأكول» لإعطائهم صفة «معاقبي حرب».

إن قطاع غزة يعتبر أحد أكثر بقاع الأرض تديناً، الناس فيه ملتزمون بفطرتهم بتعاليم الإسلام، تمر في شوارع القطاع، فيندر أن ترى امرأة غير محجبة، أو رجلاً غير ملتحم.

إن ارتباط أهل غزة بعقيدتهم ودينهم، ووطنهم ارتباط وثيق متين، وهذا ما يفسر صلابتهم وبسالتهم وقوة شكيمتهم، وستظل غزة - بإذن الله - عزيزة أبية، شامخة، مقاومة، قاهرة لعدوها.. لا يضرها من خذلها، من الأعراب، ولا من خالفها من أبناء الجلدة،

المخذلين، الذين ضعفت عزيمتهم، وثقلت همتهم، وغرتهم أمانيتهم، وحسن ظنهم بعدوهم.. حتى يأتي أمر الله، وهي على ذلك.

فإن أمة تجمع بين العقيدة والعزيمة لن تعرف ابداً الهزيمة.

### القوة الثقافية والحضارية:

للقوة الثقافية والحضارية تأثير يمكن أن يفوق في بعض الأحيان تأثير القوة العسكرية.. ولهذا اعتبر كثيرون، الغزو الثقافي من أخطر أنواع الغزو.. لأنه في حالة نجاحه يحقق جميع أهدافه بسهولة ويسر، ولا يكلف الأمة الغازية ما يكلفها الغزو العسكري، من ثمن باهظ من الأموال والأنفس.

وقوة الثقافة والحضارة تعتمد على عاملين أساسيين، هما:

- عراققة هذه الثقافة والحضارة.

- قوة ومناعة الأمة صاحبة هذه الثقافة والحضارة.

وإن توفر لها هذان العاملان. كانت محصنة من الاختراق، مؤثرة ومعلمة وملهمة للأمم الأخرى.. وإن افتقرت لأحدهما أو كليهما، كانت هشّة ضعيفة، وسهل غزوها، وهيمنة الثقافات والحضارات الأخرى عليها.. وأضرب أمثلة على ذلك:

- الثقافة والحضارة الإسلامية: لما كانت أمة الإسلام قوية عزيزة، فتنت بها جميع الأمم والحضارات الأخرى. وتأثرت بها وأخذت عنها. ودخل كثير من أهل البلاد التي فتحها المسلمون في الإسلام.. وبعد أن ضعفت قوة المسلمين، ورغم عراققة الثقافة والحضارة الإسلامية، إلا أن أمة الإسلام. تم غزوها ثقافياً وحضارياً. وفتن الكثير من أبنائها بثقافة وحضارة الغرب «القوي»، وأخذوا يقلدونه، في كثير من عاداته، وتقاليده. وحتى لغته.

• حضارة المغول: رغم قوة المغول وشدة بأسهم وعظم ما حققوه من انتصارات، إلا أن حضارتهم وثقافتهم كانت هشة، فلم يؤثروا في حضارة الشعوب التي احتلوا أراضيها، بل كان العكس، تأثروا هم بثقافة وحضارة تلك الشعوب، فكثير منهم دخل الإسلام، ومنهم من تأثر بالحضارة الفارسية، وآخرون بالحضارة الصينية، حيث أصبح أحد أحفاد جنكيز خان، الذي نصب امبراطوراً على الجزء الصيني من مملكة الخان الكبير داعية متحسماً للكونفوشيوسية.

• الحضارة والثقافة الأمريكية: فتنت كثير من الأمم والشعوب بالثقافة الأمريكية لاعتمادها النظام الديمقراطي، ولقوتها العسكرية والاقتصادية المميزة.. ومن مظاهر هذا الافتتان: «تحتل الأفلام والبرامج التلفزيونية الأمريكية ثلاثة أرباع السوق العالمية. وتشابهها في الانتشار الموسيقي الشعبية الأمريكية في حين تتوسع باستمرار دائرة الذين يقلدون التقليعات والملابس وحتى العادات الغذائية الأمريكية في جميع أنحاء العالم»<sup>(١)</sup>.

## الصراع على المكانة

سعي الفرد لبلوغ مكانة مرموقة ومرضية له في المجتمع، يعتبر أمراً فطرياً غريزياً، لا يمكن لأحد إنكاره.

فما من إنسان إلا ويحب أن يحمده، ويثنى على أفعاله وقدراته التي يعتقد أنه يتميز بها، وكل إنسان يعتقد في داخله أنه يستحق موضعاً ومكانة أفضل من التي هو عليها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: رقعة الشطرنج الكبرى، ص ٤٠ - ٤١.

(٢) راواه البخاري، (٦٤٣٦).



من هنا فإن الإنسان دائم السعي والكفاح والكد، لتحسين مكانته، حتى يكون عنده قدرة أكبر على جلب المنفعة لنفسه، ودرء السوء والألم والمعاناة عنها.. والدول كالأفراد تسعى هي الأخرى بشكل حثيث لبلوغ المكانة التي تعتقد أنها تستحقها بين الدول. والهدف من سياسة المكانة هو: التأثير على الدول الأخرى بالسلطان الذي تملكه دولة بصورة فعلية أو بالسلطان الذي تعتقد أو تريد من الآخرين أن يعتقدوا أنها تملكه.. وهناك أداتان رئيسيتان تحققان هذا الغرض، وهما: المظاهر الدبلوماسية في أوسع معانيها، وعرض القوة العسكري<sup>(١)</sup>.

### ١- الدبلوماسية:

الدبلوماسيون هم الممثلون لبلادهم في الدول الأخرى.. وكل ما يصدر عنهم من تصرفات أو تصريحات يعد معبراً عن مواقف وسياسات بلادهم.. والاحترام الذي يقدم لهم في تلك البلاد، يمثل احتراماً لبلادهم.. والدولة تسعى من خلال سفرائها، ودبلوماسيها للتأثير على الدول الأخرى، وتحقيق مصالحها التي حددتها في سياستها الخارجية.

ومن المفروض أن تقوم الدولة برسم وصياغة سياستها الخارجية مستندة ومعتمدة على ما تملكه من طاقات وإمكانات، وموارد مادية وبشرية، بالموازنة مع فهمها وقراءتها لواقع المجتمع الدولي. فتحدد أهدافها الاستراتيجية. والوسائل والخطوات التكتيكية التي ستتخذها، حتى تصل لأهدافها الاستراتيجية.

وليس في وسع أية سياسة خارجية مهما توخى القائمون عليها، إعدادها، وتنفيذها بمتنهي الخبرة، ومهما كانت الموارد المادية والبشرية، المتوافرة لديها غزيرة، أن تصل إلى أية نتيجة، إذا لم تكن هناك حكومة صالحة تتولى تسييرها.

(١) السياسة بين الأمم، ص ١١٥.

وتعنى الحكومة الصالحة كمتطلب مستقل للسلطان القوي، بثلاثة أمور وهي: التوازن بين الموارد المادية والبشرية، التي تدخل في صنع الاستقلال القومي من ناحية، وبين السياسة الخارجية التي يجب أن تُتبع من الناحية الأخرى، والموازنة بين هذه الموارد نفسها، ووجود التأييد الشعبي للسياسات الخارجية المتبعة.. وعلى أية حكومة صالحة، أن تشرع في عملها بأداء عمليتين فكريتين مختلفتين، فعليها أن تختار أولاً أهداف سياستها الخارجية وأساليبها، بالنسبة إلى ما لديها من سلطان متوافر لدعمها لتحقيق الحد الأقصى من النجاح، والدولة التي لا تلقي ببصرها بعيداً متجاهلة بعض السياسات الخارجية التي تكون ضمن طاقة سلطانها تتخلى بذلك طائعة عن دورها الشرعي الذي تستحقه في المجتمع الدولي»<sup>(١)</sup>.

وما أحسب دولنا العربية إلا من هذه النوع من الدول التي تتخلى طائعة عن دورها الشرعي الذي تستحقه في المجتمع الدولي.. فهي في أغلبها حكومات مستبدة لا تأخذ إرادة شعوبها في عين اعتبارها.. ولا تصوغ سياستها الخارجية، صياغة سليمة، وليس لها أهدافاً استراتيجية محددة وواضحة، وليس لديها خطط لبلوغ هذه الأهداف.. جل همها تملق الدول الكبرى ومداهنتها، ومداراتها، لعلها ترضى عنها!

يصف الدكتور أحمد أوغلو رئيس وزراء تركيا، سياسة هذه الدول، بقوله:

«الدول التي تترك سياستها الخارجية في مجرى موجات التطورات المختلفة وتفقد قدرتها على المواكبة الزمنية للأهداف بسبب ضعف إرادتها السياسية فتصبح أسيرة ردود أفعال مرحلية، ومتداخلة ومتناقضة من خلال جداول أعمال تم تحديدها لها مسبقاً، والنخبة السياسية في مثل هذه الدول لا تملك أية وجهات نظر تتعلق بنقطة البداية أو نقطة النهاية، ولا تتصف بالجرأة والقدرة على اتخاذ القرار، بل تلجأ إلى

(١) السياسة بين الأمم، ص ٢٠٦.

الأساليب الدفاعية، والانفعالية.. ويحكم سلوكها موقف جبان يتراوح بين التهرب من المسؤوليات التي تحقق لهم احترام الآخرين، وبين مخاوفهم من إهمال الآخرين لهم.. التاريخ بالنسبة لهم هو فاتورة يدفعونها وليس تراكمًا ثقافيًا، والجغرافيا التي يملكونها ليست القوة الكامنة والغنى الاستراتيجي، بل الورقة الرابحة التي يقدمونها لأطراف اللعب الكبيرة<sup>(١)</sup>!

إن أول وأهم ما ينبغي أن تركز عليه السياسة الخارجية للدولة، هو: قضية التحالفات:

إقامة تحالفات جديدة، إعادة النظر وتقييم التحالفات القائمة، وتقويتها أو إضعافها حسب ما تقتضيه المصلحة، والعمل على إضعاف التحالفات المعادية، ومحاولة تفكيكها.. ذلك أن اللعبة السياسية الدولية، تفرض على الجميع المشاركة فيها، فلا مكان للمحايدين في هذا الزمان، وأن تأتي اللعبة بمفردك يعني سرعة هزيمتك وخسارتك.. إن دولنا العربية والإسلامية لن تحصل على أي مكانة معتبرة، ما لم تنتقل من دائرة التنافس في ما بينها إلى دائرة التكامل.

## ٢- استعراض القوة:

وهو سيف ذو حدين، ينفع ويحقق الهدف المراد منه، وهو إظهار قدرة وقوة الدولة على حماية نفسها، وفرض إرادتها، وردع أعدائها، في حال استناد الدولة لقوة حقيقية وليس وهمية.. ويضر، وقد يجلب الدمار للدولة، التي تستعرض قوتها وتلوح باستخدامها، وهي في الواقع ضعيفة وهشة، فهي عندئذ تكشف عن نواياها المبيتة، وسياستها التي تسعى لانتهاجها، قبل أن تمتلك ما يغطيها من قوة.. ونضرب مثلاً على ذلك، العراق ما بعد انتهاء حربه مع إيران، حيث أخذ يستعرض ما يمتلكه من أسلحة،

(١) العمق الاستراتيجي، ص ٥٤-٥٥.


خاصة صواريخ «سكود» ويطلق التهديدات ضد «إسرائيل» وغيرها.. فنبه بذلك الدول الكبرى، على الخطر الذي يمكن أن يشكله، إن ترك يمتلك بالفعل القوة التي يسعى إليها.. فعجلت هذه الاستعراضات التي جاءت مبكرة جداً، ولم يكن من داع إليها في ذلك الوقت، بتحريك الغرب ووضعهم حداً لهذا الطموح ووأده في مهده.

وعلى الدولة أن تعلم أن أي استعراض للقوة تتابعه القوى العظمى، ويتابعه الخبراء والمختصون، وهؤلاء يمكنهم أن يحددوا جيداً، القدرة الفعلية ودرجة التقنية، ومدى قدرة السلاح المستعرض.

قبل نحو شهرٍ أعلنت «إسرائيل» عن إجراء تجربة ناجحة لصاروخ «حيثس ٣» في اعتراض صاروخ اطلقته طائرة اسرائيلية يحاكي الصواريخ الباليستية الإيرانية. فأعلنت روسيا وقتها أنها رصدت إطلاق الصاروخ الإسرائيلي، وأن التجربة منيت بالفشل وسقط الصاروخ في البحر.. وبعد مرور أسبوعين، أقرت «وزارة الدفاع الإسرائيلي» بفشل التجربة، وأنها أجرت تجربة ثانية، وحدث خلل تقني، اثناء انطلاق الصاروخ فحولت اتجاهه للبحر.

من هنا ينبغي أن يعلم أن استعراض الدولة لقوتها العسكرية أو جزء منها، يعني كشف مقدراتها وإمكانياتها للعالم، فان كانت وازنة وذات مغزى حقيقي حققت «المكانة» المرجوة التي تسعى إليها، وإلا بقيت الدولة تراوح مكانها، أو عجل أعداؤها بتوجيه ضربات استباقية لها.. فتراجع مكانتها بدل أن تتقدم، وتخسر بدل أن تريح.





الفصل الثالث  
السياسة الشرعية



## السياسة الشرعية

إذا عرفنا علم السياسة على أنه: علم السلطة أو علم الدولة، فإن تعريفنا للسياسة الشرعية يفترض أن يكون - كما سبق وذكرناه في الفصل الأول - «تدبير أمور الناس وشؤون دنياهم بشرائع الدين».

أما إذا عرفنا السياسة على أنها: القوة، فإن تعريفنا للسياسة الشرعية - بناء على ذلك - ينبغي أن يكون مغايراً.

إذ يمكن تعريفها على أنها: «الإدارة الحكيمة للعلاقات القائمة على أساس القوة بين الناس بمختلف صورها وأشكالها، والنظم التي تكون معبرة بنائياً ووظيفياً عن هذه الصور والأشكال تحت إطار الشريعة الإسلامية».

لكن حصر السياسة بالقوة وإن كان مقبولاً وواقعياً عند غير المسلمين لا يمكن تقبله في السياسة الشرعية الإسلامية، فهي أعظم وأشمل من أن تحصر في «القوة».. والإسلام يقدم الرفق على العنف، والسلام على الحرب، ويعتبر المسالمة والموادعة والتفاهم، والتعارف، والقيم الأخلاقية المشتركة الأساس الذي يجب أن تقوم عليه العلاقات بين الأمم والدول، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الاحقاف: ١٣] وقال: ﴿إِنِ اعْتَرَفْتُمْ لَوْكُمْ فَلَمْ يُقْتَلُوا وَلَمْ يَكُن لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] وقال: ﴿لَا يَنْهَىٰ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ أَنْ تَرَوُوهُمْ وَتُفْسِدُوا بِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨] ثم أن القرآن الكريم وجه دعوة عظيمة

للتفاهم واللقاء على كلمة سواء «عدل» لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ونستنبط من هذه الآية حرص الإسلام، وتقديمه التفاهم والتقاطع مع غير المسلمين على غيره من الحلول.. وبما أن مجال الدعوة إلى «كلمة سواء» في هذه الآية عقدي، وبالتالي فإن الالتقاء والتفاهم بين المسلمين وغيرهم في المجالات الأخرى: السياسة، الإنسانية، الاقتصادية.. مشروع وممكن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لم يقاتله وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا، وهذا متواتر من سننه، فهو لم يبدأ أحداً من الكفار بقتال، ولو كان الله أمره أن يقتل كل كافر لكان يبتدئهم بالقتل والقتال»<sup>(١)</sup>.. إن قتال الكفار ليس مقصوداً لذاته، وإن الإسلام يفضل سلوك السلام بصفة أصيلة، كلما أمكن ذلك، وإن إعلان الحرب هو آخر الدواء الذي يعالج ما استعصى من الأمراض البوائية القاتلة، أو الضارة بمصلحة المجموعة البشرية.. قال رسول الله ﷺ فيما يرويه أحمد والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: «يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك فإن الإسلام لا يغفل عن طبيعة الاستحواذ والهيمنة والعدوانية عند كثير من الناس ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ..﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، رسالة القتال، ص ١٢٠.

(٢) الزحيلي، وهبة، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٩٠، ط ٥، ٢٠١٢م، دار الفكر المعاصر.



﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الاعراف: ١٠٢].

من هنا ألزم الله المسلمين امتلاك «القوة» حتى يحموا أنفسهم ويدفعوا العدوان عنهم، ويردعوا خصومهم، وقيموا العدل بين الناس، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَاهِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ \* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ \* الَّذِينَ إِنْ مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

إننا إذ نقاتل فإنما نقاتل دفاعاً عن أنفسنا وأوطاننا وردعاً لعدونا.. لا لنذل الناس ونقهرهم ونسلب أرواحهم وأموالهم، وإنما لننزع «السلام» منهم لنا، ولهم. وإذا كانت قريش العربية صاحبة النخوة والحمية، والعصبية القبلية، فعلت ما فعلته بأبنائها المسلمين، ولم ترقب فيهم إلا ولا ذمة، فماذا ينتظر المؤمنون من بني الأصفر والأبيض والأحمر والأسود من الناس؟! ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨] والتاريخ حافل بالشواهد التي تبين ما حل بالمسلمين في كل مرة ضعفوا فيها وظهر عليهم أعداؤهم وحال المسلمين اليوم يغني عن المقال.. ولن تقوم لهذه الأمة قائمة ولن تسترد حقوقها، وتستعيد مكانتها، وعزتها وكرامتها، إلا إذا أخذت بأسباب القوة والمنعة.. واستجابت لدعوة الله ورسوله، وجاهدت في سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] (١).

## مفهوم القوة في الشريعة الإسلامية

«القوة» تعني: المقدرة، وعرفناها في الفصل الثاني، بأنها: قدرة جهة صاحبة إمكانيات على توظيف الإمكانيات الموضوعية تحت تصرفاتها، بغية تحقيق أهدافها ومصالحها.

والغاية من «القوة» في الإسلام هي بلوغ «المنعة» أي العزة، فالعزیز هو: الممتنع الذي لا يُنال بالأذى.

«ولذلك سمي العقاب: عزيزة: لأنها تتخذ وكرها في أعلى الجبل فهي ممتنعة على من يريدھا»<sup>(١)</sup>.

ولن تكون الأمة «عزيزة» إلا إذا كانت قوية، عصية على أعدائها، حامية لمواطنيها، رادعة لكل من تسول له نفسه التطاول عليها، وإلحاق الأذى والضرر بها.

من هنا أوجب الشارع على المسلمين امتلاك «القوة» قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُفْقَهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالمطلوب من المسلمين، والواجب عليهم بذل أقصى ما وسعهم من جهد، والعمل الدائب الدائم لإعداد القوة بكافة أشكالها وأنواعها، ومتطلباتها.. ويعرف «الشوكاني» القوة، بقوله: «القوة: كل ما يتقوى به في الحرب»<sup>(٢)</sup>.

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، الفروق اللغوية، ص ١٢٦-١٢٧، ط ١، ١٤٢١هـ /

٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ٢/٣٦٦، ط ١، ١٤١٤هـ، دار ابن كثير - دمشق.

ويعلق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله:

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد، والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها، ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة.. ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهودات محيرة- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- والمهم هو عموم التوجيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان.. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. والأمر الثاني: إن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة.. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها.. والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها؛ ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده؛ ومن ثم فالحاكمة له وحده سبحانه<sup>(١)</sup>.

إن الهدف الأول من إعداد «القوة» في الإسلام هو: إرهاب الأعداء، فإذا تحققت هذه الغاية يكون قد «كفى الله المؤمنين القتال» ولم يكن من داع لأن تسفك الدماء.. فإن لم يرتدع الأعداء، ويتنهدوا، فعندها لا بد من القتال ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ونلاحظ أن النص أفرد «رباط الخيل» بالذكر مع أنه جزء من القوة.. في إشارة غاية في الدقة، وعمق المعنى.. فرباط الخيل أقرب في الدلالة إلى «استعراض القوة»

(١) في ظلال القرآن، ٣/١٥٤٣.

واستعراض القوة هو الذي يحقق الغاية المرجوة، وهي إرهاب الأعداء «ترهبون به عدو الله وعدوكم» ولما كان استعراض القوة ينبغي أن يستند - كما أشرنا سابقاً - إلى قوة حقيقية، وليس وهمية، جاء النص القرآني على هذه النحو الدقيق، مقدماً قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ مَفْصَلٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

ثم إن الآية حددت الأعداء الذين يلزم إرهابهم من خلال إعداد المؤمنين للقوة، بثلاثة أصناف: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ والصنفان الأولان من الناس معلومان للمؤمنين، أما الصنف الثالث، فهم أعداء سريون لا يعلمهم إلا الله، وهؤلاء هم من الذين يخفون في صدورهم ما لا يبدو له للمؤمنين.. وهم من المتربصين الذين إن كان للمؤمنين غلبة وقوة، زعموا أنهم معهم، وإن وجدوا فيهم ضعفاً ووهناً، انقلبوا عليهم، وأظهروا عداءهم وظاهروا عليهم.. وبالتالي فإن إعداد المؤمنين للقوة، واستعراضها، من شأنه أن يكفي المؤمنين شر هذه الفئة من الناس التي لا يخلو منها زمان ولا مكان.

ثم يربط سياق الآية بين «القوة» والمال الذي هو عصب القوة الأساسي الذي لا تقوم إلا به، مرغباً ومحرضاً المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

## أشكال القوة

### ١- القوة العسكرية:

ذكرنا في الفصل الثاني، أن القوة العسكرية، تقوم على أربعة عناصر، هي: القيادة، التقنية، الكم والكيف، والاستخبارات.

وسنعرض هنا لأهمية ودور هذه العناصر من باب الشريعة الإسلامية:

## أ- القيادة:

بين القرآن الكريم أهمية القائد للجيش في أكثر من موطن، ففي قصة طالوت، حدثنا القرآن عن طلب بني إسرائيل من نبي لهم، أن يبعث لهم ملكاً ليقودهم في حروبهم ﴿الْمَرْتَرِ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ مَلِكًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. وهذا الطلب من بني إسرائيل وإعطاء القائد العسكري صفة «الملك» والذي يعني أنهم سيملكونه أمرهم، فيه إشارة واضحة لأهمية القائد بالنسبة للحرب، وأنه العنصر الأساسي، الذي لا تقوم إلا به. ومن النصوص القرآنية التي تبرز أهمية القائد - أيضاً - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنثَىٰ بِإِمْئِنِّهِنَّ﴾ [الاسراء: ٧١].

ففي ذلك إشارة إلى أن الناس تتبع إمامها وقائدها. فإما أن يقودها إلى النصر أو إلى الهزيمة، وإما أن يقودها إلى الخير والرشاد أو يقودها إلى الغي والضلال.

وضرب الله مثلاً للقائد السوء الذي يورد قومه المهالك، فرعون، الطاغية المتعجب المستبد ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنثَىٰ بِإِمْئِنِّهِنَّ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ \* يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧-٩٨].

كما وحدد القرآن الكريم أهم صفات القائد العسكري: فنستنبط من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ صفتين من أهم صفات القائد وهما: العلم، والمقدرة الجسدية. كما نستنبط صفة «الأمانة» من نهيه تعالى عن «الغلول»: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ

أَنْ يُعْلَى<sup>(١)</sup> وَمَنْ يُعْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظَامُونَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٦١] وصفة الشدة على الأعداء، والرحمة بالجدد، من قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا أَلْتَبِيَّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. يقول سون تزو في كتابه فن الحرب «انظر إلى جنودك كما لو كانوا أطفالك وهم سيتبعونك وقتها إلى مهالك الوديان العميقة، وانظر إليهم كما لو كانوا أحب أبنائك إليك وهم سيقون معك حتى يلقوا حتفهم»<sup>(٢)</sup> وهكذا كان صحابة رسول الله من رسول الله، ومع رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وصفة المشاورة، من قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. وصفة الحزم من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ومما ورد في السنة من صفات القائد:

• تقوى الله: عن بريدة رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً..» الحديث.

• الشجاعة والإقدام: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «.. وإنما الامام جُنَّةٌ، يقاتل من ورائه، ويتقى به..»<sup>(٣)</sup>. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبَل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد

(١) يغل: يخون في الغنيمة.

(٢) فن الحرب، ص ٦٠.

(٣) البخاري، (٢٩٥٧).

سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عُرِّي في عنقه السيف..» الحديث (١).

• الأمانة والوفاء بالعهود، وعدم الغدر: عن أبي سعيد رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة» (٢).

وعن بريدة رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، وقتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تُمثلوا، ولا تُمثلوا وليدًا..» (٣).

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه، قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أنني خرجت أنا وأبي حُسيب. قال: فأخذنا كفار قريش. قالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا، ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لنصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم» (٤).

### ب- التقنية:

التقنية: ثمرة للعلم ولإعمال العقل، وقد حث القرآن الكريم والسنة النبوية، على طلب العلم، وعلى إعمال العقل والتفكير والتدبير.. والإسلام يفتح الباب واسعاً أمام العقل البشري كي يبحث ويستكشف ويطور ويستحدث، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

(١) أخرجه البخاري، (٢٩٠٨) ومسلم، (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم، (٧٣٨).

(٣) أخرجه مسلم، (١٧٣١).

(٤) أخرجه مسلم، (١٧٨٧).

[طه: ١١٤] وقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وذكر القرآن الكريم فضل الله على دواد عليه السلام بتعليمه صناعة الدروع، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الانبيا: ٨٠] وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنْهَا مِثْقَالَ حَبَّةٍ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ \* أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ<sup>(١)</sup> وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ<sup>(٢)</sup> وَأَعْمَلُوا صَاحِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وقد حث الرسول ﷺ على العناية بأدوات الحرب وعلى التدريب والرمية، معتبراً أن «القوة» في الرمي.. فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الانفال: ٦٠] ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي قالها ثلاثاً<sup>(٣)</sup> وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»<sup>(٤)</sup> وعن عبد الرحمن بن شماس، أن فقيماً اللخمي قال لعقبة بن عامر رضي الله عنه: تختلف بين هذين الفرضين وأنت كبير يشق عليك؟! قال عقبة: لولا كلام سمعته من الرسول ﷺ، لم أعانيه، قال الحارث: فقلت لابن شماس: وما ذلك؟ قال: إنه قال: «من علم الرمي ثم تركه، فليس منا (أو قد عصي)»<sup>(٥)</sup> وعن عمر رضي الله عنه، قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، وكان ينفق على أهله نفقة سنته، ثم

(١) سبغات: دروعاً واسعة كاملة.

(٢) قدر في السرد: أحكم صنعتك في نسج الدروع.

(٣) أخرجه مسلم، (١٩١٧).

(٤) أخرجه مسلم، (١٩١٨).

(٥) أخرجه مسلم، (١٩١٩).



يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله»<sup>(١)</sup> وعن علي رضي الله عنه، قال: ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: «ارم فداك أبي وأمي»<sup>(٢)</sup> ويذكر أن الرسول ﷺ هو أول من رمى بالمنجنيق في الإسلام، وكان ذلك في حصار الطائف.

### ج- الكيف والكم:

ويشمل: القوى البشرية، والمعدات العسكرية.

وبلا شك فإن لفظ «القوة» الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ يشملها، فالقوة تقوم بالأساس على الكم والكيف.. وقد ركز القرآن الكريم كثيراً على «الكيف» دون أن يغفل «الكم».

ومن الآيات التي تحدثت عن أهمية «الكيف» قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلِقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٣-٦٤] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ فَكَرِهْتُمْ فَلَمْ تَغْنَمْ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ \* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦] وحدد القرآن الكريم العناصر التي ينبغي للمجاهدين الأخذ بها حتى يكونوا أهلاً للنصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِبْتُمْ فِئَةً فَانْبِئُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ \* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ

(١) البخاري، (٢٩٠٤).

(٢) البخاري، (٢٩٠٥).

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧] ومن الطبيعي أن يهتم القرآن الكريم ويركز على تعبئة المؤمنين، وشحذ هممهم، وتقوية عزيمتهم، وترغيبهم في الجهاد في سبيل الله، ليصنع منهم رجالاً، أفوياء أشداء.. لكنه مع ذلك لم يتجاهل، ولم يغفل تأثير «الكم» ودوره وأهميته، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَمَ عَلَيْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الأنفال: ٦٦] وكان القرآن قد اعتبر أن بإمكان المسلم الصابر، المقبل على الآخرة أن يغلب عشرة من الكافرين.. ثم عاد القرآن الكريم ليقصص النسبة، لتكون ١-٢ بدلاً من ١-١٠، تخفيفاً على المؤمنين، ورفعاً للحرَج عنهم، وتبياناً أنهم لن يكونوا في جميع الأوقات والأحوال على ذات الدرجة من الاستعداد والقوة والجاهزية.. وفي تقديري أن النسبتين تشيران إلى الحدين، الأقصى والأدنى وحد الإباحة، وحد الوجوب، الذين إن قاتل المسلمون في أيهما أمكنهم - بإذن الله - تحقيق النصر.

كما ذكر لنا القرآن الكريم إمداد الله للمؤمنين بالملائكة، وذكر أعدادهم، فيه إشارة واضحة لأهمية «الكم» ففي سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿١٠﴾ وفي سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ \* بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٤﴾ [١٢٥-١٢٤].

#### د- الاستخبارات:

حتى تنتصر على عدوك، لا بد لك أن تعرف نقاط قوته، ونقاط ضعفه، وأوقات حذره، وأوقات غفلته، وحجم قوته، وأماكن تواجدها، وشكل توزيعها، وخططه ونواياه، وبقدر ما تعرف من أخبار، بقدر ما تحكم خطتك، وتقوي فرص نجاحك وانتصارك، وقد حدثنا القرآن الكريم عن قصة هدهد سليمان عليه السلام، وكيف أنه أنقذ نفسه من عقوبة التخلف عن «حضور الاستعراض» الذي توعد به القائد

«سليمان عليه السلام» بأن قدم معلومة هامة موثوقة ومؤكدة ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

وقد بين السياق فيما بعد كم ترتب على هذه المعلومة الهامة التي التقطها طائر من أحداث ومواقف وقرارات، انتهت بإسلام ملكة سبأ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقد كان الرسول ﷺ يقدر أهمية «العيون» فيبعث بهم لياتوه بأخبار عدوه.. ذكر ابن إسحاق عن حذيفة بن اليمان، قوله: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق. وصلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يتم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة! اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا، قال: فذهبت ودخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرُّ لهم قِدرًا ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جلسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف (يعني الخيل والجمال)، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدرٌ، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جملته وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ، إليّ «أن لا تُحدث شيئاً حتى تأتيني»، لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو قائم يُصلي في مِرْطٍ (أي كساء) لبعض نسائه، مُرَّحَلٍ (من وشي اليمن) فلما رأني أدخلني إلى رجله، وطرح

عليّ طرف المرط. ثم ركع وسجد، وإنني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر<sup>(١)</sup>.

ولما سمع الرسول ﷺ أن هوازن تتجهز لحربه، بعث إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم. فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى الرسول ﷺ فأخبره الخبر<sup>(٢)</sup>. وكان الرسول ﷺ إذا خرج لقتال لم يبلغ إلا خاصة أصحابه بوجهته حتى لا يتسرب الخبر إلى أعدائه، فيأخذوا حذرهم.

وجاء في وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص حين أنفذه لفتح العراق «وإذا وطئت أرض العدو، فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك من أمرهم شيء»<sup>(٣)</sup>. وسئل بعض أهل التمرس بالحروب: أي المكاييد فيها أحزم؟ فقال: إذكاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يستنصح ولا إسناد لم يستغش، وإشغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره<sup>(٤)</sup>.. والذي يراجع تاريخ الفتوحات الإسلامية يجد أن القادة العظام اعتمدوا بشكل كبير على المعلومات التي كانت تزودهم بها العيون في وضعهم لخططهم العسكرية. كخالد بن الوليد في حرب الردة، وحروبه مع الروم والفرس، وموسى بن نصير في حروبه مع البربر، وقتيبة بن مسلم في حصاره لسمرقند.

## ٢- القوة الاقتصادية:

بين القرآن الكريم تأثير المال الكبير على الناس وتعلقهم الشديد به، وحبهم

(١) ابن هشام، ٢/ ٢٣٣.

(٢) ابن هشام، ٢/ ٤٤٠.

(٣) الرفاعي، أنور، انظر النظم السياسية، ص ١٣٢، دار الفكر.

(٤) العقد الفريد، ١/ ١١٠.

المفرط له، فقال تعالى: ﴿وَنَجْوُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. وأكثر ما يفتن الإنسان، هو المال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] ونلاحظ تقديم الأموال على الأولاد، وذلك ليس كما يعتقد البعض من أن مال الإنسان أحب إليه من ولده، وإنما قدمت الأموال على الأولاد، لأن المال يمكن الانسان ويتيح له الحصول على كثير من المتع والملذات والشهوات، ويسهل للإنسان الوقوع في الحرام، إن لم تعصمه تقوى الله، ففتنة المال إذن أعظم من فتنة الأولاد.. وفي ذات السياق تجيء قصة صاحب الجنتين، الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فنرى أن هذا الرجل الذي وقع في الفتنة، وغره ماله وولده، قدم ما في يده من مال، على ما عنده من رجال.. ونستنبط من هذه القصة - أيضاً - أمراً لافتاً، وهو اعتبار المال وجهاً مهماً من أوجه القوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] ففي قوله ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إشارة إلى أن الجنة أو البستان، تعد «قوة».. لكن على صاحب هذه القوة «الجنة» أن يعلم أن لا قوة إلا بالله، لا قوة إلا اذا استندت واستئمت من صاحب القوة المطلقة وهو الله.

وحول تأثير المال على الإنسان يقول الرسول ﷺ «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»<sup>(١)</sup>.

وفي صدر الإسلام استخدم المال من قبل المشركين للصد عن سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقُونَهَا ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الانفال: ٣٦] واستخدم الرسول ﷺ والمسلمون المال لتأليف القلوب، حتى أن باب «المؤلفة قلوبهم» يعد أحد مصارف الزكاة الثمانية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

(١) رواه البخاري، ١٤٣٦.

والقوة العسكرية تعتمد أساساً على المال، فبالمال تشتري الأسلحة والمعدات الحربية وتصنع، وتمتلك التقنيات العالية، وبالمال تشتري المعلومات، وذمم الرجال، وحتى الرجال أنفسهم «المرتزقة» من هنا نجد أن جميع آيات الجهاد قد تقدم فيه الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، وذلك لأنه يسبق الجهاد بالنفس، ولأن الحرب تعتمد على العنصر المادي أكثر من اعتمادها على العنصر البشري.. ولم تقدم النفس على المال إلا في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلَتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] وذلك لأن سياق هذه الآية يتحدث عن البيعة مع الله.. بيع النفس والمال مقابل الجنة، فقدمت النفس على المال لأنها أغلى وأعز ما يملكه الإنسان.. وكذلك هي أغلى وأعز عند الله الذي أمر بصيانتها وحفظها<sup>(١)</sup>.

والتاريخ حافل بالحوادث التي كان للمال فيها كلمه الفصل، وحسم صراعات ومعارك ونزاعات كثيرة.. نذكر منها من تاريخنا الإسلامي، ما هو متعلق بفتنة علي ومعاوية.. فقد كان للمال دور كبير في ترجيح كفة معاوية على علي.. فعلي رضي الله عنه امتاز بإمساك يده، والشدة في محاسبته لأتباعه وعماله، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمال، وهو بذلك أراد أن ينهج نهج عمر رضي الله عنه، غير أن زمان عمر غير زمان علي.. ولم يكن لعمر من ينافسه، في الخلافة وينازعه في الأمر كما فعل معاوية بن أبي سفيان مع علي، وامتاز معاوية ببسط يده لعماله وأتباعه، سئل عبد الله بن عباس عن معاوية فقال: كان حلمه قاهراً لغضبه، وجوده غالباً على منعه يصل ولا يقطع<sup>(٢)</sup>.

ويجمع المؤرخون على أن معاوية اشترى ولاء عمرو بن العاص بجعله مصر طعمة خالصة له. فكان أن حرص عمرو بن العاص كل الحرص على أن يستقر الأمر

(١) انظر عيسى، محمود، تأملات قرآنية، ص ١٠٠، ط ١، ٢٠١٤ م.

(٢) العقد الفريد، ص ١٠٣٠.

لمعاوية، ودوره خاصة في قصة التحكيم مع أبي موسى الأشعري معروف مشهور.. في المقابل فإن علياً كان - كما أسلفنا - ممسكاً يده، شديداً في محاسبة عماله وولاته، مما جعل بعضهم ينفر منه، وينقلب عليه، كما حدث مع عبد الله بن عباس، الذي استعمله علي على البصرة، فذكر البعض أنه استحل الفيء على تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] فاستحله من باب قرابته من رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك علي، فأرسل إليه: أما بعد، فإنه قد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد اسخطت الله، وأخزيت أمانتك، وعصيت إمامك، وخنت المسلمين. بلغني أنك جردت الأرض و أكلت ما تحت يديك. فارفع إلي حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام. فكتب إليه ابن عباس: أما بعد، فإن كل الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي ضابط، وعليه حافظ، فلا تصدق علي الظن، والسلام. فكتب إليه علي: أما بعد فإنه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية. من أين أخذته؟ وما وضعت منها: أين وضعت؟ فاتق الله فيما ائتمتتك عليه، واسترعيتك إياه، فإن المتاع بما أنت رازمه قليل، وتبعاته وبيلة لا تبيد، والسلام.

فلما رأى أن علياً غير مقلع عنه، كتب إليه: أما بعد، فإنه بلغني تعظيمك علي مرزئة مال بلغك أنني رزأته أهل هذه البلاد. وأيم الله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها ومخبئها وبما على ظهرها من طلاعها ذهاباً أحب إلي من أن ألقى الله وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال بذلك الملك والإمرة. ابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعنٌ والسلام<sup>(١)</sup>.

ولا يفهم مما سبق أن علي «الأمير» التساهل مع الفساد المالي، والسكوت على الفاسدين، لكن عليه أن يراعي، أنه في الوقت الذي يستخدم «المال السياسي» ضده لتقويض حكمه، أن أمامه هو الآخر فسحة لاستخدام المال في باب «تأليف القلوب»

(١) العقد الفريد، ص ١٠٢٤ - ١٠٢٥.

وكسر حلقات التآمر، وتعزيز التحالفات.. وأن عليه أن يعالج الخلل الداخلي، وقت الأزمات الكبرى بالحكمة وبالتي هي أحسن.

### ٣- القوة العقديّة:

ليس كالإسلام دين ولا عقيدة، استطاعت أن تصنع من أتباعها رجالاً: يحرصون على الموت، حرص أعدائهم على الحياة، يبذل الواحد منهم ماله وأغلى ما يملك عن حب، ورغبة، وطيب خاطر، في سبيل الله. المودة والموالاتة عندهم لمن كان على دينهم، وإن اختلفت الأوطان، واللغات، والألوان، والأحساب والأنساب.. والمعاداة لمن عادى دين الله، وعادى المؤمنين، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم.. ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وما أجمل التشبيه القرآني للمسلمين في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْنَجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَفَارَزَهُ فَاَسْتَعَاظَ فَاَسْتَوَى عَلَى سَوْفَةٍ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيُعْظِظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ووصف الرسول ﷺ المؤمنين بالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً، وبالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تدعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في تواددهم



وترأحمهم وتعاطفهم: مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»<sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»<sup>(٢)</sup>.

وتكون العقيدة «القوة» التي يعتد بها ويحسب حسابها عندما يصبح الموت في سبيل الله أسمى أمانى أصحابها.. هكذا كانت عند عمير بن الحمام في بدر: «بخ.. بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة ألا أن يقتلني هؤلاء..؟!»

وهكذا كانت عند أنس بن النضر في أحد: «لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.. يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد..».

وهكذا كانت عند جعفر بن أبي طالب في مؤتة:

يا حبذا الجنة واقترابها      طيبة وبارداً شربها  
وعند ابن رواحة:

أقسمت يا نفس لتنزله      لتنزله أولتكرهه

وهكذا كانت عند سالم مولى أبي حذيفة في «اليمامة»: «بئس حامل القرآن أنا، إن أوتيت من قبلي».

وهكذا كانت عند كثير من المؤمنين، عرفنا بعضهم، ولا يعلم بقيتهم إلا الله، الذي وصفهم بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَبِهِمْ مَن قَضَىٰ خَبَهُ وَوَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] وجود هؤلاء الرجال في الأمة هو ما يضمن أمنها، ويردع أعداءها، ويحفظ لها هيبتها، وكرامتها.. وتكون العقيدة قوة يعتد بها ويحسب حسابها: عندما تتمكن من نفوس المسلمين فيطيعون ربهم، ويحرصون على تطبيق تعاليم دينهم، فيقيمون مجتمعاً فاضلاً، تسود فيه قيم: المودة والرحمة،

(١) البخاري، ١٠/٨، ومسلم، ٤/١٩٩٩.

(٢) البخاري، ١٢/٨، ومسلم، ٤/١٩٩٩.

والتعاطف والتعاون، والتكاتف والتكامل، والتضحية، والبذل، والعطاء، والجود والكرم، والسخاء، والإيثار والمساواة، والعدل والإنصاف، ويختفي منه كل الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة المشينة، هذا «المجتمع الفاضل» مجتمع ﴿أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ الذي تحقق على أرض الواقع مرة في التاريخ في عهد الرسول ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، ثم نقضت عراه، عروءة، عروءة، هو الذي يمثل القوة الحقيقية للعقيدة.

فالعقيدة تكون «قوة» بقدر ما تتمكن من النفوس، وتؤثر في السلوك، أما وهي مجرد سطور في كتب، وكلمات لسان، وأمانى.. فستظل الأمة غشاء كغشاء السيل.

## الجهاد في الإسلام

نقل كثير من العلماء، ومنهم الشهيد سيد قطب، ما لخصه الإمام ابن القيم حول الجهاد في الإسلام في كتابه «زاد المعاد» في الفصل الذي عقده باسم «فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل، حيث يقول:

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: «أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ \* فُرْقَانٌ﴾ [المدثر: ١-٢] فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح. ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة،

وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن «يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسما أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفاي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب»<sup>(١)</sup>.

واعتبر هؤلاء العلماء هذا التخليص بمثابة أساس، يقوم عليه فقه الجهاد في الإسلام. واستنبط بعضهم منه أن آيات سورة براءة قد نسخت كل ما سبقها من آيات الجهاد، وذهب بعضهم إلى القول بان آية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/١٤٣ - ١٤٥، ط ٢٧، ١٩٩٤ م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

أَلْحُرُّ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴿٤﴾ [التوبة: ٤]  
نسخت (١٢٤) آية!

ولا يزال الجدل قائماً، على مستوى العلماء، والعامّة، والأحزاب، والمذاهب، والفرق، والطوائف الإسلامية المختلفة، حول طبيعة الجهاد في الإسلام (دفاعي أم هجومي) وأحكامه المختلفة ولا تزال أسئلة كثيرة تطرح، وأجوبة متعددة متباينة تقدم.. ويكاد الصواب يضيع بين تحريف الغالين. وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

لكن الله قيض لدينه ثلة من العلماء المخلصين العدول الوسطيين، فبينوا للناس وأوضحوا، وأرشدوا.. غير أن صوت الحق الوسطي المعتدل هذا، يحارب اليوم، من كل الجهات والأطراف؟ من المغالين المتنتهين، الجامدين.. ومن الجهلة، المغررين، ومن علماء السوء، الذين باعوا دينهم بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.. ومن الحكام والأنظمة الذين أفقدهم الفرق من الحق صوابهم، فرأوا به خطراً محدقاً يهدد عروشهم فسخروا أموالهم وأعلامهم لحرب، علماء الوسطية والاعتدال.

وإن من المفارقات المضحكة المحزنة، أن تقوم إمارات فضائيات الرقص والغناء، والمجون والفحش والفساد، بإدراج الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين على قائمة الإرهاب! يريدون أن يطفئوا نور الحق الساطع بأموالهم وأفواههم ويأبى الله إلا أن يظهر دينه ويحق الحق ويبطل الباطل، رضي من رضي، وسخط من سخط.

وفي هذا السياق، سياق إبانة ما نعتقد أنه الحق، وأنه المنهج الصائب السليم، الذي لا يمكن أن يستقيم حال الأمة، وتستعيد مجدها، وعزتها ومكانتها بغيره، نقدم بين يدي باب الجهاد في الإسلام، هذه الملاحظات والتوضيحات:

١- المرحلة والتدرج سمة بارزة من سمات الدعوة الإسلامية، وإن دلت فإنما تدل على واقعية الإسلام، ومراعاته وأخذه بالاعتبار أحوال الناس وأوضاع المجتمع

عند سن الأحكام الشرعية.. ورغم أن الدين قد اكتمل، وانتشرت دعوة الإسلام وبلغت مشارق الأرض ومغاربها، إلا أن الاستلهام من درس التدرج والمرحلية لا زال قائماً، وأضرب على ذلك أمثلة:

• في مجال الدعوة إلى الله: هب أن داعية مسلماً نزل بين ظهري قوم في أقاصي الأرض يعبدون الحجر أو الشجر أو البشر.. ولا يكادون يفقهون حديثاً فأيهما أفضل؟ أن يقوم الداعية المسلم ويصدع بينهم بدعوة الإسلام، ويواجههم أن دينهم باطل وأن عليهم إتباع الإسلام، أم يتقي من بينهم من يلتمس عنده شيئاً من العقل والحكمة فيتودد إليه ويتقرب منه ثم يسر إليه بدعوة الإسلام. فإن أسلم كان عوناً له في تأليف قلوب قوم آخرين؟

لا شك أن الرأي الثاني هو أكثر حكمة، وأصوب طريقة، وأسلم، وأجدى وأنفع.

• ومثال آخر في مسألة الخمر: في مجتمعاتنا العربية يسهل حظر شرب الخمر وبيعها وشرائها على المسلمين، إذا ما عازمت حكومة على ذلك، ولا يحتاج الأمر للتدرج.. لكن ذلك لا ينطبق على بلد مثل تركيا، والذي تعتبر نسبة المدمنين على شرب الخمر فيه مرتفعة جداً.. فإن جاءت الحكومة وهي ذات خلفية إسلامية لتحظر شرب الخمر والمتاجرة بها، فإن ذلك يعني ثورة الناس عليها، وإسقاطها، فتكون بالتالي: لا خمرًا حظرت ولا حكومة أبقته.. أما إن انتهجت أسلوب التدرج، نجحت في الحد من هذه الظاهرة، وتقليلها بشكل ملموس، فأيهما أولى؟ وقد اتخذت الحكومة التركية خطوات عملية في هذه الاتجاه، تمثلت، بحظر بيعها للذين هم دون سن الـ ١٨ ووضع عقبات أمام استيرادها.. وقد حدثت احتجاجات واسعة على هذه القرارات، لكن الحكومة استطاعت استيعابها، واحتمالها، لأنها تعاملت مع القضية بحكمة وتدرج.

• ومثال ثالث حول الجهاد في سبيل الله: المسلمون اليوم رغم كثرة عددهم، إلا أنهم غثاء كغثاء السيل، متفرون، مختلفون، متصارعون.. وأي قوه كبرى «أميركا، روسيا، الصين، أوروبا، وحتى إسرائيل» تستطيع بسهولة لما تملكه من وسائل قتالية متطورة الانتصار عليهم جميعاً، بل وحتى إبادتهم. فهل من الحكمة أن تخرج فئة من المسلمين لتعلن أنها ستحارب العالم أجمع، وستفرض عليه: إما الإسلام وإمّا الذبح! هل دول العالم حمقى حتى تتركهم ليلبغوا غايتهم - المعلنه - ويحققوا هدفهم المنشود؟!!

بلا شك أن نهاية هذه الفئة ستكون مفجعة.. وسيكون مآلهم كالمئبب الذي لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع!

٢- الناظر إلى سياسة الرسول ﷺ وسياسة صحابته من بعده في الحرب والسلم، يرى أنهم لم يحجروا واسعاً، ولم يتعاملوا مع الحوادث من خلال نصوص جامدة، لا تغيير ولا تبديل فيها، وإنما تعاطوا مع الواقع والأحداث بما تتطلبه، وبما تستدعيه، وبما يحقق مصلحة المسلمين، ويخدم دعوة الله.. من هنا فإنني أرى - خلاف ما يعتقد بعض - أن باب الجهاد في الإسلام، من أكثر الأبواب مرونة ورحابة، وفيه سعه، وفسحة، وأولوا العلم والأمر، هم من يحدد في كل حالة ما يناسبها من قرارات، موازين بين النصوص الشرعية ومصالح الأمة.. لقد صبر الرسول ﷺ على أذى المشركين سنين طويلة دون أن يقاتل، لأن مصلحة المسلمين اقتضت ذلك، فلو حمل المسلمون في بداية الدعوة السلاح في وجه قريش، وهم قلة مستضعفون، لفتك المشركون بهم ولاستأصلوا شأفتهم.. فلما حدثت الهجرة، وأقام المسلمون نواة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وكان قد أذن لهم بالقتال، قاتلوا من قاتلهم دون من لم يقاتلهم.. ولو أن المسلمين في هذه المرحلة فتحوا حرباً متشعبة، وجبهات متعددة مع كل كافر ومشرك، مع قريش.. ويهود المدينة، ومشركي القبائل العربية والروم والفرس.. لتداعوا جميعهم

على المسلمين كما تدعى الأكلة الى قصعتها، ولقضوا عليهم قضاءً مبرماً.

وبعد أن قويت شوكة المسلمين، واتسعت حاضرة دولة الإسلام، وأصبح الجهاد مفروضاً عليهم، نجد أن قتال الرسول ﷺ لم يكن عبثياً، فقد عرف جيداً متى يقاتل، ومن يقاتل، وأين يقاتل، ولماذا يقاتل.. فقاتل أقواماً، وسالم أقواماً، وتحالف مع أقوام.. وبيان ذلك من سيرته ﷺ:

• لما قدم الرسول ﷺ المدينة المنورة عقد - مباشرة - «وثيقة تفاهمات» مع يهود، قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيها لليهود، وعاهدهم، وأفرهم على أموالهم وشرط لهم واشترط عليهم<sup>(١)</sup>. وهذه الوثيقة، التي سبق وأشرنا إليها، تبين لنا المدى الواسع المتاح أمام المسلمين ليقوموا علاقات طبيعية، وتعاون وتفاهم مع غيرهم من الأقوام والأمم، وأصحاب الديانات الأخرى. ولولا أن يهود نقضوا بنود هذه الوثيقة، لما قاتلهم الرسول ﷺ ولما أجلاهم عن المدينة.

• ودرس من غزوه الخندق، يؤكد ما ذكرناه سالفاً من أن الإسلام يتيح للمسلمين حيزاً رحباً من الحركة والمناورة في علاقات الحرب والسلام ولا يكبلهم بنصوص جامدة ولا يضعهم أمام خيار واحد ليس أمامهم إلا الأخذ به.

يذكر ابن هشام في سيرته، أنه: «لما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول الله ﷺ، كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، ومن لا أتهم، عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا

(١) ابن هشام، ٥٠١ / ١.

عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما؛ فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى (ضيافة) أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ قال رسول الله ﷺ فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا<sup>(١)</sup>.

• نموذج الحبشة: لما اشتد على المسلمين في مكة ما يلاقونه من قومهم من أذى وفتنة. قال لهم رسول الله ﷺ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»<sup>(٢)</sup>.

فهاجر عدد من المسلمين إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم.. وقد أحسن النجاشي إليهم، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه..»<sup>(٣)</sup>.

فكيف قابل المسلمون هذا الموقف النبيل من أهل الحبشة؟ روى أبو داود والنسائي والبيهقي والحاكم عن عبد الله بن عمر، قال رسول الله ﷺ: «دعوا الحبشة ما وادعوكم واتركوا الترك ما تركوكم».

(١) ابن هشام، ٢/ ٢٢٣.

(٢) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية، ٣/ ٦٦، دار الفجر للتراث.

(٣) انظر الحديث في ابن هشام، ١/ ٣٣٤.



فهذا الموقف من رسول الله ﷺ يؤكد أن الإسلام يفرق بين من يعادي المسلمين ويناصبهم العدا، وبين من يسالمهم ويوادعهم، ويسعى لإقامة علاقات طيبة معهم، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

• ذكر الرازي: «أن النبي ﷺ وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عامر السلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن كل من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله جواره<sup>(١)</sup>.

٣- حتى نفهم جيداً سياسة الرسول ﷺ الحربية، مع خصومه ينبغي تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

#### أ- سياسته ﷺ مع مشركي قريش:

سعى مشركو قريش منذ فجر الدعوة الإسلامية للقضاء عليها في مهدها، بكل وسيلة ممكنة، وأعلنوا حرباً شعواء على رسول الله ﷺ وعلى من تبعه من المسلمين وأذوهم وفتنوهم في دينهم.. فصبر الرسول ﷺ وصحابته على الأذى ثلاثة عشر عاماً.. ثم كتب عليهم القتال بعد أن أمنوا في المدينة وكانت لهم قوة وشوكة.. وكانت معركة بدر أول معركة بين المسلمين والمشركين، وعزز النصر المؤزر للمسلمين فيها حالة العدا بين الطرفين، فاستمرت المعارك بينهما إلى أن حسم الصراع نهائياً بفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة. وبالتالي فإن سياسة الرسول ﷺ مع قريش مرت بثلاث مراحل: الصبر على الأذى وتجنب المواجهة، ثم المواجهة المسلحة والرد على العدوان، ثم حسم الصراع بشكل نهائي.

#### ب- سياسته ﷺ مع القبائل العربية:

حرص الرسول ﷺ على أن تصل دعوة الإسلام إلى كل القبائل العربية، حتى

(١) الزحيلي، آثار الحرب، ص ٢٠٦.

أنه ذهب بنفسه إلى الطائف وعرض الإسلام على أهلها.. وكان ﷺ يحرص على الالتقاء بوفود هذه القبائل في مواسم الحج المختلفة، ويدعوهم إلى الإسلام، قال ابن إسحاق: «فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى له ودعا إلى الله تعالى، وعرض عليه ما عنده»<sup>(١)</sup>.

وبعد الهجرة، كانت سياسته ﷺ مع هذه القبائل، أن يسالم من أراد المسالمة والموادعة، ويحارب من أراد حربه وسعى لها.. وأن يستمر في دعوته إلى الله. وبقي هذا دأبه ﷺ مع هذه القبائل: يسالم، ويحارب ويدعو، حتى فتح مكة.. وبعد فتح مكة وقعت غزوة حنين بمبادرة من هوازن وثقيف وانتصر المسلمون فيها نصراً عظيماً، ثم سار الرسول ﷺ إلى الطائف وحاصرها، ورماهم بالمنجنيق.. وبعد كسر شوكة هوازن وثقيف، ودخول الناس في دين الله أفواجا، جماعات وأفراداً.. أصبحت الفرصة مواتية للمسلمين لسيطرت نفوذهم وإحكام سلطانهم على كامل جزيرة العرب.. من هنا فإن آيات مطلع سورة براءة، التي أعلنت نبذ عهود المشركين، وأعلنت حرباً مفتوحة عليهم، إنما نزلت في مشركي الجزيرة العربية، وذلك باتجاه حسم المعركة، وإنهاء آثار الشرك والجاهلية.. وكان أن خضعت هذه القلة القليلة المتبقية على الشرك لسلطان الدولة الإسلامية. وأعلنت إسلامها، دون قتال.

لقد كان الهدف من هذه السياسة «إخلاء جزيرة العرب من (الشرك المحارب) المتجبر في الأرض، وخلع أنيابه المفترسة، واعتبار الجزيرة وطناً حراً خالصاً للإسلام وأهله، وبهذا يكون للإسلام معقله الخاص، وحماءه الذي لا يشاركه فيه أحد. والله حكمة في ذلك: أن يكون الحجاز وما حوله من أرض الجزيرة هو الملاذ والمحصن لهذا

(١) ابن هشام، ١/ ٤٢٥.

الدين، الذي يبرز<sup>(١)</sup> إليه الإسلام كلما نزلت المحن والشدائد بأطرافه المختلفة. وهذا ما أثبت لنا التاريخ جدواه وأهميته خلال العصور والأزمات التي مر بها تاريخ الأمة<sup>(٢)</sup>.

### ج - سياسته ﷺ مع أهل الكتاب والمجوس:

• مع يهود: رغم أن يهود أظهر واعداءهم مبكرًا للرسول ﷺ وللإسلام، وحرصوا قريشاً عليه وهو في مكة.. إلا أن الرسول ﷺ تجاوز لهم عن ذلك، لما دخل المدينة المنورة، وعقد معهم «وثيقة التفاهات» لكن يهود لم يستقيموا على عهدهم مع رسول ﷺ فكان رد المسلمين عليهم حازماً حاسماً، فمنهم من أجلي عن المدينة ومنهم من قتل.

أما يهود خيبر: فقد بلغ رسول ﷺ نبأ تأمرهم مع غطفان ومن حولهم من الأعراب لتشكيل تحالف ضد المسلمين، فجهز الرسول ﷺ جيشاً وسار إليهم في السنة السابعة للهجرة، وفتح خيبر، وعرض يهود على الرسول ﷺ أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض، فقبل ذلك منهم، قائلاً: إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من إنتاجها حتى خلافة عمر بن الخطاب، حيث أخرجهم منها لقتلهم رجلاً من الأنصار.

• مع الفرس والروم: بعث الرسول ﷺ إلى كل من أمكن مراسلته من ملوك وأمراء الفرس والروم رسلاً يحملون كتبه ﷺ التي يدعوهم وقومهم فيها إلى الإسلام، فأخذتهم العزة بالإثم ورفضوا الإسلام، وقتل شرحبيل بن عمرو الغساني رسول الله الحارث بن عمير الأزدي. فكانت غزوة مؤتة رداً على ذلك.. أما تبوك فقد وقعت في السنة التاسعة للهجرة، بعد أن بلغ الرسول ﷺ أن الروم، وقبائل لخم

(١) يبرز: يلجأ

(٢) القرصاوي، يوسف، فقه الجهاد، ١/ ٢٤٢، مكتبة وهبة.

وجذام وغيرهم يجمعون له. ولم يلق الرسول ﷺ قتالاً. فأقام بتبوك أياماً وصالحه أهلها على الجزية.

• مع أقباط مصر: كتب الرسول ﷺ رسالة إلى المقوقس عظيم القبط، يدعوها فيها إلى الإسلام، ورغم أنه لم يسلم إلا أنه رد على رسالة الرسول ﷺ رداً جميلاً، وأهداه جاريتين وبغلة. وقبل الرسول ﷺ هدية المقوقس.. ولم يحدث أي قتال بين المسلمين والأقباط في عهد الرسول ﷺ، وجاء في وصية عمر بن الخطاب لعمر بن العاص -والي مصر- وقد أوصى رسول الله ﷺ بالأقباط، فقال: «استوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً» (ورحمهم أن أم اسماعيل منهم)<sup>(١)</sup> فماذا يقول الذين ذبحوا الأقباط المسالمين في ليبيا لله ولرسوله يوم القيامة!؟

• مع الحبشة: امتازت علاقة المسلمين بالحبشة في عهد الرسول ﷺ بالود والاحترام المتبادل، وذكر المؤرخون أن وفداً من نصارى الحبشة، جاء الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم.. وذكر أن الرسول ﷺ أوصى أصحابه بقوله «دعوا الحبشة ما وادعوكم..» الحديث.

• نصارى نجران: ذكر البلاذري في «فتوح البلدان» أن الرسول ﷺ صالح أهل نجران على خراج يدفعونه له.. وجعل لهم ذمة الله وعهده، وأن لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا، واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا، ولا يتعاملوا به<sup>(٢)</sup>.

مما سبق يتبين لنا أن سياسة الرسول ﷺ مع مشركي قريش تختلف عن سياسته مع مشركي العرب، وأن سياسته مع مشركي العرب تختلف عن سياسته التي انتهجها مع أهل الكتاب.. لأن واقع كل فئة، ودرجة عدائها للإسلام.. والخطورة التي تمثلها

(١) انظر: الرافي، مصطفى صادق، الإسلام نظام إنساني، ص ١٤٣، ط ١، ١٩٨٩م، دار مكتبة الحياة - بيروت.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، ص ٤٥، طبعة ١٩٨٨م، دار ومكتبة الهلال - بيروت.

على الإسلام متفاوتة ومتباينة، فاقضى بالتالي أن تكون السياسة المنتهجة متباينة.

٤- الفهم المغلوط لبعض الآيات والأحاديث وسلخها عن المناسبات التي أنزلت فيها، من قبل بعض المغالين والجاهلين، أوقعهم وأوقع الأمة بأكملها في متاهات وإشكالات كثيرة.

وسنعرض هنا بعضاً من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة التي أشكل على البعض فهم المراد منها وحملوها على غير وجهها الصحيح:

• قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ \* فَيَسُحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَّمُوا أَكْثَرَ نَجْمٍ مِّنْ مَّجْزَى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿ [براءة: ١- ٢] ظن البعض أن هذه الآية تعني إلغاء كل العهود والمواثيق التي كانت معقودة مع الكافرين، بعد مدة الأربعة أشهر التي أمهلهم إياها القرآن الكريم.

ونقول أن هذه الآية خاصة وليست عامة، فالمقصود بـ «الذين عاهدتم من المشركين» هم مشركو العرب، دون غيرهم.. والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ لم يبلغ اتفاقه مع «يهود خيبر» واستمر العمل بهذه المعاهدة حتى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. وكذلك الأمر بالنسبة لنصارى نجران، فقد استمر الصلح معهم حتى عهد عمر فقد أجلهم لما علم أنهم خالفوا شرط الرسول ﷺ عندما وقعوا في الربا.

• آية السيف ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [براءة: ٥] اعتبر بعض العلماء أن هذه الآية نسخت نحو (١٢٤ آية) واختلف مع هذا الرأي، واتفق مع قول علمائنا الأجلاء الذين يقولون أن آياً من آيات الجهاد لم تنسخ، وأن لكل آية مناسبتها الخاصة بها.. وهذه الآية خاصة بمشركي العرب، الذين سبق وتحدثنا عن خصوصية حالتهم.. والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ وصحابته من

بعده لم يقتلوا كل كافر، عرض لهم. إن رفض الإيمان.. ونذكر مثلاً على ذلك حالة بلاد النوبة: حين حاصر المسلمون في عهد عمرو بن العاص نوبة مصر، فلقوا قتالاً شديداً، ولم يتمكنوا من فتحها لمهارة سكانها في الرمي، حتى سموا «رماة الحدق» فلم يزلوا على ذلك حتى ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح فسأله الصلح والموادعة فأجابهم الى ذلك على غير جزية لكن على هدنة ثلاثمئة رأس في كل سنة وعلى أن يهدي المسلمون إليهم طعاماً بقدر ذلك. وأمضى ذلك الصلح عثمان بن عفان ومن بعده من الولاة والأمراء وأقره عمر بن عبد العزيز نظراً منهم للمسلمين وإبقاءً عليهم.. واستمرت المعاهدة أكثر من ستمئة سنة حتى الحكم الفاطمي في مصر<sup>(١)</sup>.

• قول الرسول ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»<sup>(٢)</sup>.

فالمقصود بكلمة «الناس» في هذا الحديث: مشركو العرب لأنهم اجتمعوا على الرسول ﷺ لقتاله.. فكلمة «الناس» وإن أفادت العموم لوجود ال الجنسية فإنها مخصصة بآية الجزية.. وهذا مألوف في العربية، قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أريد بالناس الأولى: نعيم بن مسعود والثانية أبو سفيان<sup>(٣)</sup>.

• قول الرسول ﷺ «يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح» هذا الحديث ذكره ابن هشام في سيرته في باب «ذكر ما لقي الرسول ﷺ من قومه».

حيث يذكر ابن هشام، أن ابن إسحاق قال: «فحدثني يحيى بن عروة بن الزبير،

(١) آثار الحرب، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) (رواه البخاري، ٢٥ ومسلم، ٢١).

(٣) آثار الحرب، ص ١٢١ - ١٢٢.

عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم، وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا: بيننا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.

قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع<sup>(١)</sup> وإن تعجب فعجب فعل بعض المتنطعين الذين اقتطعوا جزءاً من هذا الحديث «جئتكم بالذبح» وجعلوه شعاراً لهم، يرددونه ويتغنون به في كل مناسبة، مصورين لأنفسهم وللناس أن الإسلام، إنما جاء «بالذبح» لكل من يخالفه!

والحقيقة أن رسول الله ﷺ جاء رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الانباء: ١٠٧] وقول الرسول ﷺ الذي أوردناه آنفاً، إنما جاء رداً على غمز وسخرية مجموعة من المشركين، وإيذائهم أشد الإيذاء، لشخص الرسول ﷺ، وبالتالي فهم الذين بدأوا بالإساءة والعدوان.. والذبح المقصود هنا، هو ما كان من مقتلة في رؤوس الكفر من مشركي قريش يوم بدر أما الذي يقول أن الرسول ﷺ قصد «الذبح» لكل من خالفه من قريش، فهذا عين الحمق، وهو لا يفقه من دين الله شيئاً.. وعفوه ﷺ يوم الفتح عن أهل مكة أكبر شاهد على صحة ما نقول.

قال ابن إسحاق: زعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال: اليوم يوم

الملحمة، اليوم تستحل الحرمة فسمعها رجل من المهاجرين قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب، فقال يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عباد، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال لعلي بن أبي طالب «أدركه، فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها»<sup>(١)</sup>.

٥- امتاز الإسلام بمراعاته لأخلاق الحرب، في وقت لم يكن فيه أحد غير المسلمين يلتزم بتلك الأخلاق.. فكان الرسول ﷺ يوصي أمراء الجيوش والسرايا بما ينبغي عليهم التقيد به، عن بريدة رضي الله عنه، قال: كان رسول ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزُوا، وَلَا تَغْدُرُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقَيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَحَدِ ثَلَاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلَالٍ)، فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكَفَّ» الحديث<sup>(٢)</sup>.

وسار أبو بكر رضي الله عنه على نهج الرسول ﷺ فمما أوصى به جيش أسامة بن زيد: «يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع؛ فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»<sup>(٣)</sup>.

وقد امتدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص في فتحه مصر، وقال «تعجبني حرب ابن العاص، إنها حرب رفيقة سهلة»<sup>(٤)</sup>.

وفي معركة أحد قامت هند بنت عتبة بالتمثيل في جثة حمزة رضي الله عنه،

(١) ابن هشام، ٢/٤٠٦-٤٠٧.

(٢) رواه مسلم، (١٧٣١).

(٣) الرفاعي، أنور، النظم الإسلامية، ص ١٣١، ط ١، ١٩٧٣ م، دار الفكر المعاصر.

(٤) الإسلام نظام إنساني، ص ١٨٨.



فقال الرسول ﷺ والله لئن اظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب، وفي رواية «لأمثلن بسبعين من مكانك» قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۗ \* وَأَصْبِرْ ۗ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧] فعفا رسول الله ﷺ وصبر، ونهى عن المثلة<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن إسحاق: أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنية سهيل بن عمر واقطع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً»<sup>(٢)</sup>.

وروى مسلم عن شداد بن أوس، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة». يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «وإذا أسر المسلمون المشركين فأرادوا قتلهم، قتلوهم بضرب الأعناق، ولم يجاوزوا ذلك إلى أن يمثلوا بقطع يد، ولا رجل ولا عضو ولا مفصل، ولا بقر بطن، ولا تحريق ولا تغريق، ولا شيء يعد مثلة. وما وصفت لأن رسول الله ﷺ نهى عن المثلة وقتل من قتل كما وصفت»<sup>(٣)</sup>.

ومن سماحة الإسلام وتميزه، أنه يفرض احترام عهد الأمان الذي يعطيه أي مسلم لأي كافر، بخلاف دول العالم الأخرى التي لا تقر أماناً إلا إذا صدر عن الحكومة الرسمية.

فقد روي عن رسول ﷺ، قوله: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمرو، تفسير الكشاف، ٢/ ٢٢٢، دار الحديث - القاهرة.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٣١٠.

(٣) الشافعي، محمد بن إدريس، الأم، ٤/ ٢٥٩، طبعة ١٩٩٠م، دار المعرفة - بيروت.

أخضر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»<sup>(١)</sup>.

وقد أنفذ الرسول ﷺ أمان أم هانئ لرجل أو رجلين من المشركين يوم فتح مكة، حيث قال لهم رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

كما أجاز الرسول ﷺ أمان ابنته زينب لزوجها أبي العاص بن الربيع الذي كان قادماً بتجارة إلى مكة فأصابها إحدى سرايا المسلمين.

هذه هي أخلاق المسلمين مع أعدائهم، وهذا ما ينبغي أن يتحلى ويتميز به المجاهدون اليوم.. أما قاطعوا الرؤوس، ومنتهكو الحرمات، وهاتكوا الأعراس، وناهبوا الأموال، ومروعو الآمنين... فليسوا من الإسلام في شيء، إنهم من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لكن الالتزام بأخلاق الحرب لا يعني بحال الخنوع، والخضوع، والذلة للعدو، وإنما ينبغي الموازنة، الشدة في مكانها والرحمة في مكانها، كما ورد عن النبي ﷺ قوله: «أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة» الشدة والغلظة في المعارك وسوح القتال على أعداء الوطن والدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وليست الشدة على الضعفاء، ولا على البسطاء، ولا على «الأسرى»، ولا على أصحاب الذمة والعهد، ولا على المسلمين الذين ينطقون بالشهادة، ويقىمون أركان الدين.. ومع ذلك يُقتلون «شبهة» ودون ذنب اقترفوه!

ليت هؤلاء يعتبروا بقول الرسول ﷺ، فيما يرويه عنه ابن عمر رضي الله عنهما: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دماً حراماً»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري، (٧٣٠٠) ومسلم، (١٣٧٠).

(٢) (البخاري ٦٨٦٢).

لقد كان لهؤلاء - لو كانوا يفقهون - عبرة في يوم الحديبية، يوم أن كف الله أيدي المؤمنين عن الكافرين، بعد أن أظفرهم عليهم.. لوجود عدد من المسلمين - يخفون إسلامهم - بين المشركين، ولا يعلمهم المسلمون، فحتى لا يقع بهؤلاء أذى - غير مقصود - من المسلمين.. فيلحق بالمسلمين عار، وعيب، وسبة، نتيجة لذلك.. ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعْدَ عَمَلِكُمْ لِئَلَّا يَدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة الفتح: ٢٥].

قال السيوطي - بسند جيد - عن أبي جمعة جنيد بن سبيع قال: «وفينا نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ وكنا تسعة نفر؛ سبعة رجال وامرأتان»<sup>(١)</sup>.

فأي عار، وأي سبة ألحق هؤلاء التكفيريون، بأنفسهم وبالمسلمين، باستباحتهم الدم الحرام، وقتلهم آلاف الأبرياء من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سيلا؟!!

لقد ذهب الإمام مالك والأوزاعي إلى تحريم قتل النساء والصبيان بحال من الأحوال «حتى لو تترس أهل الحرب بالنساء والصبيان أو تحصنوا بحصن أو سفينة وجعلوا معهم النساء والصبيان لم يجز رميهم ولا تحريقهم»<sup>(٢)</sup>.

وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح فإذا سمع أذاناً أمسك وإذا لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح»<sup>(٣)</sup> وعن عاصم المزني قال: كان النبي ﷺ إذا بعث السرية يقول: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً»<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح القدير، ٦٧/٥.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار، ٧/٧٣، مكتبة دار التراث - القاهرة.

(٣) رواه البخاري، ٢٩٤٣.

(٤) السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: الأرئوط، ط ١، ١٤٣٠هـ، دار =

لكن رغم الإساءة ورغم التشويه الذي ألحقه هؤلاء بمفهوم «الجهاد في الإسلام» يظل ذروة سنام الإسلام، وتظل الجنة تحت ظلال السيوف، ويظل المجاهدون في سبيل الله هم خيار الناس، ويظل رباط ليلة في سبيل الله يعادل ألف ليلة صيامها وقيامها.. وتظل الغدوة أو الروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها.. إنه لا عزة ولا كرامة، ولا هيبة ولا مكانة، بل لا حياة للمسلمين إلا بالجهاد.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

## نظام الحكم في الإسلام

لما قامت أول دولة للمسلمين في المدينة المنورة، اعتبر الرسول ﷺ، بصورة تلقائية، قائد وزعيم هذه الدولة، وجمع ﷺ مع إمامته الدينية للمسلمين إمامته الدنيوية لهم، فهو الذي كان يقودهم في الحروب، ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه.. ويدبر كافة شؤون حياتهم.. ولأن الإسلام يمتاز بكونه ديناً شاملاً ينظم للناس شؤونهم الدينية والدنيوية، لم يجد المسلمون حرجاً في اندماج وتداخل الشأين الدين والدنيوي، وأن يجمع قائدهم وإمامهم ونبههم محمد ﷺ بين السلطتين والإمامتين.. ووجد المسلمون في ذلك السعادة والراحة والخير كله.. عكس اليهود الذين سعوا دائماً لفصل الدين عن الدولة. ليبقى الدين عندهم شعائر وطقوس شكلية لا روح فيها، ولا تأثير لها، على سلوك الأفراد.

وليفعلوا- بالتالي- في دنياهم ما يحلو لهم، دون وازع أو رادع، أو حسيب أو رقيب.. ونستنبط هذا التوجه القديم عند يهود، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا لَئِمَّا أُنْعَمَ عَلَيْنَا لَنُنْفِثَنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. فهم

لم يطلبوا من نبيهم أن يقودهم للقتال، بل أرادوا أن يقتصر دور النبي على الشأن الديني، فيما يتولى المَلِكُ شأن الدنيا والحرب والقتال.. وواضح من ردهم ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾.. أنهم قد وضعوا في أذهانهم صفات هذه الملك مسبقاً.

وبعد وفاة الرسول ﷺ أجمع المسلمون على اختيار أبي بكر الصديق ليخلف الرسول ﷺ في إمامة المسلمين وقيادتهم، وكانت القاعدة التي بنوا عليها هذا الاختيار تقديم الرسول ﷺ له ليؤم الناس في الصلاة فترة مرضه ﷺ.. فقالوا: ارتضاه الرسول ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدينانا؟!!

ورغم أنه لا توجد في الكتاب ولا في السنة نصوص تحدد وتفصل شكل نظام الحكم في الإسلام، إلا أن الإسلام وضع قواعد ومبادئ عامة يقوم عليها نظام الحكم الإسلامي، يمكن إجمالها في العناوين التالية:

## ١- الحاكمية لله:

وتعني أن التشريعات ينبغي أن تؤخذ وتستمد من مبادئ ونصوص الشريعة الإسلامية، وأن الله وحده هو المشرع.. و«أن الحكم لا يكون الا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته. اذ الحاكمية من خصائص الألوهية، سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة أو حزب أو هيئة أو أمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية»<sup>(١)</sup>.

وقد ركزت كثير من الآيات في القرآن الكريم على هذا المبدأ «الحاكمية لله» باعتباره أصلاً من أصول الإيمان، لا يستقيم ولا يكتمل إيمان امرئ إلا بإقراره بأن الحكم لله، ورضاه الاحتكام لأمر الله ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ١٩٩٠.

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿الْحُكْمَ الْجَهْلِيَّةَ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿ [المائدة: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿ [المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿ [المائدة: ٤٧] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [المائدة: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿ [المائدة: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتُونَكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. ﴿ [المائدة: ٤٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [يوسف: ٤٠].

كل هذه الآيات القرآنية تبين بشكل واضح قاطع لا لبس فيه أن المسلمين ملزمون بتطبيق الأحكام والقواعد التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله، وينبغي أن نوضح هنا أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي الأول للتشريع في الإسلام، وآياته كلها قطعية الثبوت.

تليه السنة النبوية كمصدر ثانٍ للتشريع، ومنها ما هو قطعي الثبوت ومنها ما هو ظني.. أما من جهة الدلالة فإن من نصوص الكتاب والسنة ما هو قطعي الدلالة، ومنها ما هو ظني.. وينبغي على المجتهد مراعاة مناسبة النص، وأسلوبه والصيغة التي ورد فيها: العموم أو الخصوص، المطلق أو المقيد، المجمل أو المفصل، وهذه الأمور وغيرها مفصلة في كتب أصول الفقه، وعلوم القرآن.. وننصح بالرجوع إليها، والتعرف عليها ودراستها جيداً. وللتشريع مصادر أخرى مستمدة جميعها من الكتاب والسنة.. ويوجد شبه إجماع عند فقهاء وعلماء الإسلام المعبرين، على حجية معظم هذه المصادر وهي: الإجماع، القياس، الاستحسان، الاستصحاب، مذهب الصحابي، شرع من قبلنا، العرف والمصلحة

المرسلة.. وهذه المصادر وضعها علماء الأصول لتسهيل وتضبط اجتهاد الفقهاء واستنباطهم للأحكام الشرعية. ولا بد لدارس السياسة الشرعية من دراسة معمقة لأصول الفقه، ومقاصد الشريعة الإسلامية.. وتعتبر موافقات الإمام الشاطبي من أبرز ما كتب في مقاصد الشريعة.. ولا تزال الحاجة ماسة اليوم، والواجب يقتضي من العلماء المعاصرين أن يقدموا شيئاً مميزاً في هذا العلم، يواكب العصر ويحفظ روح ومقاصد الشريعة.. وللشيخ الطاهر بن عاشور كتاب قيم في مقاصد الشريعة الإسلامية.. وإن اختلفنا معه في بعض المسائل.

## ٢- الإمامة الكبرى:

لقب «الإمام» مرتبط في الأساس بالإمامة في الصلاة، ويقال لهذه الإمامة «الإمامة الصغرى» أما الإمامة الكبرى فمقصود بها الخلافة.. وخصت الشيعة علياً بلقب «الإمام» لما يعتقدونه من أن علياً أحق بالخلافة والصلاة في الناس من أبي بكر رضي الله عنهما، ويعتقد الشيعة أن الإمامة أخص من الخلافة، فهم يعرفون الإمام على أنه صاحب الحق الشرعي بالخلافة سواء نال هذا الحق أو لم ينله، أما الخليفة فهو الحاكم والسلطان الفعلي، سواء كان صاحب حق لهذا المركز أو لا.

وعرف الماوردي الإمامة بقوله: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»<sup>(١)</sup>.

فالإمام إذن، هو: من يقوم في الناس مقام النبي ﷺ في أمر حراسة الدين، وسياسة الدنيا، وبالتالي فإن الإمام أو الخليفة في الإسلام يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية.. ولقب «الخليفة» هو اجتهادي أطلقه الصحابة رضوان الله عليهم على أبي بكر الصديق، الذي خلف الرسول ﷺ في قيادة وإمامة المسلمين.. فلما توفي أبو بكر وتولى الخلافة عمر بن الخطاب لقب في بداية الأمر بخليفة خليفة رسول الله، ثم أمر عمر باستبدال هذا

(١) الاحكام السلطانية، ص ٣.

اللقب. لتكرير لفظ الخليفة فيه، ومنعاً لزيادة التكرار في المستقبل. فاستُبدل بلقب «أمير المؤمنين». ونخلص إلى القول أن لقب: الخليفة أو الإمام أو أمير المؤمنين هو لقب اجتهادي اصطلاح المسلمون قديماً عليه، فيمكن إبقاءه أو استبداله.

### شروط الإمامة الكبرى:

وضع ابن خلدون في مقدمته خمسة شروط لهذا المنصب، أربعة متفق عليها، وهي: العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل. والشروط الخمس وهو النسب القرشي، مختلف فيه.

وسنعرض فيما يأتي شرح ابن خلدون لكل شرط من هذه الشروط، مع تعليقنا عليه:

١- العلم: يقول ابن خلدون: «فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً» بها، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها، ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً، لأن التقليد نقص، والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال»<sup>(١)</sup>.

وواضح أن ابن خلدون يقصد بالعلم هنا: العلم الشرعي. ولما كان الإمام مكلفاً بحراسة الدين، وسياسة الدنيا معاً، لزم أن يحوز من علوم السياسة والإدارة - أيضاً - ما يمكنه من القيام بمهمته بكفاءة واقتدار.. وفي هذا العصر أصبحت علوم «إدارة الدولة» ضرورة، يصعب على الحاكم النجاح في عمله دون أن يكون متمكناً منها.. أما العلوم الشرعية، فلا أرى ضرورة - في هذا العصر - لاشتراط «أن يكون الحاكم مجتهداً» فيكون صاحب علم وثقافة شرعية واسعة، على أن يكون من مستشاريه ومعاونيه، مجتهد أو أكثر.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٥.



٢- العدالة: يقول ابن خلدون: «وأما العدالة، فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه، ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها، وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف»<sup>(١)</sup>. المقصود بالعدالة في رأي ابن خلدون: الاستقامة في السلوك، وسلامة الاعتقاد. وعرف بعضهم العدالة بأنها: صفاء السريرة، واستقامة السيرة.. وعرفها الأمام الماوردي بقوله: أن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة عفيفاً عن المحارم متوقياً المآثم بعيداً عن الريب، مأموناً في الرضا والغضب مستعملاً لمروءة مثله في دينه ودينه، فاذا تكاملت فيه فهي العدالة التي تجوز بها شهادته وتصح معها ولايته. فإن انخرم منها وصف منع من الشهادة والولاية فلم يسمع له قول ولم ينفذ له حكم<sup>(٢)</sup>.

٣- الكفاية: يقول ابن خلدون: «وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود، واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها، عارفاً بالعصية، وأحوال الدهاء، قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح»<sup>(٣)</sup> فالكفاية إذن تعني المقدرة على القيام بأعباء هذه الوظيفة.. المقدرة بكافة الأشكال، المقدرة البدنية، وتعني القوة والجلد، ونقيضها الضعف الذي لأجله منع الرسول ﷺ الولاية عن أبي ذر «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»<sup>(٤)</sup> والمقدرة العقلية: وتشمل العلم والخبرة والتجربة والحنكة والدهاء.. والمقدرة المعنوية والنفسية: وتعبر عنها قوة الإرادة، والعزيمة، والجرأة والإقدام.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٥.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٦٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٥.

(٤) أخرجه مسلم.

٤- سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة: كالجنون والعمى والصم، والخرس، وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل، كفقد اليدين والرجلين والأذنين، فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه، وإن كان إنما يشين في المنظر فقط كفقْد إحدى هذه الأعضاء، فشرط السلامة منه شرط كمال<sup>(١)</sup>.

صحيح أن النقص والعطل في بعض الأعضاء والحواس يؤثر في عمل «الإمام» لكن لا يمكننا أن نأخذ هذه القاعدة على إطلاقها وعمومها. كما يطرحه ابن خلدون، فينبغي مراعاة تغير الزمان وما صاحبه من تغير في عرف الناس، ومن تقدم علمي وتقني، ومن تغير في شكل الحرب ووسائلها وأدواتها.. هذا كله أتاح التغلب على بعض أنواع النقص والعطل في بعض الأعضاء والحواس، فلم تعد بالتالي تشكل عائقاً أمام صاحبها للقيام بمهامه.. وتبقى السلامة هي الأصل.

٥- النسب القرشي: يقول ابن خلدون «وأما النسب القرشي: فلاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك، واحتجت قريش على الأنصار لما همّوا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة، وقالوا: منا أمير ومنكم أمير. بقوله ﷺ: الأئمة من قريش، وبأنه ﷺ أو صانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الأمانة فيكم لم تكن الوصية بكم.. وثبت أيضاً في الصحيح: لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش.. إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة، وتغلبت عليهم الاعاجم، وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذوزبينة»<sup>(٢)</sup>.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٥-١٤٦.

واليوم وبعد أن امتد الزمان هذا الامتداد، واختلطت الأنساب وتشتت الأقوام، وتغيرت الأحوال.. فأحسب - والله أعلم - أن هذا الشرط كان لزمان، وانقضى.

هذا وأضاف العلماء شروطاً أخرى للإمامة الكبرى، هي: الإسلام، البلوغ، الذكورة.. وقد أثار بعض دعاة تحرر المرأة لغطاً حول شرط «الذكورة، قائلين. أن المرأة ينبغي أن تتساوى مع الرجل، وأنها لما أعطيت الفرصة وحكمت في أمكنة وأزمنة مختلفة أثبتت قدرة وكفاءة لا تقل عن الرجال.

إننا عندما نتحدث عن «الإمامة الكبرى» فإننا نتحدث عن مهمة عظيمة ودور كبير له تبعات جسيمة، وأعباء ثقيلة، تحتاج أن يتفرغ لها من الرجال «القوي الأمين» الذي قد يضطره عمله أن يبيت أياماً وليالي خارج منزله، وأن يسافر من بلد إلى بلد، ويلتقي بالزعماء والملوك، والصالح والطلح والمؤمن والكافر من الناس.. ويخلو بمستشاريه وقواده ومعاونيه.. والمرأة المسلمة، هي أم وزوجة وأخت، وابنة.. لا تتناسب طبيعتها الأنثوية، ونظام حياتها مع هذه المهام الجسام، إلا أن تتخلى عن هذه الطبيعة، وتصبح كالرجال. فعندها يمكنها أن تنجح.. لكن الإسلام يريد للرجل أن يبقى رجلاً، وللمرأة أن تبقى امرأة، ترعى أولادها، وزوجها، وتقوم بدورها الذي تتقنه وتميز به.

وبالتالي فإن اشتراط الذكورة لا يعني بحال الانتقاص من مكانة المرأة أو الطعن في قدرتها وعقلها.. وإنما هو اختيار الأنسب.

## واجبات إمام المسلمين

حدد الإمام الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» عشر واجبات رأى أن الإمام ملزم بأدائها، وهي:

- ١- حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة.
- ٢- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع المخاصم بينهم حتى تظهر النصفة.

٣- حماية البيضة والذب عن الحوزة.

٤- إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى من الانتهاك وحقوق عباده من الإتلاف والاستهلاك.

٥- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة.

٦- جهاد من عاند الإسلام.

٧- جباية الفياء والصدقات.

٨ - تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

٩- استكفاء الأمانة وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال.

١٠- أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتفحص الأموال، ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة<sup>(١)</sup>.

### حقوق الإمام على رعيته

١- البيعة: وهي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد<sup>(٢)</sup>.

لكن هل نظام البيعة لا يزال ممكناً ومناسباً في هذا العصر؟

---

(١) الماوردي، ص ١٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٦٥-١٦٦.

يقول الرافعي: يمكننا القول بأن «البيعة» في ذلك العصر هي طريقه فطرية للانتخاب الذي يجري في عصرنا الحاضر<sup>(١)</sup>.

وبالتالي فإنه يمكن الاستعاضة عن «نظام البيعة» بالنظام الانتخابي القائم في هذا العصر. وعلى المسلم وهو يضع بطاقته الانتخابية أن يعلم أنه بهذا الإجراء يضع ثقته في الشخص الذي انتخبه، ويبايعه على السمع والطاعة وعلى أن لا ينازع الأمر أهله.

٢- احترام الإمام وتوقيره: وعدم التعرض له بأي نوع من الإساءة، والإهانة، والسب والشتم.. ولا يمنحك اختلافك معه في رأي من احترامه وتوقيره، فهيبة الإمام من هيبة الدولة والأمة.

٣- النفقة عليه من المال العام، بما يضمن له ولعائلته حياة كريمة.

٤- نصرته إذا تعرض للأذى أو تمرد على طاعته، وخرج عليه فرد أو جماعة.

٥- النصيحة: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»<sup>(٢)</sup>.

## الخروج على الإمام

عن جنادة بن أبي أمية قال: «دخلنا على عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وهو مريض، فقلنا: أصلحك الله حدثنا بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعناه على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان»<sup>(٣)</sup>.

(١) الاسلام نظام إنساني، ص ٣١.

(٢) البخاري، ٢/١، ومسلم، ١/٧٤.

(٣) البخاري، (٧٠٥٦)، ومسلم، (١٧٠٩).

يفهم من هذا الحديث أن الخروج على الإمام لا يجوز إلا في حالة واحدة، وهي: «أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان».

لكن ينبغي توضيح وتبيين النقاط التالية:

١- أن الحديث يدور حول الخروج على الإمام الذي تمت مبايعته طواعية، وليس الحاكم الذي يعتلي سدة الحكم، بسطوة السلاح أو بالتزوير.

٢- قول الرسول ﷺ: «إلا أن تروا كفراً بواحاً» لا يعني بالضرورة أن يكون الكفر البواح من الحاكم، والأقرب إلى المعنى الذي جاءت به صيغة الحديث، هو: أن تروا كفراً بواحاً قد حصل في المجتمع نتيجة لحكم هذا الحاكم.

يقول الدكتور راغب السرجاني: «إنني أرى أن الرسول ﷺ أراد أن يرفع عنا حرج تكفير الحاكم قبل الخروج عليه. فهذا قد يأتي بأعمال كفرية وهو ليس بكافر، وتوصيف العمل بالكفر أسهل من توصيف شخص بالكفر».

والسؤال الذي ينبغي أن نجيب عليه بصراحة هو: هل هناك أعمال كفرية في ظل حكم الأنظمة التي تحكم بلاد المسلمين اليوم؟

الدساتير الموجودة اليوم أخطر ما نواجهه في دولنا لأنها عطلت شريعة الله عز وجل عمداً، وارتضت لنفسها دساتير وضعية مستوحاة من شرائع مختلفة، منها الإسلامي ومنها الغربي الوضعي، ولم يكن هذا الاستبدال نتيجة جهل أو عدم دراية، بل عن عمد، بدعوى أن التشريعات الإنجليزية أو الفرنسية.. الخ أفضل في جزئية من التشريع الإسلامي الذي أوصى به رب العالمين. ما توصيف هذا العمل؟ ما توصيف من قال إن البيع مثل الربا؟ وما توصيف من يخرج التصاريح للراقصات الخليعات؟ ويسمح بالإباحية في وسائل الإعلام، ولا يدعي أن هذا منكر ينبغي محاربه. بل في منتهى التحدي للشريعة يعطيهم الجوائز والحوافز، وما توصيف موالاتة اليهود الصهاينة على حساب الفلسطينيين المسلمين. وما توصيف تعطيل الزكاة؟ وما توصيف فتنة

الناس عن دينهم في السجون والمعتقلات وتعذيبهم تعذيباً احترافياً باستخدام أجهزة مستوردة لذلك؟

إن هذه الأعمال في رأي كثير من العلماء هي كفر بواح، وإن كان المعظم يتحرج من تكفير الفاعل.. وأنا معهم<sup>(١)</sup>.

٣- ذهب بعض العلماء إلى حمل «الكفر» على «المعاصي» ومن هؤلاء الإمام النووي الذي يقول في شرح هذا الحديث: «والمراد هنا بالكفر: المعاصي: ومعنى «عندكم من الله فيه برهان» أي تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً من قواعد الإسلام<sup>(٢)</sup>.

٤- ينبغي التفريق بين «منازعة الأمر أهله» وبين القول للحاكم الظالم يا ظالم، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.. فالمنازعة تعني: المزاحمة.. وحتى يقطع الرسول ﷺ الطريق على أصحاب المطامع والأهواء نهى عن «منازعة الأمر أهله»؛ لكنه في نفس الوقت اشترط بان لا تكون الطاعة في معصية، فإن أمر بمعصية فلا طاعة له. وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة بالمعروف»<sup>(٣)</sup> وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه قال: «والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»<sup>(٤)</sup>.

ويؤكد هذا الفهم خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما ولي الخلافة، حيث قال: «أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن صدفتم فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي

(١) رسائل من قلب الحدث، ص ٩٩.

(٢) النووي، شرح مسلم، ١٢/٢٢٩.

(٣) أخرجه البخاري، ٧٢٥٧ ومسلم، ١٨٤٠.

(٤) البخاري، ٧١٤٤ ومسلم، ١٨٣٩.

حتى أخذ له الحق، والقوي فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم<sup>(١)</sup>.

فماذا تعني عدم طاعة الرعية للحاكم؟ إنها تعني، العصيان المدني، والتمرد، وبالتالي «الثورة السلمية على الحاكم للإطاحة به» فانه ان لم تكن طاعة للحاكم، لم يكن بمقدوره أن يحكم.. وهذا يعني بالضرورة استقالته، فإن لم يفعل لزم خلعها. فلا غضاضة إذن أن تقوم الأمة التي ترى ظلم حاكمها وبغيه، وعدوانه عليها، وتفريطه في حقوقها، وترفه ومجونه وفسوقه، بالثورة تعبيراً عن احتجاجها عليه، ومطالبة باستقامته أو باستقالته.

### ٣- الشورى:

لم يعد مقبولاً ولا معقولاً أن يظل الجدل قائماً بين علماء المسلمين حول «الشورى» في الإسلام: أهي ملزمة أم معلمة؟

من المفترض أن يكون هذا الأمر قد تم تجاوزه منذ زمن طويل ليفكر العلماء في تحديد النظم الأكثر مناسبة لتحقيق مبدأ الشورى. ألا يكفي المسلمين قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ دليلاً على أن الشورى واجبة؟

فماذا يعني قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ غير أن أمر المسلمين المتعلق بشؤون دنياهم وصلاح واستقامة أحوالهم ينبغي أن يقوم ويبنى على الشورى؟

إن الله سمى سورة في القرآن باسم الشورى ومن الجدير ذكره أن هذه السورة مكية أي أنها نزلت قبل أن يكون للمسلمين دولة وكياناً مستقلاً يحتاجون فيه لنظام يديرون شؤونهم من خلاله.. ونشير إلى أن قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ جاء في سياق عرض

(١) الإسلام نظام إنساني، ص ٣٢.



صفات المؤمنين وجاءت هذه الصفة متوسطة بين أهم صفات المؤمنين وأهم ركنين من أركان الاسلام بعد التوحيد، وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ومن اللافت أن هذا هو الموطن الوحيد في القرآن الكريم الذي لا تقترن فيه الزكاة أو الإنفاق في سبيل الله بالصلاة عندما يجتمعان في آية واحدة. ونلاحظ أن الشورى قد توسطت بينهما فتبعت الصلاة وسبقت الزكاة ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] فهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الشورى واجبة، وأن نظام الحكم في الإسلام ينبغي أن يبنى عليها.. وأحسب أن كثيراً من علماء المسلمين قد خلطوا عندما نظروا في نصوص القرآن والسنة، وفي سيرة الرسول ﷺ التي تتعلق بمسألة الشورى بين أمرين، ينبغي التفريق بينهما، وهما: الشورى الخاصة والشورى العامة.

• الشورى الخاصة: ويقابلها في هذا العصر: «المستشارون» وهم الذين يختارهم الرئيس من بين أصحاب العلم والخبرة والحكمة والتجربة ليسدوا له النصيحة والمشورة.. فاستشارتهم واجبة لكن الأخذ بها «معلم غير ملزم». هذه النوع من المشورة هو الذي قال فيه بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي قوة للقوادم

قال ابن خوزمنداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتّاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها. وحكى القرطبي عن ابن عطية أنه لا خلاف في وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين<sup>(١)</sup>.

(١) فتح القدير، ١ / ٤٥١.

وهذا النوع من الشورى، هو المقصود بخطاب الله لرسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وضمن هذه المشورة يندرج أخذ الرسول ﷺ برأي الحباب بن المنذر في معركة بدر، والذي قال للرسول ﷺ: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء. ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي<sup>(١)</sup>.

وأخذ الرسول ﷺ في غزوة الخندق برأي سلمان الفارسي، الذي أشار عليه بحفر الخندق، ليقطع الطريق أمام جيوش المشركين ويحول بينهم وبين المدينة.

• أما الشورى العامة: فهي الملزمة، ويقابلها في هذا العصر مجالس الشورى، والشعب والنواب، الذين ينتخبهم الشعب ليمثلوه في هذه المجالس، ورأيهم في السياسات العامة، ملزم للرئيس وللحكومة.. وهذا النوع من الشورى هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وضمن هذا النوع من الشورى، تأتي مشاوره الرسول ﷺ لكبار الصحابة يوم أحد، فكان رأي الأغلبية بما فيهم الشباب مع الخروج من المدينة وملاقاة المشركين خارجها، أما الرسول ﷺ فكان يرى البقاء في المدينة والتحصن بداخلها، وحدث الرسول ﷺ أصحابه أنه رأى بقرأً تذبح، وثلماً في ذباب سيفه وأنه أدخل يده في درع حصينة، وأول الرسول ﷺ رؤياه بقوله: «فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل»<sup>(٢)</sup> وأول الرسول ﷺ الدرع الحصينة بالمدينة. ورغم هذه الرؤيا، ورغم رأي الرسول ﷺ البقاء في

(١) ابن هشام، ٢/ ٢٠١.

(٢) السيرة لابن هشام، ٢/ ٦٢-٦٣.

المدينة والتحصن بداخلها، وكرهيته الخروج منها.. إلا أنه نزل على رأي الصحابة الذين قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جنبا عنهم وضعفنا. ففي هذه الحادثة كانت المشاورة عامة والرأي رأي أغلبية. فأخذ بها الرسول ﷺ ليعلم الأمة من بعده أن الشورى العامة ملزمة. لا يسع الأمير إلا الأخذ بها، حتى وإن خالف رأيه، ولم توافق هواه.. ومثال آخر للشورى العامة من سيرة الرسول ﷺ في غزوة الخندق عندما استشار الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد، في مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة، على أن تراجع عن حرب المسلمين.. فكان رأيهما: والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال الرسول ﷺ لسعد بن معاذ «فأنت وذاك». وتراجع الرسول ﷺ عن هذا الصلح.. وقد ذكرنا هذه القصة فيما سبق.

وخلاصة القول أن الشورى في الإسلام ركن أساسي من أركان نظام الحكم، وأن أقصى ما وصلت إليه الحضارات المتقدمة اليوم، في نظامها الانتخابي والنيابي، هو أصل موجود في الإسلام، نص عليه القرآن ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ومارسه الرسول ﷺ، وطبقه بنفسه على نفسه وهو النبي المرسل: فهل يسع المسلمون اليوم غير ما وسع رسولهم ﷺ؟!

#### ٤- العدل:

العدل ركيزة أساسية، من أهم الركائز التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام، وهو - كما قيل - أساس الملك.. أمر الله به بصيغ جازمة حازمة، وفي مواطن كثيرة، ورغب فيه وحض عليه، بل إن الله عز وجل جعل الغاية من إرسال رسالاته إلى الناس، هي العدل، وقرن القرآن بين الكتاب والميزان، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «.. وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴿ [النحل: ٩٥] <sup>(١)</sup>، وروي أن الوليد بن المغيرة لما سمع هذه الآية من النبي ﷺ، قال: والله إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر.

وهذه الآية تأمر بالعدل المطلق في كل شأن، ومن كل شخص، أيًا كان موقعه، وأيًّا كانت صفته.

وأمر الله بالعدل في الحكم فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. كما أمر الله بالعدل في القول والفعل وحذر من الميل واتباع الهوى في الحكم خاصة مع الأقارب، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وأمر الله عز وجل بالعدل حتى مع الأعداء، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّواكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا...﴾ [المائدة: ٢]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] ومما ورد عن رسول الله ﷺ في شأن العدل قوله، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في طاعة الله» الحديث <sup>(٢)</sup> وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عِزٍّ وَجَلٍّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا» <sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري، ١ / ١٧١.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه مسلم، ١٨٧٢.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه، ويتقى به. فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل، كان له بذلك أجر، وإن يأمر بغيره، كان عليه منه»<sup>(١)</sup>. وروى أبو ذر عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»<sup>(٢)</sup>.

كيف لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر يسمع هذا الحديث، ويظلم ولا يعدل؟! «إن العدل قيمة من القيم الإسلامية العليا، ذلك أن إقامة الحق والعدل هي التي تشيع الطمأنينة، وتنشر الأمن، وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوي الثقة بين الحاكم والمحكوم، وتنمي الثروة، وتزيد في الرخاء، وتدعم الأوضاع، فلا تتعرض لخلخلة أو اضطراب، ويمضي كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته في العمل، والإنتاج، وخدمة البلاد.. وما كانت مهمة رسل الله إلا القيام بهذا الأمر وإنفاذه، وما كانت وظيفة أتباع الرسل إلا السير على هذا النهج..»<sup>(٣)</sup>.

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة في صفة الإمام العادل: «اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفه كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله والحازم الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد وفاته. والإمام العادل

(١) أخرجه مسلم، ١٨٤١.

(٢) (أخرجه مسلم: ٢٥٧٧).

(٣) سابق، سيد، فقه السنة، دار الحديث - القاهرة، ٣ / ٣٨٩.

يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعتة كرها، وربته طفلاً، تسهر لسهره وتسكن لسكونه، وترضعه تارة وتفظمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويراهم، وينقاد لله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله»<sup>(١)</sup>.

لقد عانت شعوبنا العربية والإسلامية طويلاً من الظلم، ظلم أعداء الدين والوطن، وظلم الحكام والزعماء، وظلم أصحاب النفوذ والجاه.. ولا تزال هذه الشعوب تنتظر «المخلص» لينزل من السماء فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.. وهم لا يدركون أن «المخلص» بين أيديهم ويناديهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] لكنهم لا يلتفتون إليه ولا يستجيبون!

## ٥- المساواة:

العدل والمساواة أخوان لا يمكن الفصل بينهما، حيثما وجد أحدهما لزم وجود الآخر.. إلا أن تكون المساواة مطلقة فعندها لا بد وأن تتعارض مع العدل، فليس

(١) العقد الفريد، ١ / ٣٣ - ٣٤.

من العدل أن يستوي العالم بالجاهل، ولا المؤمن بالكافر، ولا المحسن بالمسيء، ولا المجد بالكسول.. إن الاختلاف سنة من سنن الله في خلقه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] وبهذا الاختلاف رفع الله بعض الناس فوق بعض ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.. ومن هنا فإن مبدأ «المساواة» في المفهوم الإسلامي له سماته الخاصة التي تميزه عن تلك المبادئ التي تنادى بها الفلسفات الأخرى.

فهي في المفهوم الإسلامي تعني:

• احترام إنسانية الإنسان وتكريمه، وصون حقوقه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] ويقول تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

• رفض التمييز بين بني البشر على أساس العرق أو الجنس. وقد عاب القرآن الكريم على اليهود والنصارى زعمهم تفضيل الله لهم على سائر البشر، وفند الله هذا الادعاء بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۗ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] وقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وادم من تراب..».

• أن الأخوة الإسلامية: هي أسمى تجسيد عملي للمساواة بين أفراد المجتمع، حيث يكون الناس فيها كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى.

• أن ميزان التمايز والتفاضل بين الناس ينبغي أن يبنى على أساس الإيمان

والعلم. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ .. وقال عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• أن الرجل والمرأة من نفس واحدة، بعضهم من بعض.. يتساويان في التكليف الشرعي، إلا ما تقتضيه طبيعة المرأة ببعض الرخص، وإسقاط فريضة الجهاد عنها، وهما متساويان في الثواب والعقاب ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾ [النور: ٢] ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وهما يختلفان في التركيب الجسماني، ويترتب على ذلك، الاختلاف في المهام والأدوار المناطة بكل واحد منهما، فيتقدم الرجل المرأة في مواطن لا تصلح لها، أو هو أقدر منها على أدائها، وتقدم المرأة الرجل في مواطن لا يصلح لها الرجل أو هي أقدر منه على أدائها.. وبالتالي فإنه لا يمكننا قبول القول «بمساواة المرأة بالرجل» أو قبول نقيضه، وإنما القول الفصل ما قاله الله تعالى في كتابه «بعضكم من بعض» الرجل والأنثى من نفس واحدة، يتم أحدهما الآخر ويكمله «خلقكم من نفس واحدة» لقد كرم الإسلام المرأة أيما تكريم وأنصفها أيما إنصاف.. وصان عرضها وكرامتها.. فماذا جلب لها دعاء المساواة اليوم؟

إنها في أكثر الدول الغربية تقدماً تستغل أبشع استغلال، وتهان أشد إهانة، تستغل جنسياً وجسدياً، ويفرض عليها المجتمع العمل والنفقة على نفسها، وبيتها.. بحيث تكون ملزمة بالمساهمة بنصف نفقات البيت، وهي إن لم تكن متعلمة، ولم تستطع الحصول على وظيفة مناسبة، ستكون مضطرة للقبول بأي عمل، حتى وإن كان شاقاً، ولا يتناسب مع طبيعتها الأنثوية.. إن كثيراً من المومسات في المجتمعات الغربية، ما كن ليمتهنَّ الدعارة لوأنهن وجدن من ينفق عليهن ويؤمن لهن حياة كريمة.





وهذا لا يعني أن وضع المرأة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية مثالي.. المرأة في مجتمعاتنا مظلومة، ومضطهدة، إلى حد ما، ولا تنال حقوقها التي جعل الله لها.. وهذا خلل واضح بين في سلوك وعرف المجتمع، مخالف لتعاليم الشرع.



والحركة الإسلامية اليوم مدعوة لتفعيل دور المرأة بشكل أوسع وأكبر، واستثمار طاقاتها وقدراتها بشكل أفضل، فقد أثبتت المرأة في كثير من البلدان الإسلامية أنها تمتلك إرادة عالية، وقدرة فائقة.. ورأينا كيف أنهن في مصر مثلاً يتغلبن على الرجال، بمثابرتهن، وصبرهن وجلدهن ووعيهن، واستعدادهن للتضحية من أجل مبادئهن وعقيدتهن.. فهؤلاء الحرائر ينبغي أن يحظين بكل تقدير وتوقير، وتقديم وإشراك، ومراعاة واهتمام.







الفصل الرابع  
دراسة نقدية لكتاب «الأمير»  
لميكافيللي





## «الأمير» لميكافيللي

يقول ميكافيللي: هو أديب ومفكر وسياسي إيطالي، ولد في فلورنسا، وعاش ما بين عامي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) وأهم مؤلفاته السياسية كتابان: «دراسات الكتب العشرة الأولى لثيتوس ليفيوس» و«الأمير».

وكتاب «الأمير» كتبه ميكافيللي وأهداه إلى الأمير «لورنزو» الذي اعتقد أن باستطاعته أن يوحد إيطاليا - المقسمة إلى خمس دويلات - إذا ما استرشد بنصائحه ونظرياته السياسية التي ضمنها في كتابه.. وكان ميكافيللي يعتقد أن إيطاليا لن تتوحد إلا على يد حكومة «موناكية» أي حكومة فرد واحد يجمع بين القوة والسطوة والحنكة والدهاء، بحيث يكون «أسداً مفترساً وثعلباً ماکراً».

ويرى أن الهدف من السياسة هو: محافظة الحاكم على سلطته وسلطانه، وترسيخ وتوسيع هذه السلطة بكل وسيلة ممكنة.. ويرفض إخضاع التدابير والإجراءات السياسية والعسكرية لأي اعتبارات دينية وأخلاقية.. ويعتبر أن «الضرورة لا تعرف القانون» و«الغاية تبرر الوسيلة» وأن الإنسان بطبيعته أناني مخادع، لا تحركه إلا مصلحته، وعلى الحاكم أن يتعامل مع هذه الطبائع البشرية بما يناسبها ليفرض هيئته، ورهيبته..

ومع أن كتاب «الأمير» يحظى بسمعة عالمية سيئة لما يحتويه من أفكار شريرة استبدادية منافية للقيم والأخلاق ومقيدة للحريات.. إلا أنك ستكتشف عند قراءته أن

معظم زعماء وساسة العالم، وحتى الأحزاب السياسية: العلمانية، والبرالية، واليسارية.. ولحق بركبهم مؤخراً بعض السلفيين! يطبقون أفكاره ونظرياته بحذافيرها.. لا يزيغون عنها قيد أنملة..

وستجد بصمة «مكيا فيللي» في كل ما يحدث اليوم على الساحة السياسية العالمية، فيما بقي الإسلاميون وحدهم- في زمن الخداع والمؤامرات هذا- متمسكين بالمبادئ والقيم ومكارم الأخلاق.. فوجد بهم «الماكرون المخادعون» أجمعون، فريسة يسهل خداعها والإيقاع بها، والتأمر عليها.. آخذين بقول الشاعر:

إن الكريم اذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجرباً لا يخدع.

لكن مكر أولئك سيبور ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. ومن يعمل الخير فلن يعدم جوازيه.. لا يضيع العرف بين الله والناس.

غير أن على الإسلاميين اليوم - وبعد هذه التجارب السياسية المريرة التي خاضوها، والأزمات التي وقعوا فيها، والمؤامرات الكبرى التي حيكّت ضدهم، والتمن الباهظ الذي دفعوه- أن يكونوا أكثر تنبهاً، وأكثر حكمة، وأكثر دهاءً.. ويعلموا أن سوء الظن يكون، في بعض المواطن، من حسن الفطن.. ويوازنوا بصورة فعلية وليس قولية بين الورع والتقوى، والحيلة والفتنة، فيكونوا كما وصف المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه من أن يخدع».

وكما قال عمر عن نفسه: «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

ولأنك لن تستطيع التعامل مع «غيرك» ما لم تعرف فكره، ومنهجه، والمدى الذي يمكن أن يذهب إليه في مخاصمتك أو موادعتك.. لزم الدخول إلى عقرب داره، وإلقاء نظرة فاحصة، عن قرب، تتعرف من خلالها على أحواله وتكشف أسراره.

من هنا فان قراءتنا النقدية لكتاب «الأمير» ستبنى على هذا الأساس.. أساس التعرف على فكر الآخرين ومنهجهم، وأين تتقاطع معهم، وأين نفترق.. ولنعرف لماذا ينبغي أن نكون أسوداً، ولماذا لا ينفع إلا أن نكون أسوداً، في غابة الذئاب.

وستكون طريقتنا في قراءة هذا الكتاب ونقده، قائمة على اختيار أهم الافكار والنظريات السياسية المطروحة، والتعليق عليها، وإسقاطها على الواقع المعاصر، ونقدها من منظور السياسة الشرعية.



١- يمكننا أن نستنتج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر، وهي: «أن كل من يتسبب في أن يقوي غيره يهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إما بالحيلة، أو بالقوة، وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة»<sup>(١)</sup>.

ما من زعيم ولا حاكم، في دول الحكم الشمولي، الاستبدادي، إلا ويضع هذه القاعدة نصب عينيه، فيعامل الناس دائماً على حذر، ولا يمنح صلاحيات عليا، ولا يسند منصباً حساساً إلا لخاصته، وبعد أن يتأكد تماماً، بما لا يدع مجالاً للشك، صدق ولائهم وتبعيتهم له.

وغالبا ما لا يكتفي الزعماء والحكام الدكتاتوريون بذلك، فيعمدون إلى اتخاذ «إجراءات أمان» إضافية، من شأنها أن تكبل وتقيّد «الشخصيات الهامة» وتمنعها من مجرد التفكير، بالانقلاب، أو «صحوة الضمير» وتغيير الولاء.. من هذه الإجراءات:

أ- الترغيب: بمنح كبار موظفي الدولة، خاصة الذين يشغلون مواقع حساسة، وبالذات في أجهزة الجيش، والأمن الداخلي والمخابرات.. هبات ومكافآت وحوافز، وامتيازات خاصة، إضافة إلى وعود بالعلاوات، والترقيات السريعة، وذلك كله مشروط بإثبات صدق الولاء.. ونأخذ مثالا على ذلك من واقع الجيش المصري، حيث يقول يزيد الصايغ في بحثه الذي سماه: «فوق الدولة: جمهورية الضباط في مصر»: بعد العام ١٩٩١ م سارت عملية الدمج في نظام المحسوبة التابع لمبارك من خلال الوعد بمنح «بدل ولاء» يحصل عليه كبار الضباط عند التقاعد، وذلك مقابل امتناعهم عن الانخراط في السياسة وقبولهم لرواتب متدنية نسبياً، خلال الخدمة قي القوات المسلحة. بالنسبة للغالبية العظمى، يتضمن هذا البدل فرصة لمواصلة وظيفة في القطاع الحكومي، ما يضيف راتباً ثانياً إلى المعاش التقاعدي العسكري، ولكل منهما العلاوات والبدلات

(١) ميكافللي، كتاب الأمير، ترجمة: أكرم مؤمن، ص ٣١، مكتبة ابن سينا.



المرتبطة به. يمكن للمتقاعدين العسكريين الذين تربطهم علاقات مع جهات نافذة أن يأملوا في تعيينهم في وظائف في الجهاز الحكومي المدني توفر لهم فرصاً مربحة خاصة تمكنهم من تأمين دخل إضافي أو مضاعفة موجوداتهم المادية إلى جانب الرواتب والمعاشات بالنسبة إلى القلة، يجري التعيين الثاني بالتزامن مع الخدمة الفعلية في القوات المسلحة، ما يخدم تكوين السير الذاتية وبناء العلاقات تمهيداً للحصول على مناصب أفضل بعد التقاعد.

في كثير من الأحيان، يكون هؤلاء الضباط في طريقهم إلى تولي مناصب قيادية عليا في فروع القوات المسلحة التي ينتمون إليها، ويمكن أن يطمحوا إلى الانضمام إلى مجالس إدارات الشركات التجارية المملوكة للدولة بعد تقاعدهم، وهؤلاء هم الأكثر حظاً والأكثر ولاءاً.. ووفقاً لضباط ومسؤولين حكوميين سابقين أُجريت معهم مقابلات لإعداد هذه الورقة، فإن صغار الضباط ممن يعتبرون ذوي توجهات سياسية أو غير جديرين بالثقة، لا تتم ترقيتهم بعد رتبة رائد.. وحدهم الضباط الذين يعتبر ولاؤهم مؤكداً يتجاوزون هذا الحاجز غير المرئي.. ثمّة عوامل ثلاثة متضاربة دفعت دمج جمهورية الضباط في نظام المحسوبية التابع لمبارك. كان أولاً: تصميم مبارك على ألا يجازف بصعود رجل عسكري قوي آخر يمكن أن يشكل تحدياً لسلطته. وقد انعكس هذا في قيامه في العام ١٩٨٩م بإقالة وزير الدفاع أبو غزالة الذي كان يتمتع بحسب اعتقاد الكثيرين بشعبية تفوق شعبية رئيس الجمهورية.. وعين طنطاوي وزيراً للدفاع والذي وصفه ضباط مصريون لم يكشف عن أسمائهم بأنه «كلب مبارك» حسب ما نقل عنهم في برقية للسفارة الأمريكية في العام ٢٠٠٨م نشرها موقع «ويكيليكس».

ثانياً: أدى الصراع المتصاعد مع الجهاديين الإسلاميين المسلحين.. إلى تسريع ضم سلك الضباط في القوات المسلحة إلى داخل نظام مبارك، علماً أن ذلك لم يكن واضحاً في البداية نظراً إلى الاتجاه نحو زيادة الاعتماد على الأجهزة الأمنية. فقد ازداد

عددها ليصل إلى ما يقدر بـ ٤, ١ مليون وفقاً لبعض التقديرات.. شاع الاعتقاد أن ظهور «الدولة الأمنية» قد همش القوات المسلحة، لكن صعود نجم الأجهزة الأمنية في المعركة ضد الإسلاميين، والذي حول الأنظار عن المؤسسة العسكرية، كان نوعاً من ذر الرماد في العيون لأن القوات المسلحة استمرت في لعب دور لا غنى عنه في المحافظة على النظام. أصبح المتقاعدون العسكريون يشغلون وظائف في جميع مستويات الحكم المحلي، بحيث عملوا كذراع تنفيذية وأمنية موازية تتبع في نهاية المطاف الرئيس من خلال المحافظين الذين يعينهم. كما قامت القوات المسلحة ولا تزال تقوم بتقديم الضباط من الخدمة الفعلية لتولي عدد كبير من المناصب القيادية والإدارية العليا في وزارة الداخلية ومديرية المخابرات العامة.

ثالثاً: فتمثل في نقطة التحول التي حدثت في العام ١٩٩١م عندما أطلق مبارك حملة كبرى لخصخصة المشاريع الاقتصادية التابعة للقطاع العام، على خلفية شطب جزء كبير من ديون مصر الخارجية، وإعادة التفاوض بينها وبين صندوق النقد الدولي على اتفاقية العام ١٩٨٧م.. وقد وفر ذلك فرصة لكبار الضباط في القوات المسلحة للوصول إلى حيز كبير من الاقتصاد المصري الذي بقي مملوكاً للدولة. ويتم هذا الاحتواء للضباط ليس فقط من خلال التعيين في مجالس إدارات تلك الشركات، بل أوجدت الإصلاحات الاقتصادية الليبرالية الجديدة في الفترة التالية فرصاً جديدة للضباط السابقين المتواجدين في الإدارة المدنية للحصول على الثروة أو لزيادة أملاكهم وموجوداتهم<sup>(١)</sup>.

ب- الترهيب: يعلم كل صاحب موقع حساس في الدولة أن أي انحراف ولو بسيط له عن مسار التبعية المطلقة والولاء التام سيقابل مباشرة بـ: العزل الوظيفي،

(١) صايغ، يزيد، فوق الدولة (جمهورية الضباط في مصر)، ص ٤- ٨، دراسة صادرة عن مركز كارنيغي للشرق الأوسط سنة ٢٠١٢م.

والحرمان التام، وأقسى العقوبات والتي قد تصل في بعض الأحيان حد الموت.. ولن تقتصر هذه العقوبات عليه شخصياً بل ستطال أفراد عائلته، والمقربين منه.. وتأخذ العقوبات عادة شكلين:

• قانوني: بتلفيق قضية ما واتهامه بها، ومحاكمته عليها أو محاكمته على جرم ارتكبه في فترة ولائه للنظام، فحفظ له، ولم يحاسب عليه «لحسن سلوكه!» فإذا ما تغير سلوكه فتح له «الملف القديم» وقدم للمحاكمة.

• خارج القانون: بمعاقبته دون محاكمة.. وتتفاوت العقوبة تبعاً لحجم الفعل المنسوب إليه، فقد تقتصر على «لفت نظر» أو «نقل تعسفي» وقد تصل أحياناً إلى التخلص منه بحادث مدبر، بحيث يظهر على أنه «قضاء وقدر».

ج- التوريط: بنصب مكيدة ما، ذات بعد أخلاقي، أو مالي، أو أمني، ثم الإيقاع بالشخصية المستهدفة، وتوثيق ذلك، لابتزاز هذه الشخصية، وجعل تلك الوثائق سيفاً مسلطاً على رقبتة، فإذا ما فكر - يوماً - الخروج عن الإطار المرسوم له، كشفت هذه الوثائق، وتم فضحه أو محاكمته أو كليهما معاً.. وعادة ما تتولى أجهزة مخابرات الدولة ترتيب هذه المكائد.. ومن الأمثلة على ذلك: المكيدة التي نصبت لمدير مكتب رئيس السلطة الفلسطينية «رفيق الحسيني» حيث أوقع به جهاز المخابرات الفلسطيني، وصوره في وضع مخل بالحياء، وبسبب خلاف بين أحد ضباط المخابرات الذي أشرف على هذه «العملية» مع قيادة السلطة، قام الأخير بنشر التصوير، حيث عرضته القناة العاشرة «الإسرائيلية».. واضطر الرئيس محمود عباس، بضغط جماهيري واسع إلى إقالته.. وهو يشغل اليوم، مدير مستشفى المقاصد في القدس!

وبعد الحسم وسيطرة حماس على القطاع وقع في أيديها الكثير الكثير، من الوثائق والتسجيلات المشابهة، والتي تؤكد استخدام السلطة الفلسطينية لهذا الأسلوب

الرخيص نهجاً لها.. ولا شك أن كل الدول ذات الأنظمة «الدكتاتورية» التسلطية تنتهج نفس النهج، وتتبع ذات الأسلوب..

وفي «إسرائيل» صاحبة الباع الطويل في الإسقاط والتوريط، لم يعد الأمر حكراً على أجهزة الاستخبارات، والمستويات العليا في الدولة، فقد أصبح أسلوباً شائعاً لدى «المحتالين الصغار» يستخدمونه لابتزاز شخصيات عامة، ومشاهير، لأجل المال، أو بغية الحصول على خدمات وتسهيلات معينة.. وأصبح هناك نساء مختصات مدربات على الإغراء والإغواء، وطرق الإيقاع بالضحية، يعرضن خدماتهن لكل من يطلب ذلك!

وبعد هذا الذي ذكرناه نعود لنطرح سؤالاً «لا بد منه: هل أهلك الرئيس محمد مرسي نفسه عندما قوى غيره.. أي عندما أقال المشير طنطاوي، وعين عبد الفتاح السيسي وزيراً للدفاع بدلاً منه؟

لم يعد خافياً على أحد، خاصة بعد الانقلاب الذي حدث في مصر، أن الخطوة التي أقدم عليها الرئيس المعزول محمد مرسي، والتي وصفت حينها بأنها «ضربة معلم» و «أكبر انجاز يسجل..» كانت في الحقيقة بمثابة السهم الذي ارتد إلى نحر صاحبه فقتله!

• هل كان الرئيس محمد مرسي يعي جيداً ما يدور داخل أروقة أهم مؤسسة في الدولة، وهي مؤسسة الجيش؟

• وهل كان مرسي مضطراً للقيام بهذه الخطوة؟

• وهل اختار بنفسه القيادة الجديدة أم فرضت عليه؟

• وهل درس جيداً «السيرة الذاتية» للقادة الجدد، وعلى رأسهم «السيسي»..

هذا إن قدمت له أساساً؟!!

• هل كان الانقلاب لا محالة واقع حتى ولو بقي السيبي مغموراً، وطنطاوي وعنان هما من يقودا الجيش؟

الذي يمكنه الإجابة على هذه الأسئلة، هو وحده الدكتور محمد مرسي فرج الله كربه.

نقد قاعدة ميكافيللي «من يقوي غيره يهلك نفسه» من منظور إسلامي حركي: لا يمكننا رفض هذه القاعدة من أساسها، ولا قبولها على عواهنها.. والأمر يتطلب التعامل مع هذه المسألة بدقة واتزان.. وذلك بأن لا تمنح ثقتك إلا لمن هو أهل لها.. ولا تمنعها من يستحقها، من إن قويته كان سنداً لك، يعينك، ويشد من أزرِك.. وفي كل الأحوال أنت مضطر لأن تقوي غيرك، فلا أحد يستطيع أن يدير دولة بمفرده.

إذن فالسؤال ينبغي أن يكون: لمن تمنح القوة؟ وكيف تضمن عدم ارتدادها عليك واستخدامها ضدك؟ وليس: أتمنح القوة لغيرك، أو لا تمنحها؟ لقد وضع الإسلام، شروطاً وضوابط، من شأن الأخذ بها، أن يوسد الأمر لأهله، ويقطع الطريق أمام المتسلقين والفاستدين، أهمها:

#### • اختيار الشخص المناسب للموقع المناسب:

وأهم صفتين يجب، التأكد من توفرهما في الشخص المناسب، هما: المقدرة والأمانة.. والمقدرة، قد تكون: جسدية أو عقلية، أو كليهما معاً، وقد تتوفر في الشخص عن طريق الجبلة الخلقية، أو مكتسبة بالعلم والخبرة، والتجربة، والتمرين.. وقد يحتاج الأمر ذلك كله. وانظر كيف سجل القرآن الكريم فراسة المرأة في موسى عليه السلام، حينما قالت لأبيها: ﴿يَتَابَتِ أَسْتَجْرُهُ إِنَّ حَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.. فقد خبرت المرأة، قوة موسى عليه السلام من خلال تجربته في سقايته للأغنام، ومن خلال مقدرته على فرض موقفه، على «أمة من الناس» كانوا يجبرون المرأتين على

الانتظار وعدم السقاية حتى يفرغوا هم جميعاً من ذلك.. وقول المرأتين «وأبونا شيخ كبير» يؤكد أنهم كانوا يستضعفونهما، فجاء موسى وانتصر لهما بقوته.. أما أمانته، فإنه لم يطلب بدل جهده أجراً، وإنما فعل ما فعله مروءة، وشهامة. ومن كان ذو مروءة ونخوة وشهامة فهو جدير أن يوصف بالأمانة.

ونذكر هنا «لطيفة» قد تخرجنا قليلاً عن سياق موضوعنا، وهي: أن موسى عليه السلام لم يطلب الأجر على سقايته للامرأتين، رغم أنه كان في أمس الحاجة لذلك، حتى أنه تولى إلى الظل فقال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ في حين أنه في رحلته مع العبد الصالح، قال له عندما أقام الجدار ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ رغم أن الذي أقام الجدار هو العبد الصالح وليس موسى، ورغم أنه كان حينها نبياً، بينما لم يكن قد أوحى إليه بعد عندما سقى للامرأتين.. والسر في ذلك: أن موسى عليه السلام في الحادثة الأولى، انتصر لمظلومتين مستضعفتين.. أما الحادثة الثانية، فإن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما.. وهذا من شيم اللئام، الذين يمقتهم موسى عليه السلام، ويثور عليهم.. كيف لا وهو الذي عاش ظلم آل فرعون واستضعافهم لقومه «بني إسرائيل».

وقصة موسى مع المرأتين تعلمنا درساً مهماً، وهو: أن استئجار رجل وائتمانه على قطيع من الغنم استدعى التأكد من صفتي «القوة» و«الأمانة» فيه.

حتى أن المرأة اعتبرت من أفرس الناس، حيث ورد عن ابن مسعود قوله: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما»<sup>(١)</sup> أفلا يستدعي ذلك التأكد من توفر هاتين الصفتين في الذي يؤتمن على أموال وأرواح وأعراض شعب بأكمله؟!!

(١) أخرجه الحاكم وصححه.

## • منع الولاية من يطلبها:

وقد رسخ رسول ﷺ هذا المبدأ لأهميته.. فالذي يحرص على الولاية، غالباً ما تكون لديه مطامع شخصية، وقد يستغل موقعه وسلطته لتحقيق مطامعه ومطامحه، وقد يبغى، ويظلم، ويتعسف في قراراته، ويتعد حدود الله.

فسدَّ الرسول ﷺ هذا الباب بقوله «لا نستعمل على عملنا من أراه» فعن أبي بردة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعى رجلان من الأشعرين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك. فقال: ما تقول يا أبا موسى؟ أو يا عبد الله بن قيس؟ قال: فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل. قال: وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته، وقد قَلَصَتْ فقال: لن - أو لا - نستعمل على عملنا من أراه، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى، (أو يا عبد الله بن قيس)، فبعثه على اليمن<sup>(١)</sup>، وهنا تظهر لنا حكمة الرسول ﷺ في منعه الإمارة للرجلين الذين طلباها، وحرصا عليها.. ومنحها لأبي موسى الذي لم يطلبها ولم يسع إليها.. ويوضح لنا هذا الفهم قول الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الإطار - أيضاً - يقول أبو ذر رضي الله عنه: قلت لرسول الله ﷺ يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البخاري، ٦٩٢٣، ومسلم، ١٨٢٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٦٦٢٢، ومسلم، ١٨٢٣.

(٣) أخرجه مسلم، ١٨٢٥.

• نهى الإسلام عن تزكية المسلم لنفسه، ومبالغته في مدح غيره: فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: «ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك» مراراً ثم قال: «من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»<sup>(١)</sup> بهذا الأدب الاسلامي الرفيع ربي رسول الله ﷺ أصحابه حتى بلغ من أثره في نفوس بعضهم أن تعرض عليه الولاية فيقول: أمّا والياً فلا، وأمّا غازياً فنعم.. ويسوس عمر بن الخطاب رضي الله عنه رعيته منطلقاً من هذا الفقه السياسي المستنير، فتراه يعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش حتى لا يفتن خالد ولا يفتن الناس بخالد، الذي بلغ بانتصاراته وبطولاته، مكانة لا تدرك ولا ترام.. مع علم عمر أنه لن يجد لقيادة الجيش مثل خالد.. ومما يؤكد أن عمر لم يرد من وراء هذا العزل إلا مصلحة الأمة، شدته وحزمه مع سائر ولاته وعماله، فكانت عيونه دائماً ترقبهم، فلا يسمح لاحدهم أن يستغل سلطته وموقعه، لتحقيق مصالح شخصية له، فيظلم الناس ويبغي عليهم، كما فعل ابن والي مصر «عمر وبن العاص» مع القبطي، فكان موقف عمر، إزاء ذلك مشهوداً مشهوراً.. وعمر أول من سن قانون «من أين لك هذا» وطبقه أول ما طبقه على ولاته، فكان إذا وجد شبهة ولو بسيطة في مصدر أملاك أحدهم، انتزع منه شطر ماله.. وكان إذا أهدي لأحد ولاته شيئاً ألزمه إخراجهِ إلى بيت مال المسلمين.. قائلاً له: أ رأيت لو لم تكن والياً أهدي اليك شيء؟

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه، فيمكننا القول، أن قاعدة مكيا فيللي «كل من يتسبب في أن يقوي غيره يهلك نفسه» انطبقت، بشكل أو بآخر عليه.. فقد أخذ

(١) البخاري، ٢٦٦٣.



على عثمان رضي الله عنه أنه كان يجيء من أمرائه ما ينكره صحابة الرسول ﷺ وكان عثمان يستعذب فيهم فلا يعزلهم، وكان من بين ولاته عبد الله بن أبي السرح، على مصر، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه. فاكتفى عثمان بتهديد وتأنيب بن أبي سرح. ولم يكن منه ما كان من عمر عندما رفع القبطي شكواه في ابن عمرو بن العاص إليه، وهذا ما جعل ابن أبي سرح يزداد في غيه، حيث ضرب رجلاً من الذين شكوه لعثمان فقتله.. فخرج من مصر سبعمئة رجل إلى المدينة، وشكوا إلى أصحاب الرسول ﷺ ما صنع ابن أبي سرح، فكلموا في ذلك عثمان، ونزل عثمان رضي الله عنه عند مطلبهم بعزل بن أبي سرح واستعمال محمد بن أبي بكر مكانه.

وبعث مع محمد بن أبي بكر كتاب التعيين، وعدداً من المهاجرين والأنصار لينظروا فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر. فلما كانوا في طريقهم، لحق بهم غلام أسود، فلما سأله، وتبينوا أمره علموا أنه يحمل كتاباً إلى ابن أبي سرح مكتوب فيه:

«إذا جاءك محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابهم، وقر على عمك حتى يأتيك رأيي، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله».. فعاد محمد ومن معه أدرأجهم إلى المدينة وعرضوا الكتاب على كبار الصحابة، فتوجهوا لعثمان، فحلف بالله أنه لم يكتب الكتاب ولم يرسله وعلموا أنه خط مروان بن الحكم. فطلبوا من عثمان تسليمه لهم، فخشى عثمان أن يقتلوه، فأبى.. واحتدم الخلاف واشتد احتقان ونقمة العامة إلى أن وصل الأمر إلى مقتل عثمان رضي الله عنه. فكان الذي تسبب في مقتله رضي الله عنه هما عاملاه: ابن أبي سرح، ومروان بن الحكم، اللذان قربهما وقواهما، دون أن يكونا أهلاً لذلك. فأهلكا صاحبهما بسوء فعالهما، وأهلك عثمان رضي الله عنه نفسه، حينما أوسد الأمر لغير أهله، وحينما تساهل وتسامح في مواطن لا ينفع فيها إلا الحزم.

ونخلص إلى القول: أن القوة والسلطة فتنة عظيمة قلَّ من يعصم من الوقوع

فيها.. وقد بين لنا القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] وهل القوة إلا بالمال والرجال؟ والله عنده أجر عظيم لمن يعصم نفسه من الفتنة ويتبغى فيما آتاه الله، الدار الآخرة.

وإذا كان الحكام والزعماء يفكرون ألف مرة، قبل أن يمنحوا ثقتهم لأحد ويسندوا إليه منصباً رفيعاً، فيختاروا، ويقدموا دائماً خالص الولاء لهم؟ فنحن أولى بالحيطة والحذر «فمن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه».

وإذا كان الزعماء والحكام يتخذون إجراءات ضمان وأمان إضافية، فعلينا نحن أيضاً أن نتخذ «إجراءات أمان خاصة» ولأننا نختلف في مبادئنا وأهدافنا، فإجراءاتنا ستكون بالتأكيد مختلفة.. هم يهدفون لضمان الولاء والتبعية لهم.. ونحن نسعى لضمان الاستقامة والإخلاص للدين والوطن، فلا يزغ ولا ينحرف، ولا يبيع نفسه، ولا يتبع هواه.. ويكون ذلك من خلال تقييد السلطات، وإخضاع كل الشخصيات الهامة لإجراءات الرقابة والمحاسبة.. والعمل المؤسسي السليم، والمهنية البحتة.. ومحاربة الفساد والمحسوبية بكافة أشكالها.

٢- «العاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين، ويقلدهم تماماً ولا أن يحقق ما حققوه من نجاح وتميز. وإلا فإنه إن لم يبلغ حصتهم من العظمة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أي حال. وهو بهذا يفعل مثلما يفعل الرماة المحترفون الذين يصبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يريدونها حينها يكون الهدف بعيداً جداً وهم على علم بمدى الرمي الممكن للقوس الذي يستخدمونه. وهم بالتصويب على ما هو أبعد يصيبون الهدف المقصود تماماً»<sup>(١)</sup>.

هذه الحكمة هي من القلائل التي نوافق مكيا فيللي عليها بالكامل.. فتقليد العظماء

واتباع أثرهم، والسير على منهجهم، والاقتراء بهم أمر محمود ندعو له ونحض عليه. وما من أحد إلا ويتأثر بغيره، إيجاباً، أو سلباً، بشكل جزئي، أو كلي.. ويدفعه هذا التأثير تلقائياً إلى التقليد والمحاكاة.. فالتقليد إذن حالة طبيعية جبلت عليها النفس البشرية.. وكرام النفوس أصحاب الهمم العالية يتأثرون ويقتدون بالأبطال العظماء والعلماء الشرفاء.. أما ضعاف النفوس مخثشي العزم الذين يرضون بالدون، فهم يقلدون السفهاء الجهلة ويتبعون العابثين الغاوين.

إذا علا المرء رام العلاء ويقنع بالدون من كان دوناً

ولما كان الأنبياء هم صفوة الله من خلقه، وأعلمهم من عباده، وأكثرهم صبراً وعزيمة وإقداماً، وفهماً وحكمة، وهم أصحاب القيم الرفيعة والأخلاق الحميدة، والآداب الفاضلة.. فقد أمر الرسول ﷺ بالاقتراء بهم.. فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهدى الأنبياء يشمل: أصول الشرائع التي بعثهم الله بها وعلى رأسها التوحيد، ويشمل زكاء النفس، وسمو الروح، ونقاء وصفاء القلب، وحسن الخلق.

ثم أمر الله المؤمنين بالاقتراء برسولهم ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وهذه الآية جاءت في سورة الأحزاب في معرض الحديث عن المحنة العظيمة والابتلاء المبين الذي تعرض له المؤمنون ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. وفي هذا الزلزلة الشديدة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] لكن رسول ﷺ تميز بشبته ورباطة جأشه، وظهرت حكمته وشجاعته، وحسن إدارته وتعامله مع الأزمة.. فاستحق هذا الموقف العظيم أن يخلد ويقرن تخليده بدعوة المؤمنين للاقتداء برسولهم ﷺ، والسير على دربه والاهتداء بهديه.

وقد أصاب مكيا فيللي حينما قال: «العاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين، ويقلدهم تماماً..» ويتعذر ذلك لاختلاف الزمان والمكان، والأحداث، والرجال.. ومن عجب أن يفقه، ويقدر هذا الأمر «مكيا فيللي» وتجاهله «فئة من المسلمين» من الذين يغالون ويبالغون في الدعوة إلى تقليد الرسول ﷺ، والافتداء به، فيقلدونه في شكليات ما ضرهم، ولا ضر المسلمين والأمة لو تركوها، ويتركون تقليده في أصول لا فلاح لهم وللأمة إلا باتباعها.. يقلدونه في تقصير رداءه، وفي عمامته، وسواكه.

ولا يقلدونه في شجاعته، وصبره، وثباته، وغضبه لانتهاك محارم الله، ونصرته للمظلوم وأخذه على يد الظالم، وشدته في الحق ورحمته بالمؤمنين وكرمه وجوده، وحيائه، وحسن خلقه.

غفر الله لهؤلاء فقد أساءوا للإسلام ولرسوله ﷺ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ويبقى اتباع العظماء والاهتداء بهديهم واجباً مطلوباً «إن التشبه بالكرام فلاح» فإن لم تبلغ ما بلغوه من العظمة والتميز تصبك «نفحة منها على أي حال..». وإذا أردت أن تبلغ هدفك المقصود، وغايتك المنشودة، فيلزمك أن ترنو وتصبو لما هو أبعد منها، حتى تصلها.. تماماً كما «يفعل الرماة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يريدونها..».

٣- «.. إذا ما تفحصنا حياتهم وأعمالهم<sup>(١)</sup> لن نجد أنهم قد ركنوا إلى الحظ في أي شيء. لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسباً. ولولا هذه الفرص لضاعت قدراتهم أدرج الرياح. وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أي معنى..»<sup>(٢)</sup>.

(١) يعني: العظماء.

(٢) الأمير، ص ٣٩.

بين القدرة والفرصة، تقع الغاية، التي لن تدرك إلا بهما معاً.. قد تتأخر الفرصة، أحياناً، لكنها لا بد وأن تأتي، وحين تأتي يفترض بصاحب الهدف والغاية أن يكون متأهباً متجهزاً لاقتناصها.. وإلا فإنها ستفلت من بين يديه، وسرعان ما يلتقطها غيره.. ليبقى هو، يندب حظه ويشكو زمانه ويعلل نفسه بالأمني، والآمال الزائفة.. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «انتهزوا هذه الفرص فإنها تمر مرّ السحاب»<sup>(١)</sup>.

لقد سنحت للحركة الإسلامية عبر تاريخها الطويل فرص عديدة، كان يمكن لها، لو أحسنت استغلالها، أن تكون اليوم في واقع غير الذي هي عليه.

آخر وأهم هذه الفرص الذهبية هي ثورات الربيع العربي، التي فاجأت الجميع بما فيهم الحركة الإسلامية، فلم تكن مستعدة بالشكل المناسب لاستقبالها والتعامل بحكمة وقدرة معها.. ولم يتح لها الآخرون الوقت الكافي كي تمتلك المقدرة وترتب أوراقها.

ولسنا هنا - الآن - في موضع جلد الذات، أو الدخول في افتراضات وجدليات.. لكننا سنحاول دراسة الواقع بموضوعية وتجرد، كخطوة على طريق التسديد والتصويب.

أول خطوة في طريق إضاعة الفرصة تكون بعدم توقع حدوثها، ثم عدم التجهيز وامتلاك القدرة للتعامل الملائم معها. وهذا ما حصل مع الحركة الإسلامية، ويعود ذلك لأسباب داخلية وخارجية، أهمها:

أ - كثرة الأعداء والخصوم المحليين والدوليين، وعظم ما في أيديهم من قوة، وقدرة، وإمكانات، والتقاؤهم على كلمة سواء بينهم، محاربة الإسلاميين، ومعاداتهم... فترى العلمانيين، والليبراليين، والاشتراكيين، يتحالفون مع الأنظمة التي طالما صدعوا رؤوسنا بوصفها بالرجعية والتخلف!

ب- كثرة وشدة المحن والابتلاءات، والملاحظات الأمنية المستمرة، لم تتح للحركة الإسلامية فرصة كي تلتقط أنفاسها، وترتب صفوفها جيداً.

ج- افتقار الحركة للتحالفات الاستراتيجية القوية والمتينة، محلياً ودولياً.. في عصر تعتبر فيه التحالفات عنصر قوة أساسي لا غنى عنه.

د- قلة الكوادر الإسلامية المدربة، وضحالة الوعي السياسي لدى قطاع عريض من أبناء الحركة الذين استغرقوا سنين طويلة في العمل الدعوي والاجتماعي، وعزفوا عن العمل السياسي، ناهيك عن أن الذين يتجهون لدراسة العلوم السياسية، والاقتصاد والإعلام من شباب الحركة الإسلامية، هم غالباً قلة. وقد ساعد على تكريس هذه الحالة، جفاف الحياة السياسية والحزبية في بلادنا العربية، واقتصار ممارسة العمل السياسي في هذه البلدان على رجالات النظام، مما حال دون تمكن شباب الحركة الإسلامية من ممارسة السياسة، والتمرس فيها.

هـ- حرمان أبناء الحركة الإسلامية في معظم البلدان العربية من التقدم الوظيفي، والحيولة دون وصولهم لمواقع حساسة ومؤثرة في الدولة، مما جعلهم يفتقدون للخبرة والتجربة، وخلق ما أصبح يعرف بالدولة العميقة. حيث أن أجهزة الدولة حرام على الإسلاميين، حكر للمنتفعين الفاسدين، أزلام النظام الحاكم.

و- زيادة الخلافات والاختلافات الداخلية، في أكثر من قطر عن الحد المقبول والمستوعب، مما أضعف الحركة، وأربكها، وأفقدتها حيوية العمل. أضف الى ذلك أن آلية اتخاذ القرارات داخل مؤسسات الحركة بحاجة إلى إعادة دراسة وترتيب بما يضمن الحكمة والصوابية في اتخاذ القرارات مع السرعة والتوقيت المناسب.

ز- لما كانت ثورات الربيع العربي حدثاً إقليمياً متدحرجاً، له تأثيرات عالمية واسعة، كان يفترض بالحركة الإسلامية أن تتفاعل معها كحركة عالمية وليس قطرية..

فتضييق خصوصية القطر إلى أبعد حد، وتوسع التنسيق والتعاون العالمي إلى أقصى درجة ممكنة، من خلال:

- رسم خطط واستراتيجيات موحدة وكم كان مفيداً لو أن الإسلاميين شكلوا «مجموعة حكماء» من كبار الخبراء الاستراتيجيين الإسلاميين، وأصحاب الحكمة والتجربة، لدراسة الواقع والمستجدات، ووضع الخطط، والدراسات والتوصيات. انه لا يعقل أن تفتقر حركة بحجم الحركة الإسلامية العالمية لمراكز ومعاهد أبحاث ودراسات عالية المستوى تعمل باختصاص ومهنية بالغة.

- التنسيق الدقيق المتواصل بين أفرع الحركة الإسلامية في كافة البلدان العربية والإسلامية، والعالمية.. عبر آلية محددة، مضبوطة منظمة.

- الاستفادة من كافة القدرات والطاقات والخبرات المشتتة في بقاع العالم، عبر مبدأ «التجميع ثم التوزيع». بتجميع القوى وحصرها، ثم توزيعها - بعد تحديد الدور والمهمة المناطة بكل واحد منها - إلى مختلف الأماكن والجهات المقصودة.

وأسمح لنفسي القول في هذا المقام أننا فشلنا فيما نجحت فيه «الحركة الصهيونية» التي استطاعت أن توظف وتستفيد من كل عناصر القوة اليهودية بشكل ذكي يخدم مصالحها، لأقصى حد.. ولا أقصد أن الطاقات الإسلامية غير فعالة.. انها فعالة، وفعالة جداً ومجدة بشكل يستحق كل تقدير واحترام، لكنها مبعثرة، ومتناثرة، تخدم أهدافاً وجهات عدة، والمطلوب هو حصر الأهداف والجهات المستفيدة في أقل ما يمكن حسب الأولوية، وتركيز كافة الطاقات والقدرات لخدمة هذه الأهداف المحددة. عندها ستكون الفائدة - بلا شك - أكثر وأعظم، والنتائج أفضل وأظهر، وأبين.

وقبل أن أختم هذا الموضوع أذكر مثلاً على حسن استغلال الفرصة، من واقع تجربة حركة المقاومة الإسلامية حماس.. فقد كانت القوة العسكرية لحركة حماس حتى

عام (٢٠٠٠م) في الضفة الغربية، وقطاع غزة، محدودة متواضعة، تمثلها مجموعات صغيرة من المجاهدين، المسلحين بأسلحة بسيطة.. وكانت سلطة «أوسلو» قادرة على اعتقال قيادات الحركة وتعذيبهم والتنكيل بهم، متى يحلو لها.. فلما اندلعت الانتفاضة الثانية، ظنت «سلطة أوسلو» بداية الأمر أن خيوط اللعبة مازالت في يدها.. وأنها ستعيد الأمور الى ما كانت عليه، بعد أن تستفيد من «التصعيد المؤقت» في تحسين شروط التفاوض، مع «إسرائيل».. وسيكون رأس المقاومة المتمثل بشكل أساسي في حركة حماس، هو الثمن الذي ستقدمه لاسترضاء «إسرائيل» واستعادة ثقتها بها.. لكن «حماس» كانت تدرك أبعاد المؤامرة جيداً.. فاقنصت الفرصة السانحة المتمثلة، بضعف قبضة السلطة، بفعل الانتفاضة والمقاومة.. وقامت بتسليح أعداد كبيرة من شباب الحركة في قطاع غزة.. فلما جاءت الساعة التي اعتقدت فيها «سلطة أوسلو» أنه قد آن الأوان لوقف الانتفاضة، وجهت قواتها لاعتقال رموز حركة «حماس» وعلى رأسهم «الشهيد الدكتور عبد العزيز الرنتيسي» فتفاجأت بمئات المسلحين من شباب حماس يحاصرونهم، ويبلغونهم بلسان الفعل لا القول: أن زمن الاعتقال السياسي قد ولى إلى غير رجعة.. فأسقط في يد السلطة، ومن يومها، تقدمت حماس من نصر إلى النصر، وأصبحت قوية عصية على الكسر.

لقد أضعاف الإخوان فرصة أن تكون لهم «قوة» مؤثرة في السودان، عندما وصل الإسلاميون للحكم فيه.. وأضعافوا فرصة مماثلة في أفغانستان، عندما لم يساندوا الدكتور عبد الله عزام، ولم يبعثوا من يخلفه بعد استشهاده، وتركوا هذه الساحة للتكفيريين، وأصحاب الفكر المنحرف، الذين حصدوا ما زرعه الشيخ عبد الله عزام، وخلطوا الأوراق في المنطقة بشكل عبثي غبي.

وأضعافوا فرصة أن يكون لهم «قوة ضغط» في بلد مؤثر سياسياً واقتصادياً..



فلم توجه قيادة الإخوان كوادرها الذين اضطروا إلى الهجرة من بعض البلدان العربية مثل سوريا ومصر نتيجة قمع أنظمتها. للتمركز في بلد معين أو أكثر، ومن ثم بناء «قوة ناعمه» مؤثرة على سياسة ذلك البلد لصالح دعوة الإخوان. فكانت الهجرة عشوائية، والطاقت مبعثرة، والجهود مشتتة وغير منظمة.

وأضاع الاخوان في مصر فرصة تكوين قوة عسكرية تابعة لهم، عندما انهارت أجهزة الأمن الداخلي بما فيها جهاز الشرطة، وانتشرت ظاهرة البلطجية، وأصبح الشعب يبحث عن من يحميه ويحفظ له ممتلكاته.. لو أن الإخوان استغلوا هذه الفرصة بتسليح الآلاف من شبابهم ودفعتهم للعمل كلجان حراسة شعبية.. واثبتوا جدارتهم بحفظ الأمن، لحصلوا على شرعية شعبية، ولكانوا في المستقبل القوة الحامية للثورة، والسد المنيع في وجه الانقلابيين، ولما تجرأ أحد على إيذاء الإخوان والإساءة إليهم.

٤- «المصلح يهاجمه خصومه بحماس شديد في كل فرصة، بينما يدافع عنه الآخرون دفاعاً فاتراً، حتى إنه يواجه خطراً كبيراً جداً وهو ما بين أولئك وهؤلاء. لذلك فإننا إذا أردنا أن نتناول هذه القضية بدقة، لا بد لنا أن نعرف أولاً ما إذا كان المصلحون يعتمدون على أنفسهم، أم أنهم يعتمدون على الآخرين. وبعبارة أخرى: هل هم قادرون على استمالة غيرهم لينفذوا ما وضعوه لهم أم أنهم يستطيعون فرضه؟ ففي الحالة الأولى لن يحققوا سوى فوزاً ضعيفاً. ولا ينجزون شيئاً. أما إذا استطاعوا الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة على استخدام قوتهم فإنهم لا يفشلون إلا فيما ندر. وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم»<sup>(١)</sup>.

قد نتفق مع مكيا فيللي في الشق الأول من هذه المقولة، لكننا بالتأكيد نختلف معه في الشق الثاني.

أما ما نتفق معه فيه فهو أن حركات الإصلاح والتغيير تجابه دائماً بخصومة شديدة، ومعاداة كبيرة من قبل الفاسدين والمفسدين والمتنفعين، الذين يعني تطبيق العدل والنزاهة، والمساواة والشفافية، في المجتمع فقدانهم لامتيازاتهم، ومراكزهم، والحظوة التي يتمتعون بها.. وهؤلاء يملكون - عادة - المال والسلطة، والقوة والسطوة، ولن يتورعوا ولن يترددوا في استخدامها إذا ما استشعروا بأي خطر يهددهم.. فالمواجهة بين الحق والباطل - إذن - واقعة لا محالة، وبالتالي فإن على حركات الإصلاح، إن كانت جادة فعلاً ومصممة على إحداث التغيير، السعي الدؤوب لامتلاك «القوة» والمقدرة للدفاع عن نفسها، وعن الحق الذي تمثله وتحمله، وتسعى لإحقاقه.. وعلى المصلحين أن يعتمدوا على أنفسهم، ولا يرتقبوا النصر من غيرهم، فإنهم إن وجدوا من ينصرهم، ويدافع عنهم، فإن دفاعه سيكون «فاتراً» وقد يكون مشروطاً، وسرعان ما قد يتراجع، وينكفي إذا ما شعر أن نصرته للحق ستجلب له المتاعب والمضار، وتفقده مصالح معتبرة عنده.. فلا بد إذن من الاعتماد على النفس، وامتلاك القوة، فالقوة من الحق بمثابة «الأخ الأكبر» الذي يحمي أخاه الصغير، ويمنعه من أن يتعرض له السفهاء والأشرار، حتى يشب، ويشند عوده. ويرسخ لنا، ويؤكد هذه الحقيقة، قول لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بَكْرٌ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. فمخطئ من يظن أن الحق يمكن أن يسود - يوماً - دون «القوة».

المصلح يحتاج للحكمة والموعظة الحسنة لإرشاد الحيارى التائهين، وتبصرة الجهلة الغافلين، أما الطغاة المستكبرون، المعاندون فهم «قوم يعدلون» يعرفون الحق ويعدلون عنه، ويعادونه ويحاربونه، استكباراً، وعتواً.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فهو لاء لن تصلح معهم الحجة ولا البينة، ولا الحكمة ولا الموعظة الحسنة.. ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ

وَحَشْرَنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿[الأنعام: ١١١].

القوة وحدها، هي التي تردع هؤلاء، وتمنع شرهم وعدوانهم، وتأطرهم على الحق أطراً، هذا ما أثبتته تجربة رسل الله جميعاً مع أقوامهم.. فهذا نوح عليه السلام، لبث في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤] فما آمن معه الا قليل، أما الأغلبية ف﴿جَعَلُوا أَصْدِيقَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرُوا﴾ [نوح: ٧] وهؤلاء قوم شعيب عليه السلام، قالوا له: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وهؤلاء قوم موسى عليه السلام، لم يؤمنوا إلا بعد أن رفع الله فوقهم جبل الطور، وظنوا أنه واقع بهم.. ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وهذه قريش آذت رسول ﷺ، وفتنت المؤمنين عن دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، ولم يستقم أمرها إلا بعد أن قهرتها قوة المؤمنين.. وهذا هو حال الطغاة البغاة المعاندين المستكبرين في كل وقت وحين.

أما ما نختلف فيه مع مكافيلي فهو قوله: «وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم».

فلا يوجد أنبياء مسلحين وأنبياء غير مسلحين.. كل رسل الله، بعثهم الله إلى أقوامهم بمنهج واحد بالبينات والحكمة والموعظة الحسنة.. فمنهم من آمن ومنهم من كفر.. ثم إن الله يستدرج الكافرين الظالمين ويملي لهم حتى إذا جاء أمره، واستحقوا عقابه، أرسل عليهم عذاباً من عنده أو بأيدي المؤمنين، بأن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] والله دائماً ينصر رسله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَلَقَدْ

سَبَقَتْ كَمَا تَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿ [الصفات: ١٧١-١٧٢] فلم يفشل ولم ينهزم ولم يخسر أي رسول، لكن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ونبى الله موسى عليه السلام الذي يستشهد به مكيا فيللي كمثال «للأنبياء المسلحين». طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون لأنه أفصح منه لساناً، وان يحلل عقدة من لسانه كي يفقهوا قوله.. وهذا يدل على اعتماده على الحجة والبينة وليس على القوة والسلاح.. ثم إن الله خاطبه بقوله: ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى \* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى ﴾ [طه: ٤٣-٤٤] فلما أصرَّ فرعون على بغيه وعدوانه، أغرقه الله ومن معه.. ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ﴾ \* فَأَتَتْهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿ [طه: ٧٧-٧٨] فلم يكن موسى مسلحاً ولكنها سنة الله قد خلت في عباده أن ينصر جنده ويهزم أعداءه.

وهذا لا يعني تقليلنا من أهمية «القوة» وقيمتها للدعاة والمصلحين، فسبق وأوضحنا ذلك.. لكن يجب عدم خلط الأمور، وإنما وضعها في نصابها، وسياقها الصحيح المعبر. ٥- «يجب على المنتصر ان يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقت آخر»<sup>(١)</sup>.

هذه المقولة توضح لنا الحد الذي يمكن أن يذهب إليه غير المسلمين، المجردون من القيم والأخلاق والمبادئ، حينما يمتلكون القوة والمقدرة، ويغلبون وينتصرون. إن التاريخ يعلمنا أنهم لن يترددوا لحظة في ارتكاب أشنع الجرائم والمجازر والفظائع. بحق خصومهم، خاصة إن كانوا من المسلمين.. وقد حذر الله المؤمنين من ذلك بقوله: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَا لَآ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨] ويعلق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله «لقد كان

(١) الأمير، ص ٥٤.

هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين.. ماذا صنع المشركون مع محمد ﷺ والمؤمنين به كذلك؟.. إنهم لم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة حتى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم.. وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرناً بالمسلمين في كل مكان؟ إنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد.. إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمن البعيد..»<sup>(١)</sup>.

إن نصيحة ميكافيلي للمتتار أن يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة، تؤكد إباحته للجرائم والفظائع، وسفك الدماء وأنه لا يراعي أخلاقاً ولا قيماً ولا أعرافاً.. وعلى مبدأ ميكافيلي هذا سار ولا زال الطغاة البغاة في مختلف العصور والأزمنة والأمكنة، وأذكر مثلاً من الواقع المعاصر، ما قامت به الحركة الصهيونية من مذابح ومجازر وفظائع، ونهب وسلب للممتلكات، وتدنيس لأماكن العبادة، فكانت كلما دخلت مدينة أو قرية عربية طبقت فيها مباشرة «مبدأ ميكافيلي».. لكنهم مرة واحدة لم يفعلوا ذلك.. عند احتلالهم القسم الشرقي من مدينة القدس عام ١٩٦٧م، حيث اتخذ وزير الحرب الصهيوني آنذاك «موشي ديان» قراراً بإبقاء المسجد الأقصى المبارك تحت رعاية وإشراف دائرة الأوقاف الإسلامية الأردنية.. وذلك خوفاً من ردة فعل إسلامية قوية غاضبة. ومن يومها وحتى يومنا هذا لا زال الجدل دائراً بين قلة مؤيدة له، وكثرة متطرفة، تحمل مبدأ ميكافيلي، تلوم «موشي ديان» وتحمله مسؤولية عدم اغتنام فرصة احتلال القدس، وتهويد الأقصى مباشرة، بعبارة أخرى، «ارتكاب جميع الجرائم دفعة واحدة.. حتى لا يضطر واللعودة إليها في وقت آخر».

وشتان بين قيم هؤلاء، وقيمنا الإسلامية السمحة، الأصيلة، التي تدعو إلى العفو عند المقدرة. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد رأينا ما كان منه يوم فتح مكة من عفو عن آذوه وحاربوه، وناصبوه العدا.. لكن ينبغي أن نوضح أن عفوهم لم يشمل مجموعة من أئمة الكفر وعتاة الشرك، حيث أمر ﷺ بقتلهم أينما ثقفوا.

وهذا درس للحركة الإسلامية اليوم ينبغي أن تعيه جيداً.. فتعفوا وتصفح وتسامح عامة الناس، الذين يعادونها، ويعملون السوء بجهالة.. أما أئمة الكفر، والفساد والضلال، الذين لا أيمان لهم ولا عهد ولا ميثاق.. فهؤلاء ينبغي أن ينالوا جزاء ما كسبت أيديهم من الإثم، ليكونوا عبرة لغيرهم ﴿فِيمَا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن حَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧] وإذا ما اضطرت الحركة للعفو والصفح عن البعض فيجب أن تبقى عينها عليهم، لترى: أيستقيم حالهم، أم يعودوا لسالف عهدهم؟ فان بدرت منهم خائنة، أخذوا بها ولم يمهلوا.

٦- «وأن تكون له قدرة<sup>(١)</sup> على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه. ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناء على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبداً من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه»<sup>(٢)</sup>.

عندما يصل زعيم لسدة الحكم بطريقة غير تقليدية، أي عبر انقلاب، أو في أعقاب ثورة شعبية، فإن عليه أن يدرك أن آمال الشعب وطموحاته، وتوقعاته، ستكون كبيرة.. ولن تقبل منه قرارات باهتة، ولا خطوات مترددة متواضعة، ولن يقنعه التغيير التدريجي، حتى وإن كانت الظروف صعبة، والمعوقات كبيرة، والمتربصون كثير. فقط القرارات

(١) أي: الحاكم.

(٢) الأمير، ص ٥٥.

الحاسمة، والقفزات الكبيرة. والتغييرات الجذرية هي التي ترضي وتنعج الجماهير.. فعلى الرئيس الجديد أن يفهم هذا الأمر جيداً، ويتهياً له، مسبقاً.. ولا يعني ذلك التهور والمغامرة، والقفز في الهواء.. فالخطوات الكبيرة، والقرارات «ذات العيار الثقيل».. تحتاج لدراسة أوسع وأعمق.

إن اتخاذ الرئيس الجديد قرارات كبيرة حاسمة، مباشرة عقب وصوله للحكم، يساعده من عدة اتجاهات:

- يقطع الطريق على معارضيهِ الذين ينتظرون - عادة - حتى تخفت حماسة الجماهير، وتأييدها، والتفافها حول الرئيس الجديد، وتبدأ أخطاؤه بالظهور، ويزداد عدد من خاب أملهم، لعدم حصولهم على ما كانوا يرجونه ويأملونه، فيبدأوا بمهاجمته، وإظهار فشله، وعجزه وارتبائه وتردده.

- تصرف أنظار العامة عن الانشغال بذات الرئيس وخصوصياته، للانشغال بالقرارات الجديدة المؤثرة بشكل كبير على حياتهم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

- تعطي الرئيس فرصة لتوطيد حكمه بشكل سريع، إذ أن الانتظار والتدرج، خاصة في الحالة الثورية، تنبني عليه مخاطر كثيرة، غير مأمونة العواقب.

- تزيد من شعبية الرئيس، وتزيد من التفاف الجماهير حوله، وتعظيمه وتوقيره، وتقديره.

إن على الرئيس أن يتخذ ما يلزم من قرارات لتثبيت حكمه، ودفع الخطر المحدق به، دفعة واحدة، مباشرة عند وصوله للحكم، لأن الفرصة قد لا تسنح له لاحقاً.. لكن هذه القرارات ينبغي أن تتخذ - كما أسلفنا - بعد دراسة معمقة، وبحكمة وحنكة ودهاء.. كي يضمن تمريرها بهدوء، وسلاسة.. ونضرب لذلك مثالين مختلفين من واقع واحد:

الأول: يمثله الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر، الذي وصل للحكم عبر انقلاب عسكري.. فنلاحظ أنه قام مباشرة بعد وصوله للحكم باتخاذ سلسلة من القرارات الكبيرة المصرية المؤثرة، على مختلف المستويات.. من تلك القرارات: مشروع السد العالي، تأميم قناة السويس، قانون الإصلاح الزراعي، محاربة الإقطاع، تشييد عدد كبير من المصانع.. هذه القرارات الكبيرة المتلاحقة، جعلت العامة يشغلون بها، وبآثارها المترتبة على حياتهم اليومية، كما أصبحت حديث الساعة على المستويين المحلي والعالمي.. وجعلت الناس يغفلون عن أخطائه وتجاوزاته، وأعطته فرصة وفسحة من الوقت كي يتخلص من معارضييه خاصة الإسلاميين منهم، ففعل ذلك بكل وحشية وفضاعة، بعد أن ضمن أن ردود الفعل المحلية والعالمية لن تكون كبيرة، مؤثرة.

الثاني: ويمثله الرئيس المعزول محمد مرسي! الذي اعتمد سياسة التغيير التدريجي البطيء، فاصطدمت تغييراته الطفيفة، وقراراته الخجولة، محدودة التأثير، بالواقع المرير، والأحداث المتلاحقة الكبيرة، والخصوم المتربصين الكثير.. فلا هو- بالتالي - نال رضی العامة، ولا قوى نفسه، ولا أضعف خصومه، ولا جبَّ السنة النقد، والسخرية عنه.. وعندما أدرك أن الأمر لن يستقيم له إلا باتخاذ قرارات كبيرة جريئة حاسمة، كانت الفرصة قد فاتت، والوقت تأخر.. وحتى حينها لم تكن قراراته «الفوق دستورية» قد درست جيداً، كما افتقدت طريقة تقديمها للحكمة والدهاء.. فظهر الرئيس حينها مرتبكاً، مهزوزاً، متردداً، مما أضعف ثقة الناس به «بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه».

وكان عليه أن يدرك أنه لن ينجح في تقليص نفوذ «النخب المتنفذة» إلا إذا تزامن ذلك وترافق بقرارات، وعطاءات سخية ترضي وتسعد العامة الفقراء، وتؤكد لهم حرصه على مصلحتهم، واهتمامه الفعلي بهم.. فاذا كسبهم لصفه، سهل عليه حينها التفرغ لخصومه في «النخب المتنفذة» التي تعيق برنامجه، وتشكل خطراً محدقاً به، وتفكيكها واحدة تلو الأخرى، وإعادة تشكيلها من جديد على أسس مغايرة.. أما



في ظل تدمير العامة، أو حتى حياديتهم، فلن يستطيع مواجهة «الخب المتنفذة» التي كانت تشكل ما عرف بالدولة العميقة.

٧- «إذا كانت الأخطاء لا بد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة، حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقى آثارها، أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها»<sup>(١)</sup>.

الأصل في الحاكم أن يتجنب الوقوع في الأخطاء، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. صحيح أنه يجري عليه ما يجري على سائر الناس من الخطأ والصواب.. وصحيح أن الحاكم إذا اجتهد فأخطأ فله أجر وإذا اجتهد وأصاب فله أجران.. لكن ينبغي أن نوضح أن الرعية بأكملها قد تتحمل تبعات خطأ الحاكم، إذا أخطأ، فيما ينالها النفع والخير إن هو أحسن واصاب.. فقد يترتب على قرار خاطئ لحاكم ما إزهاق أرواح، وإهلاك حرث ونسل وفساد أموال وخراب ودمار.. فيما قد يجلب قرار صائب حكيم لحاكم أو زعيم السعادة والرفاه، والخير الوفير لرعيته.. ناهيك أن الناس تتبع حاكمها في الخير والشر والخطأ والصواب.. لذلك لزم أن يمتاز الحاكم بالحكمة والحنكة، وأن يكون صاحب خبرة وتجربة، وأن يتأني في رأيه، ويتثبت قبل أن يتخذ قراره.. وعليه أن يتعد عن الاستبداد، والتهاون، والعجلة، ففي هذه الثلاثة يكمن الخطأ.. وعليه أن يشاور العلماء والخبراء، الذين ينبغي أن يختارهم بعناية فائقة على أساس الخبرة والاختصاص والتجربة والحكمة، وليس لأي اعتبارات أخرى.. قيل للأحنف ابن قيس: بأي شيء يكثر صوابك، ويقل خطؤك فيما تأتيه من الأمور، وتباشره من الوقائع؟ قال بالمشاورة لذي التجارب وفحص زبدة الآراء.<sup>(٢)</sup> عند ذلك ستكون

(١) الامير، ص ٥٥.

(٢) النصيبي، محمد بن طلحة الوزير، العقد الفريد للملك السعيد، ص ٤٣، طبعة ١٢٨٣هـ، المطبعة الوهية - القاهرة.

أخطاء الحاكم قليلة، ولن يحتاج لوصية مكيا فيللي بان تكون «دفعه واحده».

وإذا ما تبين للحاكم خطؤه في قرار اتخذه، فإن يرجع عنه إلى الحق أولى.. فالرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل.. كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: «ولا يمنعك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك، وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم، ولا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل»<sup>(١)</sup>.

لكن يلزم أن نشير هنا إلى أن عودة الحاكم عن قرار خاطئ اتخذه، قد تهز ثقة العامة به، وتجعله يبدو في نظرهم، متردداً مرتبكاً، وسيستغل أعداؤه المتربصون، ووسائل إعلامهم، الحدث للتشهير به، وتأليب الناس عليه، حينها ينبغي أن يكون تراجع عنه عن خطئه مدروساً محسوباً.. أشبه ما يكون بانسحاب عسكري منظم، تماماً كما فعل خالد في مؤتة.. كما أن إتباع «الخطأ» فعلاً حسناً يحوه، أو على الأقل يخفف من أثره السيء عند الناس ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

أما المزاي: فينبغي التفريق بينها وبين حقوق المواطنين التي ينبغي للحاكم أن يؤديها كاملة لأصحابها في وقتها وحينها، دون تسويق أو تلاعب أو تأجيل أو تعطيل.. كما يفعل بعض الحكام والملوك الظلمة الذين يتلاعبون في قوت الناس وحاجاتهم الضرورية، فيمنعونها حيناً، ويمنحونها حيناً.. يحرمونها أناساً ويهبونها أناساً، تبعاً لحسابات ضيقة ومصالح شخصية وحزبية مقيئة. روي أن المنصور قال يوماً لبعض قواده: «صدق الذي قال: أجمع كلبك يتبعك، فقال له أبو العباس الطوسي: يا أمير المؤمنين أما تخشى إن أجمعه أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك»<sup>(٢)</sup>، لكن «المزاي» التي هي توسعة على الناس، وفيها زيادة خير ورخاء لهم فليس ما يمنع

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين، ١ / ٩٤، دار الحديث - القاهرة.

(٢) العقد الفريد، ابن عبدربه، ١ / ٢٨.

أن يختار الحاكم الزمان والطريقة المناسبة في تقديمها للناس مراعيًا بذلك أمزجتهم وعقولهم وما فيه مصلحة البلاد والعباد؛ فالعامة بطبيعتها سريعة النسيان، لها ما في يومها، لا ما كان في أمسها. تستعجل الخير.. وتطمع دائماً بالمزيد فإن أعطيتها كل ما في يدك ولم تجد بعد ذلك شيئاً عندك انفضت عنك، وبحث عن غيرك.. فلا ضير - والحالة هذه - من تقديم المزايا لهم جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها.

٨ - «العامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش، النبلاء بعيدوا النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكرًا فهم دائماً قادرين على تخلص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب.. لذا يجب على الأمير أن يحترس منهم. وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة في سقوطه وقت الشدة.. ولهذا يجب على أي أمير يرفعه الشعب، وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهما كلفه ذلك.. ولا أظن أحداً يمكنه أن يخالفني بناء على الحكمة التي تقول: «من يبني على الشعب يبني على الطين»<sup>(١)</sup>.

أثار موضوع «الكم» و«الكيف» جدلاً واسعاً منذ العصور القديمة، وحتى يومنا هذا.. ويعد «أرسطو» من أبرز الفلاسفة القدماء الذين أثاروا هذا الموضوع.. بدعوته إلى التوازن بين الكيف والكم.

«الكيف» ويمثله - في نظر أرسطو - أصحاب النفوذ السياسي، الذين يرتكزون على قوة الثروة، ونبالة المولد، وسمو التربية.. أما «الكم» فيستمد قوته من الكثرة العددية.. واعتبر «أرسطو» أن الاستقرار في الدولة يتحقق فقط عندما يحدث توازن بين الطرفين «الكم» و«الكيف».. ولا شك أن ما يرضي العامة «الكم» وهو العدل والحرية والمساواة غير ما يرضي النبلاء أو أصحاب النفوذ «الكيف» الذين يسعون دائماً، في

(١) الأمير، ص ٥٧ - ٥٨.

كل زمان وفي كل مجتمع، لأن يتمتعوا بامتيازات خاصة.. غلبة النبلاء وسيطرتهم على الحكم يعنى قيام «أوليغاركية» ستسلب فيها حقوق العامة، وسيعانون الظلم والقهر والاستبداد.. أما إذا سيطرت العامة «الكم» فإن الدولة ستكون أقرب إلى «الديمقراطية» لكنها ستكون في صراع دائم مع «النبلاء» ولن تستطيع فرض الاستقرار وتحقيق الرفاه للمواطنين.. فالموازنة بين «الكم» و «الكيف» إذن، أمر لا مفر منه، ولا غنى عنه.. حتى أن «ماوتسي تونج» الشيوعي، أدرك هذه الحقيقة، فتحالف مع «البورجوازية» واحتفظ لها بدور في ثورته.. ومن أقواله: «فما زالت الصناعة الحديثة في الصين تشكل نسبة صغيرة من الاقتصاد القومي.. وإذا كانت الصين تريد أن تقاوم القهر الإمبريالي وترفع اقتصادها المتخلف إلى مستوى أعلى يجب أن تستخدم كل عوامل الرأسمالية الحضرية والريفية المفيدة للاقتصاد الوطني ولحياة الشعب ويجب أن نتحد مع البورجوازية في كفاح مشترك»<sup>(١)</sup>.

وقد أعادت ثورات الربيع العربي إلى المشهد من جديد قضية «الكم» و «الكيف».. فرأينا كيف تحدثت العامة حكم «النبلاء» واثارت عليه، ونجحت في الإطاحة به، وإسقاطه في أكثر من بلد عربي.. لكن القوة العظيمة التي تمثلها العامة، والتي أثبتت نفسها بجدارة بالغة، وبشكل يستحق كل الاحترام والتقدير، ولم يعد من الممكن تجاهلها والقفز عنها، أثبتت في الوقت نفسه جملة من الحقائق ينبغي لحركات التغيير والإصلاح الوقوف عندها ملياً، لاستقاء العبرة، وتعلم الدرس.

### الحقيقة الأولى:

أن «النبلاء» قوة وتأثيراً لا يمكن، ولا ينبغي تجاهله والاستهانة به، فهم الجهة أو الفئة الوحيدة من الشعب التي استفادت - أيما استفادة - من الحكم الدكتاتوري الاستبدادي في بلادنا العربية، واستحوذت - لسنوات عديدة - على خيرات البلاد،

(١) المدخل في علم السياسة، ص ١٦٧.

وسيطرت على أهم مراكز ومواقع القوة والتأثير في الدولة.. ويمتاز «النبلاء» عادة بأنهم أصحاب خبرة وتجربة وحنكة ومكر ودهاء.. وقد رأينا كيف استخدموا قدراتهم وإمكانياتهم الهائلة، واستطاعوا حرف ثورات الربيع العربي، في أكثر من قطر، خاصة مصر، عن مسارها.. وتحويلها إلى وجهة يرضونها، تحفظ لهم مصالحهم وامتيازاتهم..

### الحقيقة الثانية:

رغم كل ما ذكرناه يبقى «النبلاء» جناء.. وهم فيما بينهم مختلفون متفرقون، متباغضون.. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] إن وجدوا في خصمهم القوة والعزيمة والإرادة، فلا أسرع من أن ينهزموا أمامه، ويستسلموا له.. أما إن وجدوا فيه ضعفاً وتردداً، وارتباكاً.. أجمعوا أمرهم ووجدوا صفهم.. ولم يترددوا في محاربتة بكل ما في أيديهم من قوة وسلاح.

من هنا ينبغي التعامل معهم بكل حكمة وحنكة ودهاء، من خلال:

- جذب واستقطاب الصالحين المخلصين الشرفاء.
- التفاهم والالتقاء على كلمة سواء مع الوطنيين الشرفاء.. حتى وإن اختلفوا معنا في الفكر والاعتقاد، وهؤلاء يمكن الاستفادة من إمكانياتهم وخبرتهم وتجربتهم، واستثمارها في خدمة الشعب والوطن.
- تحديد الشخصيات والجهات الفاسدة المعادية التي لا يرجى صلاحها أو استقامتها.. وهؤلاء ينبغي اعتبارهم عدواً خطيراً متربصاً يجب الحذر والاحتراس منه، والتصدي له، وعدم التساهل أو التسامح مع أي فعل سوء يبدر منه.. والعمل بكل السبل الممكنة على بقائهم متفرقين مختلفين، وعدم السماح بتجمعهم وتوحيدهم.. علماً أن شيئاً لا يمكن أن يوحدتهم غير عدائهم للإسلاميين!
- من الأساليب الماكرة التي تستخدمها الدول في تطهير مؤسسة أو جهاز ما

من العناصر المعادية لها.. قيامها بافتعال أزمة كبيرة داخل هذه المؤسسة أو الجهاز، فيصبح تدخل الدولة أو «الجهات المعنية» حينها أمراً ضرورياً، وأحياناً مطلباً شعبياً لحل هذه الأزمة من جذورها.. فتستغل الدولة الظرف، وتعيد هيكلة الجهاز أو المؤسسة على النحو الذي يروق لها، ويتوافق مع سياستها.. متجنباً بذلك احتجاج واعتراض المتضررين الذين لن يسمع صوتهم، ولن يلتفت إليهم أحد حينها.

### الحقيقة الثالثة:

أثبتت التجربة أن الحكمة التي تقول «الذي يبني على الشعب كالذي يبني على الطين» صحيحة إلى حد ما.. وهذا لا يعني الاستهانة، أو التقليل من قوة وقدرة وعظمة الشعب.. فقد أثبت التاريخ أن الشعوب قادرة على فعل ما كان يعتقد البعض مستحيلاً.. والشعوب العربية والمسلمة، شعوب أصيلة معطاءة، فيها خير كثير، فينبغي الحفاظ والحرص على حب الشعب، ونيل ثقته ورضاه.. لكن يجدر بنا الانتباه إلى أن الشعب لا ولن يكون يوماً على قلب رجل واحد.. فالشعب فيه:

- الفاسدون: الذين يبيعون أنفسهم لمن يدفع لهم، ويجدون مصلحتهم عنده.
- وفيه الجهلة السريعو التأثر والتقلب، وتغيير المواقف.. اليوم معك: وغداً عليك.. اليوم يهتفون لك، وغداً يهتفون ضدك.. وهم كثر في مجتمعاتنا العربية - للأسف الشديد- وهؤلاء «هم قوة المستبد وقوته.. بهم عليهم وصول ويطول؛ يأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغضب أموالهم، فيحمدونه على إبقاء حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعتهم، ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف في أموالهم، يقولون كريم، وإذا قتل منهم ولم يمثل يعتبرونه رحيماً، ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيحونه حذر التوبيخ، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة..»<sup>(١)</sup>.

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ٤١، ط ١، كولونيا - ألمانيا - بغداد ٢٠٠٦ م.

- وفيه المحايدون: الذين لا يبالون لمن تكون الغلبة، ولا يهتمهم من يحكمهم.
- وفيه الجبناء: الذين يعرفون الحق ويحبونه، لكنهم ليسوا على استعداد للتضحية والبذل من أجله.

وفيه المخلصون الأوفياء، الأبطال الشجعان، الذين يضحون بالغالي والنفيس من أجل دينهم ووطنهم ومبادئهم.. ﴿الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وبالتالي فإن على الحركة الإسلامية أن لا تعلق كل آمالها على الشعب.. وقد اختلف مع الذين يقولون: إن العامة لا تستطيع تغيير النظام، وأن النخبة وحدها هي التي تقدر على ذلك.. فقد أثبت الواقع أن العامة استطاعت إحداث التغيير وإسقاط الأنظمة.. ولكنها لا تستطيع الحفاظ على نصرها وإنجازها وتثبيتته وترشيده.. وسرعان ما تفقده وتخسره إن لم تكن هناك نخبة قوية راشدة، تتقدم الصفوف وتتولى القيادة، وتستطيع باقتدار، إدارة دفة السفينة نحو بر الأمان.

٩- «كل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن تستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته لأنها قوات مفككة، ولها مطامعها الخاصة.. وهم ينهبونك في وقت السلم، وينهبك العدو وقت الحرب»<sup>(١)</sup>.

مثال «العراق» و «أفغانستان» أكبر شاهد معاصر على خطورة الاعتماد على قوات أجنبية لتمكين شخص أو فئة ما من الحكم في بلدها.. فهي لن تقدم على ذلك إلا لمصلحة خاصة بها.

ومصالح أميركا في أفغانستان والعراق معروفة.. أما أفغانستان فتمثلت بالتخلص من حكم «طالبان» المحتضن لتنظيم القاعدة الذي يقف خلف ضربات ١١ سبتمبر،

واستبداله بنظام خاضع لإرادتها، في هذه البقعة من الأرض التي سبق وشهدت حرب نفوذ روسي أمريكي عليها.. وأما العراق، فإن التخلص من نظام صدام حسين المهدد للمصالح الحيوية لأمريكا والغرب في منطقة «الخليج النفطي». شكل لأمريكا والغرب هدفاً استراتيجياً.. فاستغلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقامت بغزو العراق وأفغانستان وأسقطت نظامي الحكم فيها، ونصبت مكانهما حكماً موالين لها خاضعين لإرادتها.. ودفعت دول الخليج العربي تكلفة الحرب.. ولما ثقل على أمريكا الثمن الباهظ الذي تدفعه من دماء جنودها، انسحبت تاركة خلفها أنظمة هشّة ضعيفة.. ينظر إليها الشعب وأحرار العالم نظرة احتقار واتهام، وشك وريبة، فهي جاءت على ظهر دبابة المحتل.. وأصبح هذان البلدان مرتعاً خصباً للفتن والقتال، والصراعات والنزاعات والفساد، وهدر الموارد والثروات.

واليوم رأينا كيف «أفاق العراقيون والعالم صباح يوم العاشر من حزيران/ يونيو ٢٠١٤م على انهيار شبه شامل للجيش العراقي (الجديد) في المحافظات الشمالية. فرق عسكرية بأكملها فرت من معسكراتها ومواقعها، وتركت خلفها أسلحة ومعدات بكميات هائلة، في مشهد هزيمة أقرب لمشاهد الحرب العالمية منه إلى مواجهات مع قوى غير تقليدية.

كانت عواقب هذه الهزيمة على الدولة العراقية، دولة ما بعد الغزو والاحتلال فادحة بكل المقاييس، سيطرت جماعات مسلحة من الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، وجنود الطريقة النقشبندية، والموالون لنائب الرئيس العراقي الأسبق عزة الدوري، وثوار عشائريون سنة، وضباط من الجيش العراقي السابق وعناصر ممن تبقى من تنظيمات المقاومة العراقية ضد الاحتلال، على مدينة الموصل. وفي الأيام القليلة التالية، بسط الثوار العراقيون سيطرتهم على مدينة تكريت، وبلدات أخرى في



محافظة صلاح الدين، والتأميم (كركوك). وبدأت محاولة السيطرة على القطاع الشمالي من محافظة ديالى والمدخل الشمالي للعاصمة بغداد، في الوقت نفسه أدى الانسحاب الملموس للقوات الحكومية من محافظة الأنبار إلى اتساع سيطرة الثوار العراقيين من أبناء المحافظة على المزيد من البلدات والمواقع<sup>(١)</sup>.

وعاد النظام العراقي للاستنجد من جديد بأمريكا، وحلفائها.. وهنا حدثت المفارقة العجيبة، حيث جاءت ردة فعل أميركا والغرب - هذه المرة - خجولة، باهتة.. والسر وراء ذلك، أن مصلحة الغرب في هذه المرحلة تقتضي بقاء دول المنطقة في حالة من الفوضى والاضطرابات الداخلية، لتظل أنظمتها مع وجود خطر داهم يهدد أمنها واستقرارها في حالة تبعية كاملة وتعلق دائم بالغرب.

وهذا ما يجعلنا نفهم لماذا توجه أميركا وحلفاؤها ضربات جوية محدودة «لداعش» ولا تعمل من أجل القضاء المبرم عليه.. فرغم أن الغرب يرى في «داعش» عدواً خطيراً يهدد أمنه ومصالحه، إلا أنه يرى في الوقت نفسه أن إضعاف «داعش» وليس القضاء عليه هو ما يخدم مصالحه. فمن جهة تبقى دول المنطقة مستشعرة بالخطر وبالتالي مضطرة للخضوع والتبعية للغرب الحامي. والمنقذ الوحيد لها من هذا العدو الجديد المسمى «داعش».. ومن جهة أخرى تستفيد دول الغرب من «حروب داعش» فوق الاستفادة السياسية والاقتصادية أمراً آخر متمثلاً بتخلصها من العناصر الإسلامية «الغير مرغوب فيها» في الغرب، فتلقي بهم في محرقة، صراع عربي - عربي لا يهتمها فيه القاتل ولا المقتول. وهذا ما يفسر غصّ أجهزة استخبارات هذه الدول الطرف عن سفر ألوف الشباب المسلم منها إلى سوريا والعراق، وقد صرح رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٨/٣/٢٠١٥م أن عدد المقاتلين الأوروبيين في داعش قد يصل إلى عشرة آلاف!

(١) نافع، بشير، في مقالة على الجزيرة نت، ١٩ / ٦ / ٢٠١٤.

وتؤكد تصريحات القادة السياسيين والعسكريين الغربيين هذا التحليل الذي ذهبنا إليه.

حيث كان من اللافت إجماعهم على القول بان الحرب على «داعش» ستستمر زمناً طويلاً، ولن تنتهي في عام أو عامين!

القضاء على بضعة آلاف من مقاتلي «داعش» يحتاج لسنوات طوال فيما احتلال العراق والقضاء على جيش يقدر بمئات الآلاف، مزود بكمية كبيرة من الأسلحة والذخائر لم يستغرق «قوات التحالف» سوى أيام!! فهل قوات التحالف عاجزة حقاً عن القضاء المبرم على «داعش» أم انها غير جادة في ذلك؟

ما سبق يعلمنا درساً في السياسة، عنوانه: كيف تستثمر أفعال جهات معادية لك، وتجعلها تصب في مصلحتك؟

١٠- «من يريد الخير لن ينعم أبداً إذا كان حوله الكثير من الأشرار لذلك يجب على الأمير الذي يريد الحفاظ على نفسه أولاً، أن يعرف كيف يكون خيراً وليس شريراً ومتى يستخدم هذه الصفة؟ ومتى لا يستخدمها حسب الضرورة؟»<sup>(١)</sup>.

كتب ميكافيللي هذه المقولة تحت عنوان «ما يلام عليه الرجال - وبخاصة الأمراء - أو يمدحون لأجله»، وأراد أن يوصل فكرة مفادها أن عالم الواقع يختلف عن عالم الخيال، فذكر أن هناك من تخيل جمهوريات لم ترها عين إنسان<sup>(٢)</sup> وليس لها وجود في الحياة التي نعيشها.. وشتان بين حياتنا كما نعيشها وبين ما ينبغي أن تكون. وبالتالي فإن على الأمير حسب وجهة نظر ميكافيللي أن لا يفترط في الخيرية

(١) الامير، ص ٨٠.

(٢) كالجمهورية الفاضلة لأفلاطون.

فيخسر ملكه لأن حوله الكثير من الأشرار الذين لا يصلح معهم إلا الشر.. وفي المقابل عليه تحاشي أي فضيحة بسبب رذيلة من الرذائل» والتي قد تفقده الولاية» لذا فإن من الضروري أن يكون ذا حكمة كافية تمكنه من الاحتراس فقط من تلك التي قد تسبب هلاكه.. وينصح مكافيللي أميره بألا يعبأ بفضح تلك الرذائل التي قد يضطر لاقترافها. والتي يصعب بدونها المحافظة على ولايته! ويختم حديثه بالقول: «إن بعض ما يبدو فضائل قد يهلكنا لو طبقناه، والبعض الآخر الذي يبدو من الرذائل قد يسبب سلامة الإنسان وسعادته»<sup>(١)</sup>.

ولو نظرت إلى معظم قادة وزعماء العالم لرأيتهم غارقين حتى آذانهم في الرذائل.. وكل واحد منهم يعتقد أن لديه من الحكمة والفتنة والدهاء ما يمكنه من ستر «رذائله» حتى لا تفضح وتتسبب في هلاكه أو ذهاب سلطانه.. لكن رغم «حكمتهم ودهائهم» إلا أن الفضائح كثيراً ما تفتضح بخطأ من أحدهم، أو بكيد كائد.. والأمثلة أكثر من أن تذكر، حسبنا منها هنا، مثلاً من «دولة الكيان» أن رئيس دولتهم السابق «موشي كتساف» يقبع الآن في السجن بسبب فضيحة جنسية، ورئيس حكومتهم السابق «يهود أولمرت» أسقطته «فضائحه المالية» وقضت على مستقبله السياسي، وستلقي به قريباً في السجن.

ويشكل تسريب التسجيلات المنسوبة للسياسي والمقربين منه نقلة نوعية، وحدثاً مهماً - رغم محدودية تأثيرها حالياً - في عالمنا العربي الذي تعتبر «دائرة الزعيم» فيه محكمة الإغلاق، وعالمماً مجهولاً يتعذر اختراقه، والاقتراب منه دونه خطر القتاد.

وإذا ما تحدثنا عن «الفضائل» و«الرذائل» من الناحية الشرعية، فإنه لا يختلف

(١) الأمير، ص ٨١.

اثنان أن الاسلام يأمر بالفضائل وينهى عن الرذائل، ويذم فاعليها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وأولى الناس بالتزام الفضائل واجتناب الرذائل هم الحكام وأولو الأمر.. عن الأصمعي قال: يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء<sup>(١)</sup>، وكما يقول الرافعي: «إذا فسق الحاكم، فقد حكم الفسق»<sup>(٢)</sup>.

فحري بالأمر أن يمتاز باستقامته وحسن خلقه، حتى يكسب حب الناس وتأيدهم، وتقديرهم.. أما إن ظهر للعامة فساد الحاكم، وسوء خلقه، فسينقمون منه، ويبغضونه، وسيخذون ذلك ذريعة ليتجرؤا على انتهاك محارم الله.

فلا يوجد سبب في الدنيا يبرر لأحد- خاصة الأمير- ارتكاب الرذائل.. والمبررات التي يسوقها ميكافيللي واهنة واهية.. لا قيمة لها، ولا اعتبار، في شرعنا الإسلامي.

غير أن علينا أن ندرك أن في الدنيا أختياراً وأشراراً، وخلقاً بين ذلك كثيراً.. ومع أنه ينبغي مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.. لكن أصنافاً من الناس لا يتركون لك مبرراً إلا استخدام الغلظة والشدة معهم، فهؤلاء لا يستقيم حالهم إلا بالقوة، أما اللين والعمو والتسامح، فإنهم يعدونه ضعفاً وانهزاماً، مما يجعلهم يمعنون في غيهم وضلالهم.. فلا مناص إذن من الغلظة والقوة والشدة.. ولا يعد ذلك من «الرذائل التي قد تسبب سلامة الإنسان وسعادته» كما يقول ميكافيللي.. بل هي من الفضائل.. فليس منها من شاء ما شاء: قوة، تعسفاً، قمعاً، كتباً

(١) العقد الفريد، ص ٣١.

(٢) الرافعي، محمود صادق، كلمة وكليمة، بعناية: بسام العجايي، ص ٩٧، ط ١٤٢٢ هـ، دار ابن

للحريات، تكميماً للأفواه.. ما دام الله قد أمر بها في موطنها ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: ٩]، [التوبة: ٧٣] وقال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] وقال تعالى ﴿وَلَمِنَ أَنْصَرٍ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

وأضرب مثلاً من واقع التجربة المصرية، حيث قابل الرئيس المعزول محمد مرسي - فرج الله كربه - إساءة وسخرية، وبهتان، وإهانة سفهاء، وشياطين الإعلام المصري له باللين والعتو والصفح «أتصدق بعرضي عليهم!!» وتبين اليوم لكل ذي عينين أن تسامح، وسعة صدر الرئيس مرسي لم تكن في مكانها الصحيح، وأنه كان ينبغي مواجهة هؤلاء المأجورين من البداية بالشدة والغلظة، والأخذ على أيديهم، ووقفهم عند حدهم، وكف ألسنتهم السوء.

إن في سيرة الرسول ﷺ درساً ينبغي أن تفهم أبعاده، جيداً.. فقد أمر رسول الله ﷺ أحياناً، وأبدى رضاه أحياناً أخرى بالتخلص من شخصيات مؤذية مسيئة لشخصه ﷺ وللإسلام.. ومن أمثلة ذلك:

• عصماء بنت مروان التي كانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعيب الإسلام، وقالت في ذلك شعراً، فنذر الصحابي عمير بن عدي ليقتلها، فدخل عليها بيتها، ووضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها، وأتى فصلى الصبح مع النبي ﷺ فلما انصرف نظر إليه وقال: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم يا رسول الله، فقال نصرت الله ورسوله يا عمير، فقال: هل عليّ شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: لا ينتطح فيها عزان.. وقال لأصحابه: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي<sup>(١)</sup>.

(١) الغضبان، منير، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص ٣٤١-٣٤٢، ١٩٨٤م، مكتبة المنار - الأردن.

• أبي عفك اليهودي: وفي الطريقة نفسها وللأهداف ذاتها، وبعد شهر واحد من مقتل عصماء بنت مروان، (وكان شيخاً من بني عمرو بن عوف وقد بلغ عشرين ومئة سنة، وكان يحرض على عداوة النبي ﷺ، ولم يدخل في الإسلام، وقال في ذلك شعراً.. فنذر سالم بن عمير الأنصاري - أحد البكائين من بني النجار - ليقتلنه أو يموت دونه، وطلب له غرة، حتى كانت ليلة صائفة، ونام أبي عفك بالفناء في بني عمرو بن عوف فأقبل سالم بن عمير فوضع السيف على كبده حتى قتله<sup>(١)</sup>).

• كعب بن الأشرف، من بني قينقاع، وفي ذات السياق تم قتله، وذلك بعد أن قال الرسول ﷺ من لي بابن الأشرف فقد آذاني: فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، وأنا أقتله، قال: فافعل، وأمره بمشاورة سعد بن معاذ.. وخرج لقتله: محمد بن مسلمة وأبو نائلة ملكان بن سلامة.. في نفر من الأوس، وعادوا برأسه إلى الرسول ﷺ.

• سفیان بن خالد الهذلي: وقتله لذات السبب عبد الله بن أنيس، بعد أحد.

• سلام بن أبي الحقيق: وقتله عبد الله بن عتيك ومعه نفر من الخزرج.

كل هؤلاء وغيرهم قتلوا لأنهم سخروا ألسنتهم لحرب الإسلام، والصد عن دين الله وإيذاء رسول الله ﷺ والمؤمنين.

١١- «يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة ما دامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولايتهم له، وذلك لأنه حين يكون شديداً مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات وتسيل الدماء ويحدث النهب والسلب وهذه أمور تضر الكثيرين بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤدي أحداً غيرهم والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من في حاجة شديدة دون بقية الأمراء للاشتهار بالشدة..»<sup>(٢)</sup>.

(١) المنهج الحركي، ص ٣٤٢.

(٢) الأمير، ص ٨٥.

هذه المقولة أوردها مكافيللي في كتابه تحت عنوان: «حول الشدة واللين هل من الأفضل أن تكون محبوباً أم مهاباً؟» وبالطبع فإن مكافيللي يفضل أن يكون الأمير مهاباً، ويضرب مثلاً على نجاح الشدة بقيصر «بورجينا» الذي كان يوصف بالشدة «وشدته هي سبب جلب النظام إلى «رومانا» وتوحيدها، واستتباب الأمن فيها، وضمان ولائها» ونحن نخالف مكافيللي في اعتقاده بأن الجمع بين الأمرين «المحبة والمهابة» أمر متعذر، فالواقع أثبت إمكانية ذلك.. فمن من المسلمين لا يشهد لأبي بكر وعمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وصالح الدين الأيوبي.. الخ بالمحبة والمهابة؟

إن الإسلام يعتبر اللين والرحمة والرفق بالرعية، أصل ثابت، من أصول الحكم، ينبغي لولي الأمر، الالتزام به.. وإذا كان القرآن الكريم قد أمر الرسول ﷺ، وهو النبي المرسل، بذلك، فمن باب أولى أن يلتزم الأمراء، والحكام، بما أُلزم الله به نبيه.. قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين، عند الله، على منابر من نور. عن يمين الرحمن عز وجل. وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»<sup>(١)</sup>. وعن عبد الرحمن بن شماسه، قال: أتيت عائشة رضي الله عنها أسألها عن شيء، فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير، فيعطيه البعير. والعبد، فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة، فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعي الذي فعل في محمد بن أبي بكر، أخي، أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول في بيتي هذا «اللهم! من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم، فاشقق عليه. ومن

ولي من أمر أممي شيئاً فرفق بهم، فافرق به»<sup>(١)</sup>. ولكن اللين والرحمة والرفق والرأفة، لا تعني بحال عدم تطبيق القانون على المخالفين ولا ترك العنان للفاسدين والمفسدين، يفعلوا ما يحلو لهم دون حساب أو عقاب.. الرحمة يجب أن تكون في موطنها مع من يستحقها، والشدة يجب أن تكون في موطنها مع من يستحقها.. الرحمة واللين ينبغي أن تكون بالفقراء والمساكين والضعفاء والمرضى، وأصحاب الحاجة، والذين يعملون السوء بجهالة، وهم على استعداد للتوبة والاستقامة والإنابة.. وليست للفاسدين المفسدين السفهاء، الذين يسعون في الأرض ليفسدوا فيها، ويظلموا عباد الله.. فالشدة، والشدة وحدها، هي العلاج الأمثل والدواء الأنجع لهؤلاء.

ولقد عرض لنا القرآن الكريم صورة غاية في الدقة تجمع بين الشدة واللين على نحو متزن مضبوط، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَيِّحُنَّ حُذَّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَثَيْنَهُ لُكُوفٍ صَدِيدًا \* وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً \* وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٣].

فقد أمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة «بجد وعزيمة واجتهاد» وحتى لا يفهم أن القوة «قوة السلطة» تعني البطش والتجبر والغلظة والفظاظة، أتبع السياق هذا الأمر مباشرة بقوله «وحناناً من لدنا وزكاة» قال جمهور المفسرين «الحنان» الرحمة والشفقة والعطف والمحبة، حنان وعطف ولين ورحمة من لدن الله عز وجل أفرغها في نفس يحيى عليه السلام إ فراغاً، «وزكاة»: وخلص وصفاء نفس، وحتى تحدث الموازنة بين «القوة» والرحمة واللين، كان لابد من ضابط يضبط هذه العلاقة حتى لا تطغى إحداها على الأخرى. فلا يأتي اللين - أحياناً - في موضع الشدة، ولا تأتي الشدة - أحياناً - في موضع اللين. وهذا الضابط هو «التقوى» «وكان تقياً» فالتقوى هي الحكم الضابط والموازن، وهي صمام الأمان ورأس الأمر كله<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم، ١٨٢٨.

(٢) انظر كتابنا «تأملات قرآنية» ص ٣٤.



وفي هذا السياق يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يصلح لهذا الأمر إلا اللين في غير ضعف، القوي من غير عنف»<sup>(١)</sup>.

١٢- «على الأمير أن يحذر من كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال»<sup>(٢)</sup>.

على الحاكم، وكل سياسي بارز، أن يعلم أنه ليس كسائر الناس، وأن كل كلمة وكل فعل محسوب عليه.. وأن الأعين والآذان موجهة نحوه، متربصة به.. فعليه أن يدقق في كل تصريح يصدر عنه: أو فعل يقوم به، ويحسب جيداً إن كان هذا التصريح أم الموقف يخدم مصلحته، ومصلحة الجهة التي يمثلها، أو يضرها.. ولا يعني ذلك أن يتحول السياسي إلى آلة مبرمجة على نحو نمطي تنطق وتتحرك، بتوجيه الآخرين لها.. لكن المقصود: التأنى، والتحلي بالحكمة، لقطع الطريق على المتربصين المغرضين.. والإسلاميون أكثر الناس حاجة لأن يدققوا ويحسبوا جيداً كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال.. لأنهم الأكثر خصوماً، والناس لا يتقبلوا منهم ما يمكن أن يتقبلوه من غيرهم من أخطاء، وزلات، وسقطات.. والمتربصون بالإسلاميين لا يكتفوا بتتبع سقطاتهم وعثراتهم، وإنما يعمدوا إلى تحريف أقوالهم، وتزييفها واجترائها، وذلك ضمن حملة تشويه وتشهير ممنهجة مبرمجة.. وقد رأينا كيف استغلت وسائل الإعلام المصرية المأجورة تصريحاً للدكتور عصام العريان، القيادي البارز في جماعة الإخوان المسلمين في مصر - فرج الله كربه - بدعوة يهود مصر العودة إليها من فلسطين المحتلة، وتعويضهم على ما خسروا من أملاك.. فتلقفت وسائل الإعلام، ذلك التصريح، وحرفته، وزادت عليه وأنقصت منه، ثم وظفته للطعن والتشويه، والتشهير

(١) العقد الفريد، ١ / ٢٤.

(٢) الأمير، ص ٨٦.

به وبجماعته «الإخوان المسلمين».. ومع أن الدكتور العريان لم يخطئ إلا أن توقيت التصريح لم يكن مناسباً، فقد جاء في وقت حساس، كان ينبغي فيه تجنب الدخول في قضايا مثيرة للجدل، كما أنه لم يكن من داع له. ولا فائدة ترجى منه.. فيهود مصر لن يعودوا إليها طائعين من فلسطين، ولو قدمت لهم كنوز الأرض وذات الأمر حدث مع الدكتور محمود الزهار، عندما ذكر في معرض مقابلة معه، أن حواراً قد جرى بينه وبين «رايين» بحضور شخصيات من فتح، في مطلع الثمانينات.. فتلقت بعض وسائل الإعلام المصرية والفلسطينية، هذا القول، وحرفته، واجتزأته، وعرضته كدليل على أن حماس تفاوض الاحتلال منذ الثمانينات!! متجاهلة، أن الدكتور الزهار قد أجبر على هذا اللقاء، لأنه حدث وهو في المعتقل!

ورغم أن وسائل «الإعلام المغرضة» لم تنجح في التأثير على الرأي العام الفلسطيني، الذي يعرف حماس جيداً، وفعلها الجهادي، البطولي يقطع قول كل متقول.. إلا أنه لم يكن من داع لذكر هذه القصة، فالأولى ترك ما يريب إلى ما لا يريب.. وفي ذات السياق جاء تصريح الدكتور موسى أبو مرزوق في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤م، أن الحركة قد تضطر إلى إجراء مفاوضات مباشرة مع إسرائيل، لأنها أصبحت مطلباً شعبياً في غزة، وهي ليست محرمة من الناحية الشرعية.. وقد أثار هذا التصريح عاصفة سياسية كبيرة، ولغطاً كثيراً.. كان الفلسطينيون في غنى عنه.. ولا شك عندي، أن هذا التصريح - مهما كان القصد منه - بالمطلق، غير موفق.. فقد جاء ودماء شهداء غزة لم تكن قد جفت بعد.. وغزة قد خرجت من المعركة، عزيزة منتصرة، معلية خيار المقاومة، دافنة خيار المفاوضات.. فأى حكمة تدفع قيادياً في «حماس» ليعيد نفخ الروح في جسد ميت قد دفنه الشعب ونعاه إلى مثواه الأخير؟!!

ويعتبر رئيس السلطة «محمود عباس» من أكبر الشخصيات السياسية إثارة للجدل

والانتقاد، فكثيراً ما أوقعت تصريحاته ومواقفه في الحرج أمام الجماهير، التي تستفزها وتثير غضبها مثل هذه المواقف والتصريحات، من ذلك:

وصفه لصواريخ المقاومة «بالعبثية» ووصفه لإحدى العمليات الاستشهادية بـ«الحقيرة» واستنكاره لكثير من عمليات المقاومة، وتقديمه العزاء لعائلات شهائنة استهدفتهم المقاومة.. وأخيراً وليس آخراً.. ذهابه إلى باريس ومشاركته في تشييع قتلى الهجوم على صحيفة «شارلي أبيدو» الساخرة، التي نشرت صوراً مسيئة لرسولنا محمد ﷺ وقد لاقت هذه الخطوة استياءً فلسطينياً واسعاً، حتى أن مظاهرة حاشدة خرجت عقب صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، هتف بها الآلاف بشعارات منددة بالرئيس «عباس» وسلطته وأجهزته الأمنية.

١٣- «..وَألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل»<sup>(١)</sup>.

إن أهم صفتين ينبغي توفرهما في القائد، هما: العلم والقوة:

• العلم: صديق كل امرئ علمه، وعدوه جهله، ولا يصلح للقيادة والرئاسة، جاهل، قليل الخبرة والتجربة والمعرفة.. فجعله إن لم يفشله، جلب له المتاعب، والمشاكل والأزمات.. فيما علمه يرشده، ويهديه وينير طريقه، ويشرفه أمام شعبه، وأصدقائه، ويعينه على خصومه وأعدائه.

• القوة: القيادة مهمة عظيمة، شاقة، لا يصلح لها الجبناء ولا الضعفاء.. والناس بطبيعتهم تفتنهم القوة، ويستهوهم القوي، فينجذبون إليه ويعظمونه، ويوقرونه، وينفرون من الضعيف، ويزدرونه.

هذا مصطفى كمال أتاتورك ما كان ليصل إلى ما وصل إليه من مكانة، لولا

(١) الأمير، ص ٨٦.

خلفيته العسكرية، وما نسب إليه من انتصارات وبطولات، حتى قال فيه شوقي: يا خالد الترك جدد خالد العرب! والخلفية العسكرية لجمال عبد الناصر، هي التي جلبت له الشعبية التي حظي بها على مستوى الوطن العربي.

وهذا عبد الفتاح السيسي: ليس فيه ما يميزه غير «بزته العسكرية» التي استهوت الكثيرين، لدرجة أنهم كادوا يعبدوه لأجلها! غير أن الشجاعة تحتاج للحكمة حتى تضبطها، فلا تصبح تهوراً واندفاعاً غير محمود.

ومن أهم لوازم الحكمة الضابطة للقوة والشجاعة، الموازنة بين الثقة بالآخرين والحذر منهم «فلا تجعله الثقة يهمل الحذر، ولا تجعله الريية الزائدة غير محتمل» فإنه ثمة نوعان من الأغبياء - كما قالت الحكماء - «أولئك الذين يشكون في كل شيء، وأولئك الذين لا يشكون في شيء».

قيل لعمر بن العاص رضي الله عنه: ما العقل؟ قال: «الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان».

ويمكننا أن نستنبط قاعدة ضابطة للعلاقة بين «الثقة» و«الحذر» من قول الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ أَلَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]. ففي هذه الآية عاتب الله رسوله ﷺ، لأنه أذن «للمعذرين» يوم أن استنفر الناس لغزوة تبوك، دون التأكد من صدق أعذارهم.. ثم حدد النص القرآني، المعيار الذي ينبغي للرسول ﷺ العمل به، في الحكم على صدق الناس أو كذبهم، من خلال القاعدة التالية: الصدق يحتاج إلى التبين والكذب إلى العلم. فحتى تشهد لشخص ما بالصدق، ومن ثم تعطيه ثقتك، يلزمك أن «تتبين» أي أن تتوفر لديك البيّنات «الدلائل الواضحات» التي تثبت ذلك.. أما الشهادة بكذبه فتحتاج إلى العلم، أي اليقين، ويكون ذلك بالدليل القاطع.

فالخطأ في العفو خير من الخطأ في الإدانة.. وقد رأينا نماذج كثيرة من الحكام والرؤساء أفقدتهم ثقتهم التي لم تكن في محلها بالآخرين، مناصبهم، وأحياناً رؤوسهم فكثير هم الزعماء الذين أطاح بهم أقرب المقربين منهم بانقلابات عسكرية.. ونعود مرة أخرى لنذكر بمثال الدكتور محمد مرسي - فرج الله كربه - مع مؤسسة الجيش، ووزير دفاعه «السيسي».. حيث منحهم ثقته، مهملًا: «الحدزر» فكانت النتيجة المعروفة.

كما رأينا كيف حول الإفراط في الريبة كثيراً من الزعماء إلى شخصيات «لا تطاق» يكرههم كل من حولهم من أعماق قلوبهم، فيما يرضونهم بأفواههم، ومعسول كلامهم.

١٤ - «إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون. وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التي تتفكك عندما تؤدي غرضها (وذلك بسبب أنانية الناس) لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً»<sup>(١)</sup>.

سبق وتحدثنا حول موضوع «المحبة» و«المهابة» وتناول ميكافيلي لهذا الموضوع من زاوية ما أسماه «بأنانية الناس» التي تجعلهم يسيئون لمن يحبون بدافع المصلحة، فيما هم «يفرقون» أمام من يهابون.. وبناءً على ذلك اعتبر ميكافيلي «استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً» ويصدق هذا القول - أحياناً - عندما يتعلق الأمر بالعامه والدهماء.. فقد وجدنا الناس في كثير من دولنا العربية يلجم الخوف من الحاكم أفواههم، ويخرس ألسنتهم.

ووصل الحد بالبعض أن يخاف انتقاد النظام حتى في بيته، أمام أهله! وأصبح أحدهم يتصور أن كل من حوله مخبرون يترصدونه، ويحسبون عليه حتى أنفاسه!

فيما رأينا كيف أساء بعض «العامّة» أيما إساءة، للإسلاميين في عدد من الأقطار، خاصة مصر، رغم حبهم لهم، لا لشيء إلا أنهم اعتقدوا أن مصلحتهم المادية عند غيرهم.

لكن علينا أن نؤكد على حقيقة، أثبت الواقع صحتها، وهي أن سياسية «المهابة والخوف من العقاب» إذا تم المبالغة فيها، يمكن أن تفشل، كما حدث في ثورات الربيع العربي، حين تمرد الناس، وكسروا حاجز الخوف والمهابة..

وبالتالي لا يمكن قبول مقولة ميكافيللي هذه على إطلاقها، والأصوب والأصح، المزوجة بين سياسة «الخوف من العقاب» وتوعية العامة وإقناعهم أن مصلحتهم الحقيقية مع الفئة المؤمنة التي طالما تحملت الأذى والابتلاء في سبيل عزتهم ورفعتهم وكرامتهم.

١٥- «.. أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلاً، وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر، كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادياً لهم»<sup>(١)</sup>.

نعم قد يستطيع الغادر الماكر الوصول إلى بغيته، والتغلب على خصومه، حين يخون عهودهم، وينقض ميثاقه معهم، على حين غرة وغفلة منهم.. لكنه سيبقى في نظر نفسه، وفي نظر أتباعه، وفي نظر خصومه، وفي نظر الناس أجمعين غادراً خائناً، مخادعاً.. ثم إن غدره ومكره وخداعه لا بد أن ينقلب - يوماً - عليه ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوَّرُ﴾ [فاطر: ١٠].

نعم قد نجح «السيسي» بغدره، ونكثه، ونقضه العهد، خداع «مرسي» الذي جعل الأمانة هادياً له، واستطاع التأثير على عقول بعض العامة، بما لديه من مكر.. لكنه

يدرك في قرارة نفسه أنه خائن غادر، لذا تراه مراراً وتكراراً، يحاول دفع هذه الصفات، التي التصقت به عن نفسه، وهو لا يدري أنه بذلك يدمع بها نفسه! وكل مصري، وكل عربي، وكل مسلم، وكل إنسان حر، يعلم أنه خائن غادر.. ولقد قالها في وجهه الرئيس التركي رجب طيب أردوغان.. وسيبقى عَارُ الغدر والخيانة يطارده إلى يوم القيامة.. وإني على ثقة ويقين أنه لن ينجو بغدرته هذه، وأن عاقبة أمره ستكون خسراناً.. خسران في الدنيا، وخسران في الآخرة.. سيظل في دنياه - قبل القصاص - خائفاً يترقب.. أما في آخرته، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَبْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة»<sup>(١)</sup>.

لكن غدر الآخرين، ونقضهم العهد والميثاق لا يعني بحال أن نتخلق نحن بمثل أخلاقهم، بل يفرض علينا أن نتميز عنهم، ونتمسك بقيمتنا وأخلاقنا ومبادئ ديننا الحنيف، ودعوة الناس وحثهم وحملهم على التخلق بها.. فالوفاء بالعهد أصل ثابت في ديننا ﴿.. وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وعن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي (أي عهداً) ثم غدر..» الحديث<sup>(٢)</sup>، وقد كان أكثر الناس قبل الإسلام وبعده، ينقضون العهد، ويغدرون، ويخدعون: ﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَتَدُّهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ومع ذلك أمر المسلمون بالمحافظة على العهد والوفاء بها، وعدم نكثها حتى وإن كان في ذلك مكسباً ومصلحة بينة لهم.. لكن هذا الخلق الإسلامي العظيم لا

(١) أخرجه مسلم، ١٧٣٨.

(٢) أخرجه البخاري، ٢٢٢٧.

يعني بحال أن يمتاز المسلمون بالسذاجة والبلاهة، ويتيحوا الفرصة لخصومهم ليستغلوهم، ويخدعوهم.. بل إن الشارع يلزم المسلمين:

• أخذ الحيطة والحذر ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَانْفِرُوا

جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

• نبذ العهد لمن يعلم المسلمون تبييتهم الغدر والخيانة ﴿وَأَمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ

خِيَانَةً فَاذْنَبْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

• ربط الالتزام بالعهد بالالتزام الطرف الآخر.. ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا

لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

• عدم التساهل والتسامح مع من ينقض العهد، وإيقاع أشد العقوبة به.. ﴿أَلَا

نُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۗ  
فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَمِتْلُوهُمْ \* يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُهُمْ  
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣-١٤].

ولقد رأينا كيف قابل الرسول ﷺ نقض بنو قريظة لعهدهم معه، حيث حكم

فيهم سعد رضى الله عنه أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية والنساء وأن تقسم أموالهم

ورأينا كذلك رده ﷺ على غدر بني بكر، بتحريض من قريش «لخزاعة» التي كانت في

حلف الرسول ﷺ حيث انتصر لخزاعة. وترتب على ذلك فتح مكة.

من هنا ينبغي على الحركة الإسلامية، حين تعقد عهداً أو اتفاقاً مع جهة ما:

• أن تعرف مع من تعامل.

• وأن توثق هذا الاتفاق.

• وأن تأخذ الضمانات اللازمة.

• وأن تبقي عيونها، دائماً مفتوحة متيقظة.



• وأن تتوقع الغدر والخيانة، في كل لحظة، وتحسب حساب ذلك، مجيبة على السؤال: ماذا لو غدروا بنا؟

• أن تُعلم من تتعاهد معه «قولاً وفعلاً» أنها لا تتساهل ولا تتهاون مع المخادعين الغادرين الخائنين وأن حسابهم سيكون عسيراً.

وليكن شعارها: إن استقمتم استقمنا، وأن غدرتم انتقمنا كما قال الشاعر:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

١٦- «الغاية تبرر الوسيلة»<sup>(١)</sup>.

الرغبة وحدها لا توصل إلى الغاية.. الغاية العظيمة تحتاج لعزم وتصميم وإرادة واقدام.. وتحتاج لتخطيط سليم وتنفيذ دقيق.

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

أمام الغاية العظيمة - عادة - ما يقف المرء أمام خيارين، وعليه أن يختار: الطريق القصير السهل اليسير.. أو الطريق الطويل الصعب الشاق.. ولكل طريق ثمن لا بد أن يدفع.. الطريق الأول ثمنه من الكرامة والقيم والأخلاق والمبادئ. أما الطريق الثاني، فثمنه تعب وألم ومحن وابتلاءات.

الإنسان المادي، الذي لا يقيم وزناً للقيم والأخلاق والمبادئ، لا شك سيفضل الطريق الأول، وسيقدم له ثمنه عن طيب نفس! أما أصحاب القيم والأخلاق والمبادئ، فسيفضلون الطريق الثاني، الطويل، الصعب، الشاق.. لان الكرامة والقيم والأخلاق والمبادئ أعلى ما يملكون.. لا تقدر عندهم بثمن ولا يقايضونها بشيء من عرض الدنيا مهما عز، وغلا.

(١) الأمير، ص ٩١.

لما خير يوسف عليه السلام، بين الثمين، اختار دون تردد، أن يدفع ثمن المحنة والابتلاء، على ثمن الكرامة والاخلاق والمبادئ.. ﴿قَالَ رَبِّ اللَّيْلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] ولما خير شعيب عليه السلام: ﴿لِنُخْرِجَكَ وَيُشْعِبُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف: ٨٨] كان خياره: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْبَارِ نَجْمِنَا اللَّهُ مِنْهَا \* وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الاعراف: ٨٩].

وهذا رسولنا ﷺ، تعرض عليه قريش الملك والمال، والجاه..، على أن يترك دينه الذي جاء به من عند الله فيقول ﷺ: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته». قال ابن إسحاق: اجتمع أشرف قريش من كل قبيلة، عند الكعبة فقالوا للرسول ﷺ: إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رثياً، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال لهم رسول ﷺ: ما أدري ما تقولون ما جئتمكم بما جئتمكم به لطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

وعلى درب الأنبياء سار ثلة من الدعاة والعلماء.. منهم سيد قطب رحمه الله الذي خير بين الوزارة والمشنقة، فسار نحو المشنقة، واثق الخطوة مبتسماً.. مقدماً

(١) ابن هشام، ٢٩٦/١.

مبادئه التي آمن بها على رقبته.. وهو القائل: «الطريق الى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطاء وعلى هيبة وفي طمأنينة. ثم يكون دائما ما يريد الله أن يكون.. والزراعة قد تسقى عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ، وقد يغرقها الري، ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرع للبقاء والنماء، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل، فلا يعتسف ولا يقلق، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودود.. إنه المنهج الإلهي في الوجود كله» إنه الطريق ذاته الذي «تعب فيه آدم، ونوح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وهو طريقنا، طريق الدعوة، ورثة الأنبياء إلى أن تلقى الله، لا نزيغ ولا نبدل تبديلاً.

لقد جاءت ثورات الربيع العربي كاشفة فاضحة، ميز فيها أصحاب المبادئ والقيم والأخلاق، من المدعين الكذابين الأفاكين «الميكافيليين».. كان يمكن للإخوان أن يحكموا العالم العربي والإسلامي بأكمله، لو أنهم تنازلوا عن مبادئهم وقدموا فروض الولاء والتبعية «للعلم سام» وربيبته «إسرائيل».. لكنهم قالوا ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

أما العلمانيون والليبراليون، واليساريون، والسلوليون، الذين يزعمون زوراً أنهم سلفيون، فقد رأينا، ورأى العالم كله كيف باعوا مبادئهم بثمن بخس، ومدوا أيديهم ليقبضوا ثمنها دراهم معدودة.. وكانوا فيها من الزاهدين!

(١) ابن القيم، الفوائد، ص ٥٠ - ٥١.

ولو بحثت في عالم اليوم من أدناه إلى أقصاه، لما وجدت فيه غير الإسلاميين، إلا ويتبع مبدأ ميكافيللي «الغاية تبرر الوسيلة» ويطبقه بحذافيره.. حتى وإن ادعى بلسانه وإعلامه غير ذلك. فالواقع عليهم شاهد لا يمكن لأحد تكذيبه.

وتعتبر الحركة الصهيونية من أكثر الحركات والجهات عبر التاريخ، أخذاً بهذا المبدأ.. كأنما وضع لهم! وقد تجاوزوا في ذلك كل حد، حتى إن حاخاماتهم، أصدروا مؤخراً فتوى تجيز للنساء اليهوديات، العاملات في أجهزة الاستخبارات المختلفة، ممارسة «الجنس» مع «غير اليهود» إن كان في ذلك خدمة للمصلحة القومية العليا للدولة الكيان!

وتاريخ هذه الحركة حافل بالأمثلة التي تبين كيف أن الصهاينة لا يتورعون عن استخدام كل أسلوب قذر، رخيص لتحقيق أهدافهم ومصالحهم.. وأكتفي هنا بالإشارة إلى آخر فضيحة نشرتها الصحافة العبرية عقب انتهاء الحرب الأخيرة على غزة «معركة العصف المأكول» والتي بدأت بإعلان العشرات من المجندين في وحدة «٨٢٠٠» التابعة للاستخبارات العسكرية، والتي من مهامها التصنت على مكالمات الفلسطينيين الهاتفية، تمردهم ورفضهم الخدمة، وما دفعهم لاتخاذ هذا القرار - حسب ما أعلنوه - هو أن أجهزة الاستخبارات الاسرائيلية بما فيها هذه الوحدة التي يخدمون فيها، لا تكتفي بجمع المعلومات عن «العناصر المعادية»، وإنما ينتصتون على كافة الفلسطينيين ويستغلون ما يقع في أيديهم من معلومات لابتزاز الفلسطينيين وإرغامهم على العمل جواسيس لهم.. وضرَبوا لذلك أمثلة، أن أجهزة الاستخبارات استغلت معلومات عن «علاقات غرامية» وابتزت أصحابها، بتهديدهم بالفضيحة إن رفضوا التعامل معها.. كما أنها تستغل حاجات الناس الإنسانية، فحتى المرضى يتم مساومتهم: العلاج مقابل العمالة!. وانتهت هذه الفضيحة التي شغلت الصحافة الإسرائيلية لأسابيع. بفصل جميع هؤلاء «المتمردين على الخدمة» وتقديمهم للمحاكمة.

وهنا قد يعرض سؤال، ولا بد من الإجابة عليه، وهو: هل على الإسلاميين الاستمرار في التمسك بالأخلاق والمبادئ في عالم تسوده الرذيلة والمكر والخديعة؟ إن غيرنا مبادئنا، وتكرنا لقيمنا وأخلاقنا، فقدنا ما يميزنا، وأصبحنا مثل غيرنا ولم يكن بالتالي أي مبرر لوجودنا.

إن كان لا بد من تغيير أو تصويب، فلا ينبغي أن يكون في المنهج والمبدأ، وإنما في طريقة وأسلوب التعامل مع الآخرين، بمعنى أن نكون أكثر حكمة وحنكة.. وأن نتقل من حالة «المثالية الجامدة» إلى «المثالية الحركية المرنة».

والفرق بين الحالتين: أن المثالية الجامدة تبقيك مكبلاً بمنطوق النصوص. فيما «المثالية الحركية المرنة» تتيح لك مساحة أوسع من التحرك والمناورة.. عندما تعيش مع مفهوم النص وروحه، وتنظر في مقاصد الشريعة نظرة عالم خبير. وأضرب مثلاً توضيحياً:

الكذب خلق ذميم، مستقبح عند المسلمين وعند غير المسلمين ولا يكاد يختلف اثنان، من حيث المبدأ على رفضه، لكن إذا سألنا: هل يمكن استخدام «الكذب» وسيلة لبلوغ الغاية؟

الذين يتبعون مبدأ مكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» وهم أكثر الناس، سيقولون لك: «اكذب واكذب حتى يصدقك الناس واكذب واكذب حتى تصدق نفسك»!

أما الإسلاميون فإن كانوا ممن أطلقنا عليهم صفة «المثاليين الجامدين» فسيكون جوابهم: «لا تكذب.. الكذب يهدي إلى الفجور» وهذا حق، وهو الأصل، لكن الإسلام أباح الكذب في ثلاثة مواطن:

• الكذب على الأعداء، في حالة الحرب وذلك لإخفاء معلومات تفيد الأعداء

وتضر المسلمين، أو للحصول على معلومة تفيد المسلمين أو لنشر معلومات مغلوطة لتضليل الأعداء.

### • الإصلاح بين الناس.

• في حالات خاصة ضمن العلاقة الزوجية: عن أم كلثوم بنت عتبة رضي الله عنها قالت: ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يرخصُ في شيءٍ من الكذبِ إلا في ثلاثٍ، كان رسولُ الله ﷺ يقولُ: «لا أعدُّه كاذبًا الرَّجُلُ يُصلِحُ بينَ النَّاسِ يقولُ القَوْلَ ولا يُريدُ به إلا الإصلاحَ والرَّجُلُ يقولُ في الحَرْبِ والرَّجُلُ يُحدِّثُ امرأتهُ والمرأةُ تُحدِّثُ زوجها»<sup>(١)</sup>.

كما أباح الإسلام، استخدام «المعاريض» في حالات الضرورة ولرفع الحرج.. «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب».

«والمثالية الحركية المرنة» هي التي تلتزم مبادئ الإسلام وتتحرك مستفيدة من الفسح التي رفع الله فيها الحرج عن الناس. فتستفيد في موضوع «الكذب» من الاستثناءات التي ذكرناها آنفاً، ومن «المعاريض».

وهذا الفقه المرن ليس ابتداءً، وإنما هو اتباع - وفي سيرة الرسول ﷺ - ما يؤكد ذلك:

فقد التقى ﷺ وهو في طريقه إلى بدر مع أبي بكر بشيخ من العرب «فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال الرسول ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا المكان الذي فيه قريش

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتم؟ فقال رسول الله: نحن من ماء، ثم انصرف عنه، قال: يقول الشيخ: ما من ماء، أمن ماء العراق»<sup>(١)</sup>.

والدرس الذي نستفيده من هذه القصة يتمثل بأن في ديننا فسحة ومتسعاً، لرفع الحرج عن المسلمين، فليس من الحكمة ولا من العقل أن نحشر أنفسنا في زاوية ضيقة، ونزوي فيها ونتوقع مكبلين أيدينا بأغلال، إنما جاء الإسلام ليضعها عنا.. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فليس من الدين أن تكبل نفسك وتحجر واسعاً، وليس من الدين أن تحرر نفسك من الضوابط الشرعية، وتجعل إلهك هو الك.. الدين وسط بين هذا وذاك.. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وخلاصة القول: إن مبدأ «مكيا فيللي»: «الغاية تبرر الوسيلة» مرفوض عندنا، مرفوض في شرعنا.

لكن الغاية النبيلة، والهدف السامي، مهم بالنسبة لنا، وينبغي أن نسعى نحن بكل عزيمة وإصرار، ونبذل كل جهد ممكن لبلوغه.. والحكمة والحنكة، والمرونة والذكاء.. والتخطيط السليم، والتنفيذ الدقيق، أساليب وأدوات لا بد منها في هذا الزمان.

١٧- «عامّة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة، أما غير الساذجين فهم قلة»<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن هشام، ١ / ٦١٦.

(٢) الامير، ص ٩١.

التعامل مع حقيقة أن عامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي»  
يستدعي من الدعاة، أمرين:

١- أن يبذلوا جهداً مضاعفاً لتوعية و تثقيف الشعب.. وعليهم أن يعلموا أن عدوهم اللدود الأول، هو الجهل، وأنه كلما كثر الجهلة في المجتمع كثر أعداء المسلمين، وعندما يبدأ عدد الجهلة السذج بالنقص التدريجي، فهذا يعني أن عمل المصلحين بدأ يؤثر في أكله، وأنهم يسرون في الاتجاه الصحيح الموصل - بلا شك - إلى الغاية المنشودة.

٢- أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم. فكثيراً ما يخلط الدعاة والساسة بين الخطاب الموجه للنخبة والخطاب الموجه للعامة.. النخبة يجب أن يوجه إليها خطاب خاص يمتاز بالعمق، يستخدم المنطق، يخاطب العقل.. ويقدم معطيات وحقائق.. أما خطاب العامة فينبغي أن يمتاز بالبساطة واليسر والوضوح، ويخاطب العاطفة أكثر من العقل، مع عدم إهماله للعقل.. ويراعي الموضوعات التي تهتم العامة، وتؤثر فيهم، ويمكن تحديد هذه الموضوعات بأربعة أبعاد:

أ- البعد الديني: وهو أقوى هذه الأبعاد، وأكثرها تأثيراً، وينبغي أن يمتاز الخطاب الديني الموجه للعامة بالوضوح والبساطة والاعتدال والاتزان.

ب- البعد الوطني: اعتاد الدعاة أن يكون خطابهم «الوطني» خطاباً دفاعياً، برد وتفنيد اتهامات الآخرين، وتجنيتهم عليهم.. والأولى أن يكون الخطاب «الوطني» خطاب تعبئة وتوجيه.. خطاب الواثق من نفسه، المعلم لغيره، المتقدم المتميز عن الآخرين.

ج- البعد الاجتماعي: المرتكز على عادات وقيم وثقافة المجتمع.

د- بعد المصلحة: الشعوب العربية في معظمها، فقيرة، وبالتالي فإن الوضع المعيشي حساس جداً عندهم.. أي مساس به يؤثر على قدرتهم بتوفير مستلزمات



حياتهم اليومية.. فيجب مراعاة هشاشة هذا الوضع وتقديم الحلول المساعدة لهم، وعدم التأثير السلبي عليهم، وتكليفهم ما لا يطيقونه.

١٨- «يجب على الأمير.. أن يتجنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه.. ويكون الأمير محترماً حيث يعتقد الناس بأنه متقلب وطائش ومخنث، وجبان، وضعيف العزيمة.. وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صخرة قاتلة، ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة، والقدرة، والمجد، وألا يقبل النقض فيما يحكم به بين رعاياه، ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه، ويجب على الأمير أن يخشى شيئين: الأول داخلي وله علاقة بالرعايا، والثاني خارجي وله علاقة بالقوى الأجنبية.. يستطيع الأمير أن يحمي نفسه من الأمر الثاني بالأسلحة الجيدة، والأصدقاء المخلصين.. أما بالنسبة للرعايا، فيجب عليه أن يحتاط من تأمرهم عليه سرًا.. كما أن أفضل علاج للأمير ضد أي مؤامرات هو حب الشعب له.. كل متأمر لا يستطيع العمل بمفرده ولن يجد له شريكاً سوى من الناقلين»<sup>(١)</sup>.

صحيح أن إرضاء الناس «جميعاً» غاية لا تدرك، لكن إرضاء الأغلبية غاية يمكن أن تدرك، وينبغي «للأمير» الحرص والسعي لبلوغها.. وفي ذلك على الأمير أن يختار بين إرضاء العامة وتقديم مصلحتهم، أو إرضاء النخبة «النبلاء» وتقديم مصلحتهم على حساب العامة.

بعض الزعماء يحاول أن يمسك بالعصا من النصف، ليرضي الطرفين، لكن هذا الأسلوب خطر، وقد يفضي إذا لم تتوفر للزعيم القدرة والحكمة الكافية، وإن لم تتهيأ له الظروف المناسبة إلى أن يجد نفسه في نهاية المطاف عالقاً بين الطرفين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ثم ما يلبث أن يخسر الطرفين.. وإذا كان «الأمير» قد وصل

للحكم في أعقاب ثورة شعبية، فينبغي عليه حينها ان يراعي ويقدم مصالح من أوصله للحكم، وهم العامة البسطاء، وعليه أن يجعل همه الأول نيل ثقة وحب العامة له. ويتحقق ذلك من خلال:

• القيام بأعمال عظيمة مؤثرة بشكل إيجابي واضح ملموس على حياة الناس، ومن شأن ذلك أن يرفع قدر «الأمير» وذكره بين الناس.

• وعلى «الأمير» أن يحرص على أن تقدم هذه الأعمال للناس «بصورة تعكس العظمة والمجد» ولا يعد ذلك من باب الرياء المذموم الذي ينبغي للمسلم الحذر منه وتجنب الوقوع فيه.. فالحاكم ليس كأحد من الناس، وأعماله في خدمة الأمة، لا تعتبر «أعمالاً خيرية» أو «صدقة» يفضل إخفاؤها، «حتى لا تدري شمالك ما تنفق يمينك» وإنما هو رجل انتدبته الأمة ومنحته ثقته ليعمل لها، ومن حق الأمة عليه أن يبين عمله، ويعرف الناس به حتى يستطيعوا أن يحكموا عليه ويقيّموه.. لكن دون مبالغة، حتى لا يكون ممن يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا.

• تجنب كل ما يجلب كراهية واحتقار الناس.. ويكون الأمير محتقراً عندما يكون «مقلباً، طائشاً، جباناً، ضعيف العزيمة والإرادة» وأحسن مكيا فيللي حين قال: «وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صخرة قاتلة».

• أن لا يسمح لأعدائه ومعارضيه رسم صورة سلبية عنه في أذهان الناس، وعليه التصدي لذلك بكل حزم وقوة.. فإن فقدان الحاكم لهيبته يعني فقدانه سريعاً لحكمه وسلطته.

وقد رأى الجميع الذي حدث للرئيس المصري المعزول محمد مرسي، حين شن خصومه عبر وسائل إعلامهم المأجورة حملة تشويه مسعورة ممنهجة، منظمة للنيل من شخصه، بالافتراء، والسخرية، والشتم والتطاول.. يقول المفكر المصري «فهمي هويدي»:

أنه في أثناء حكم الرئيس مرسي كان أكثر من ٩٠٪ من الإعلام المصري الخاص وأكثر من ٧٠٪ من الإعلام الحكومي موجهاً ضد مرسي، وضد الإخوان!

فأي عقل وأي حكمة وأي منطق يقول أن يترك هؤلاء السفهاء ليقولوا ما شاءوا من افتراءات وأكاذيب وتشويه وتزوير، وشتم، وسخرية، وتحريض، وإثارة للفتنة، دون حساب أو عقاب؟! الكل يعلم أن من أمن العقاب أساء الأدب - صحيح أن الرئيس مرسي - فرج الله كربه - كان بحق في وضع لا يحسد عليه.. فأخذه بالشدة والحزم مع الإعلاميين، يعني اتهمه، من قبل خصومه بالتسلط والدكتاتورية، وتكميم الأفواه، وكبت الحريات، في وقت إنما ثار الناس فيه من أجل الحرية. ثم إن أجهزة الدولة المختلفة، خاصة القضاء والنيابة العامة والشرطة تعانده، وتعمل خلاف مصلحته وإرادته.. فليس من ضمان أنها ستحاكم هؤلاء الإعلاميين، وتنزل بهم العقوبة الرادعة.

وتركه العنان لهم يقولوا ما يشاءوا، يعني تشويه صورته، وإسقاط هيئته، وتضليل العامة، وتشويش فكرهم؛ لكن في مثل هذه المواقف الحرجة يظهر دور القائد القوي الجريء الذي يأخذ القرار المفترض اتخاذه، دون تردد أو ارتباك أو الالتفات إلى الوراء.. وهيبة الرئيس ما كان ينبغي ان يسمح المساس بها.. وكان ينبغي التصدي لذلك بكل وسيلة ممكنة.

لقد ثبت اليوم بالدليل القاطع أن هؤلاء الإعلاميين كانوا ماجورين، وعملوا على نحو تآمري ممنهج منظم.. ولا زالوا حتى اليوم يمارسون دورهم التآمري، بالكذب والتشويه، والتزييف، والتحريض، وإثارة الفتن.. إن هؤلاء السفهاء يتحملون إثم سفك دماء الشهداء، الذين قتلوا ظلماً وبغياً وعدواناً.. ويتحملون وزر كل خراب وفساد ودمار حل بالبلاد.

• الحذر من المؤامرات الداخلية والخارجية والتصدي لها: غالباً ما يستعين المتآمرون من الداخل بجهات خارجية، وينسقوا قرارهم معها.. كما أن أعداء الخارج،

يبحثوا- عادة- عن شركاء، وأعوان لهم من الداخل.. وبالتالي فإن أي مؤامرة للإطاحة بالنظام الحاكم، يفترض أن يكون لها - في الغالب - طرفان: داخلي وخارجي، وللتصدي لهذا النوع من المؤامرات يلزم مراعاة ما يلي:

• كشف المؤامرة مبكراً، وهي في مهدها، ومتابعة عناصرها، وخبوطها، وحركتها أولاً بأول.

• مواجهة التآمر بكل حزم، وعدم التساهل مع أي متآمر حتى وإن بدا لك أنه ضعيف واهن، لا يشكل خطراً حقيقياً عليك.. فالاستهانة والاستخفاف بالخصم بداية الهزيمة.

• العمل على قطع خطوط التواصل بين طرفي المؤامرة الداخلي والخارجي.

• تفتيت التحالفات المعادية، والإيقاع بينها.

• إن كان «الطرف الخارجي» عدواً ظاهر العداوة، تبغضه وتنقم منه العامة، فإن فضح وكشف علاقة الأطراف الداخلية به، سيجلب نقمة ونفور العامة من هذه الأطراف، وسيدفعها للرجوع خطوة للخلف، وستضطر لقطع هذه العلاقة والتبرؤ منها.. فإن لم يكن العامة ينظرون «للطرف الخارجي» نظرة عدا وريبة. لزم تشكيل رأي عام مناهض ومعادي له.

لقد نجح الإعلام المصري المأجور بالتأثير على الرأي العام المصري، وتحويله من مؤيد معتز، مفتخر بالمقاومة الفلسطينية، وعلى رأسها حركة المقاومة الإسلامية «حماس» إلى معادٍ حاقِدٍ ناقم عليها.. بعد أن أوهمه، الإعلام المأجور، زوراً وبهتاناً، بأساليب شيطانية خبيثة، أن المقاومة الفلسطينية، وحركة حماس، تستهدف «الأمم القومي المصري». ومتورطة بعمليات «إرهابية» راح ضحيتها جنود مصريون!.. ووصل

الحد إلى اعتبار القضاء المصري حركة حماس وجناحها العسكري «كتائب القسام» منظمات إرهابية!! ولو قارنا هذا الدور للإعلام المصري، بالدور الذي لعبه الإعلام الإسلامي، قبل الانقلاب في فضح المؤامرة الحقيقية التي تولت كبرها دول معروفة في المنطقة بحق المصريين، وثورتهم، لرأينا أن الإعلام الاسلامي قد فشل، أو قل لم يدر معركة منظمة، ضد طرفي التآمر الداخلي والخارجي، وعجز عن تشكيل رأي عام معاد ومناهض لهذه الأطراف.. وذلك - في تقديري - عائد إلى أنه لم يواجه المؤامرة بالحزم المطلوب، ولم توضع خطة إعلامية مدروسة للوصول إلى تلك الغاية، متجاهلاً الحقيقة التي أشرنا إليها سابقاً، وهي أن: العامة تحتاج لأن يقدم لها الموقف والمعلومة، واضحة، مبسطة، ميسرة، ولا ينبغي الاعتماد، والتعويل على ذكاء الناس، وقدرتهم على الاستنباط، والتحليل، وقراءة ما وراء السطور، لفهم خفايا الأمور، ومعرفة ما يدور خلف الكواليس.

١٩- «إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب أو الجيش. أو النبلاء، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة»<sup>(١)</sup>.

تقسيم المجتمع إلى فئات، ودراسة العلاقة بين هذه الفئات، موضوع شغل الفلاسفة والمفكرين، منذ أقدم العصور أفلاطون - على سبيل المثال - قسم المجتمع، إلى ثلاث طبقات:

١- طبقة الحكام المختصين بإدارة الدولة وحكمها.

٢- طبقة العمال المنتجين.

٣- طبقة الجنود الذين يحمون الدولة.

وحدد أفلاطون لكل فئة دورها، والامتيازات التي ينبغي أن تعطي لها، معتبراً طبقة الحكام، الطبقة الوحيدة التي يتمثل فيها الذكاء والحكمة.

ولم يتوقف الجدل، عبر التاريخ، حول فئات المجتمع، وموقع وميزات، وامتيازات كل فئة، والقوانين التي ينبغي أن تضبط العلاقة بين هذه الفئات.

وبلغ الجدل والصراع ذروته في العصر الحديث، في أعقاب الثورة الصناعية، وظهور الحركة الشيوعية، والفكر الاشتراكي، والرأسمالي.. ولا يزال الجدل مستمراً حتى اليوم.. ولا تزال كل فئة تحاول الاستحواذ والهيمنة على مقاليد الحكم، وخيرات البلاد.

في الدول ذات نظام حكم ديمقراطي، تم تحييد فئة الجيش، بحيث أصبحت هذه المؤسسة تخضع بالمطلق للنظام السياسي القائم. وللقراءات التي تصدر عن مؤسسات الحكم في الدولة، فيما بقي الصراع قائماً في هذه الدول بشكل معلن أحياناً، وبشكل خفي أحياناً أخرى - بين فئتي «العمال» و «البرجوازية».. وبعد الفشل الذريع الذي منيت به الحركة الشيوعية، ارتفع واتسع دور ونفوذ النخب وأصحاب رؤوس الأموال.. حتى أنك لا تجد في أعرق الديمقراطيات، من يمكن له أن يصل الحكم دون دعم النخب، وأصحاب رؤوس الأموال.. نجد هذا واضحاً في الولايات المتحدة بشكل خاص، حيث لا فرصة لنجاح شخص ما في أي انتخابات إن لم يجد جهة داعمة، تمول حملته الانتخابية.

أما دول العالم الثالث ومن ضمنها، دولنا العربية، فإن الحكم فيها محتكر منذ عقود، إما من قبل فئة «الجيش» أو «النبلاء».. وحكم «النبلاء» أو «الاسرة الحاكمة» يخضع بشكل تلقائي مؤسسة الجيش، ويجعل مهمتها الأساسية متركرة في حماية الحاكم، وتثبيت حكمه.. وغالباً ما يكون الحاكم في هذه الدول ذو خلفية عسكرية، مما يسهل عليه الاستحواذ على مؤسسة الجيش، والاستقواء بها.

والتحالف بين «النبلاء» و «الجيش» في دولنا العربية، قائم منذ عقود، على المصلحة المشتركة، إذ تسهل كل فئة للأخرى تحقيق مصالحها وطموحاتها.. الجيش يمنح «النبلاء» الحماية والمشروعية و«النبلاء» يمنحون قيادات الجيش، المال والرفاهية.. وذلك كله على حساب «العامة» التي تظل - دائماً - الخاسر الأكبر في هذه المعادلة.

وعلى هذه الفئة أن تعلم أنها لن تنعم يوماً، بالعدل والأمن والرخاء طالما، بقي «العسكر» و «النبلاء» يحكمونها ويتحكمون في مصيرها.

والحاكم العادل هو الذي يعطي كل ذي حق حقه.. فيأخذ للفقراء من مال الأغنياء، ما يكفيهم ويسد عوزهم. ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] ويحفظ للأغنياء حقوقهم، وأموالهم التي اكتسبوها بجدهم وجهدهم.. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. ويعطي للجنود حقوقهم، ويوجه قوتهم لحماية الوطن والشعب، لا الاستقواء على الناس وقهرهم. وفي المحصلة، لن يستطيع أي حاكم إرضاء الفئات الثلاث: الشعب، النبلاء والجيش.. ما دامت كل جهة تبحث عن مصالحها، وترى في الأخرى نداً وخصماً لها. فعلى «الحاكم» أن يعمل جاهداً على إذابة الحواجز بين هذه الفئات، لتصبح كل فئة مكاملة ومساندة للأخرى، فيشكلون أمة واحدة متجانسة متحابية متوادة.

الفقراء يستفيدون من الأغنياء، والأغنياء يستفيدون من الفقراء، والجيش من الشعب لحماية الشعب.. ولن يحدث ذلك إلا عندما يجد الفقراء من يراعي حاجاتهم، ويعيد لهم حقوقهم، وعندما يضبط وضع «النبلاء» تحت شعار «لا تظلمون ولا تُظلمون» وعندما يتم إبعاد الجيش عن السياسة، ويتفرغوا لأداء مهمتهم الأساسية، وهي حفظ أمن الوطن والدفاع عنه.. ويحدث ذلك فقط، عندما يحتكم الناس جميعاً

لشرع الله، ويؤثروا الدار الآخرة، وتكون هي محط أنظارهم، وميدان تنافسهم، وغاية مقصدهم.. هذا ما تمثله صحابة رسول الله ﷺ. فضربوا أروع الأمثلة في الإخاء والتراحم والتواد والتعاطف والتضامن، والزهد في الدنيا، وإيثار الآخرة.. فرأينا أعظم مؤاخاة في التاريخ، اقتسم فيها كل رجل من الأنصار ماله وممتلكاته مناصفة مع أخيه المهاجر.. ومن الصحابة من قدم ماله كله في سبيل الله، ومنهم من قدم ثلثي ماله، ومنهم من قدم نصف ماله، ومنهم من قدم ثلث ماله، وأعلى ما يملك في سبيل الله.. فهذا سعد بن أبي وقاص يعرض على رسول الله ﷺ، أن يتصدق بثلثي مالي، فيقول له الرسول ﷺ: «الثلث يا سعد والثلث كبير..»<sup>(١)</sup>

وهذا أبو طلحة يأتي إلى رسول الله ﷺ ويقول له: إن الله أنزل عليك: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون». وإن أحب أموالي إلى بيرحاء. وإنها صدقة لله. أرجو برها وذخرها عند الله. فضعها يا رسول الله، حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ «بخ!! ذلك مال رابح ذلك مال رابح! وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه «متفق عليه» وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ. فقالوا: ذهب أهل الدثور<sup>(٢)</sup> بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي. ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم» قالوا: بلى: يا رسول الله! قال «تسبحون وتكبرون وتحمدون، دبر كل صلاة، ثلاثاً وثلاثين مرة» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ. فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما

(١) انظر: الحديث في البخاري، ٥/٦٨، ٣/١٢٥٠.

(٢) الدثور: الأموال الكثيرة.



فعلنا. ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»<sup>(١)</sup>.

٢٠- «ولكن أقول أن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم. وذلك لأنهم يدركون أن عليهم أن يبتلوا بأعمالهم ذلك الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم وبهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوها. لاطمئنانهم إليه»<sup>(٢)</sup>.

قد يكون ما يقوله مكافيللي هنا صحيحاً في حالة واحدة فقط، وهي: أن يكون «الأمير» قد وصل الحكم، وأخضع خصومه بالقوة العسكرية.. عندها يمكن أن يكسب في بداية حكمه ود من كانوا سابقاً يناصبونه العداء، وذلك عندما يتيقنوا أنه قد سقط في أيديهم، وضل عنهم الذي كانوا يناصرونه، ويوالونه، ويستمدون منه قوتهم ومكانتهم.. عندها، فقط، سرعان ما سيغير هؤلاء ولائهم ويبدلوا جلودهم، وسيذلوا ما وسعهم من جهد، حتى يغيروا «الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم» أما إذا كان وصول الأمير للحكم بطريقة مغايرة، ولم يستقر الأمر له، ولم يسلم خصومه بهزيمتهم ونصره، ولا يمتلك القوة الكافية لتثبيت حكمه وردع وهزيمة أعدائه، فإن من الخطأ الفادح المراهنة على كسب ود هؤلاء الأعداء.. وعلى «الأمير» أن يبقى ولاء هؤلاء محل شك، وأن لا يطمئن إليهم، ويمنحهم ثقته، لأنه من الممكن أن يخذلوه، وينقلبوا عليه في أية لحظة، خاصة إذا شعروا بتغير موازين القوى، ورجحان الكفة لصالح خصومه.. وهذا ما حدث في مصر، فقد أخطأ الإخوان وأخطأ الرئيس مرسي - حسب تقديري - عندما اعتقدوا أن أعداء الأمس القريب المهيمين على مؤسسات الدولة خاصة الداخلية والقضاء يمكن أن يغيروا ولائهم، بسرعة وسهولة، ويضعوا أنفسهم في خدمة «الرئيس الجديد» لأن ولائهم السابق كان قائماً في أساسه على المصلحة. وقد فقدوا المصلحة، التي كانت

(١) متفق عليه، وهذا اللفظ رواية مسلم.

(٢) الأمير، ص ١٠٥.

تربطهم بالنظام البائد، فليتمسوها، إذن عند النظام الجديد!.. لكن لهؤلاء من الذكاء ما يجعلهم يدركوا أن «النظام الجديد» سرعان ما سيسحب منهم امتيازاتهم، ويحجم وضعهم بشكل تدريجي، بل ويمكن أن يتخلص منهم، واحداً تلو الآخر.. وبالتالي فإن مصلحتهم تكمن في «إفشال الإخوان» وليس إنجاحهم.

ولما كان الإخوان لا يملكون القوة الحامية لهم ولنظامهم ولم يسلم خصومهم لهم بالقيادة والإدارة.. والأرض لازالت تميد من تحت أقدامهم، كان من العبث الظن أن هؤلاء سيخلصون ولاءهم للإخوان، ولا ينقلبوا عليهم.. ويؤكد هذه الأمر: العميد طارق الجوهري، مسؤول الحراسة الليلية للرئيس محمد مرسي، حيث قال في حديث له على موقع «إخوان أون لاين»: «.. كنت قد اخترت بمحض إرادتي أن أعمل مع د. مرسي في حالة فوزه بالرئاسة، ونظراً لكوننا (٩) عمداء مسئولين عن كل الحراسات المهمة بالقاهرة الجديدة، وكان الثمانية قد أبلغوا المدير برفضهم العمل مع د. مرسي في حالة فوزه بالرئاسة!.. وبدأ صراع عنيف يوماً بيني وبين الضباط، سواء الشرطة أو الحرس الجمهوري، فهم يسبونه بصفة مستمرة، وأنا أدافع عنه باستماتة.. يوم الاتحادية كان مشهوداً فالقنوات الخاصة برجال الحزب الوطني أوحى للجميع أن الرئيس قد انتهى، وأن الشرطة قد تخلت عنه وانحازت للمعارضة، وكانت هناك أمور غريبة تدل على ذلك، منها صمت جهاز اللاسلكي على غير العادة.. وتوجهت للخدمة فوجدت الضباط الصغار يتناولون عليّ شخصياً ويقولون إن «مرسي قد انتهى» وأخذوا يسبونه أسفل منزله، بصوت عال.. وفوجئت بمفتش المباحث يحضر بسيارته، ويقف تحت البيت مباشرة ويقوم بسب الرئيس، برغم علمه أنه لم يحضر بعد، وقال: «كلها نصف ساعة وهترجع السجن تاني يا مرسي هي دي أشكال رئاسة، دي أشكال سجون» وبدأت أحس فعلاً أن هناك شيئاً ما يدار وتأكدت هو اجسي بعدها عندما وجدت الضباط يتجمعون

ويقولون لبعضهم: «كل شيء تمام والناس جاهزة أول ما يوصل الرئيس هيهجموا عليه ولو ما تمكناوش منه بالموكب هيطلعوا فوق يجيبوه واحنا معاهم».. وحينها قمت بالاتصال بالمقدم محمد عباس، وأبلغته بما يحدث وقال لي: «هبلغ الرئيس حالاً وأرد عليك» وفعلاً لم تمر دقيقتان حتى رد عليّ سيادته وأبلغني أن أحرر مذكرة بكل ما حدث بدقة.. وأمرني ألا أشتبك مع الضباط، وأن الرئيس لن يبيت بمنزله<sup>(١)</sup>.

لقد كان الأجدد والأصوب أن يدفع الإخوان بكل قوة بعد نجاح الثورة مباشرة، وقبل ممارسة الحكم لإصلاح وتطهير مؤسسات الدولة، حتى وإن تطلب ذلك وقتاً، وأفقدهم جزءاً من شعبيتهم.. وقد أتاحت أمامهم فرصة لفعل ذلك، عندما كانت كل الاتجاهات والأحزاب، تطالب بصوت واحد بتطهير مؤسسات الدولة، بما فيها الداخلية والقضاء، والإعلام، وإعادة بنائها على أسس مهنية، وطنية، وتوحيد المؤسسة العسكرية، وتغيير النائب العام.. لكن الإخوان حينها اعتقدوا - على ما يبدو لي - أن بإمكانهم إحداث التغيير والإصلاح من خلال وجودهم في السلطة والحكم، على اعتبار أنهم سيملكون القوة والتأثير.. لكنهم عندما وصلوا الحكم اصطدموا بمؤسسات «الدولة العميقة» المعادية بالملق لهم، ولم تجد الأحزاب والتيارات السياسية الأخرى مصلحة لها في مساندة الإخوان، وإنجاحهم، وتمكينهم من إحداث الإصلاح والتغيير.. فاجتمع الخصوم كلهم في جبهة واحدة، واستطاعوا - كما هو معلوم - بتآمر داخلي، ودعم خارجي، إفشال الإخوان والانقلاب عليهم.

٢١- «لا شيء يؤدي إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غير العادية بصفة عامة»<sup>(٢)</sup>.

كل إنسان يقرون بعمله، ويوصف به، فيقال: فلان رجل صالح، فلان رجل فاسد..

(١) موقع اخوان أون لاين.

(٢) الأمير، ص ١٠٨.

ومن كان عمله حسناً كان ذكره حسناً، ومن كان عمله سيئاً كان ذكره سيئاً، فالكريم من كرم عمله والشريف من شرفت همته.

وقد بين الإسلام أهمية الذكر الحسن للإنسان، في مواطن عدة من القرآن الكريم، فذكر من دعاء إبراهيم عليه السلام، قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقد استجاب الله دعاءه، فلا ينقطع ذكر إبراهيم عليه السلام عن ألسنة أصحاب الديانات السماوية الثلاث، التي تجمع على نبوته، وصدق رسالته.

وذكر القرآن الكريم فيما ذكره من نعم الله على رسولنا محمد ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] كما قرن القرآن الكريم بين الإنسان وعمله، وجعلهما شيئاً واحداً.. ونجد ذلك في وصفه لابن نوح عليه السلام، بقوله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. وإن ذاكرة التاريخ تحفظ الزعماء، الأفاضل، أصحاب الأعمال العظيمة المميزة.. ومن النماذج في تاريخنا الإسلامي نذكر:

- أبابكر الصديق رضي الله عنه، الذي عندما يذكر، تذكر مواقفه العظيمة، صحبته للرسول ﷺ، تصديقه المطلق له، دفاعه عنه، شراؤه للعبيد المسلمين، وعتقه لهم في سبيل الله، حربه للمرتدين ومانعي الزكاة، وجمعه الأمة بعد أن تمزقت «أيدي سباً».
- عمر بن الخطاب، الفاروق.. الذي عندما يذكر، يُذكر عدله.. وحكمه الرشيد، وشدته في الحق ورحمته بالضعفاء.. وزهده وورعه.. والفتوحات الإسلامية.
- خالد بن الوليد - سيف الله المسلول: الذي عندما يذكر، تُذكر الفتوحات، والبطولات، والانتصارات.
- الخليفة العباسي «المعتصم بالله»: الذي عندما يذكر تذكر «عمورية» وتذكر نخوته ونصرتة المرأة المستصرخة.

• صلاح الدين: الذي عندما يذكر، يُذكر فتح بيت المقدس.

في مقابل هؤلاء، عبر آلاف الزعماء والأمرء، سجل التاريخ دون أن يعلق اسم أحد منهم في ذاكرة أحد.. وآخرين ما انفك الناس يلعنونهم، ويشتمونهم، كلما ذكر اسمهم، لسوء فعالهم.

إن الزعيم الذي يبحث لنفسه عن موقع بين العظماء، ويريد أن يحترمه شعبه ويخلد ذكره، وتحمد الأجيال فعله، عليه أن يفعل فعل العظماء.. ولا شيء في هذا الزمان يقوم به زعيم مسلم أعظم من توحيد كلمة الأمة، وجمع شتاتها، وحقن دماء أبنائها، واستعادة كرامتها المسلوقة، وأرضها المغصوبة.

إننا في زمان فتن وردة أعراب، ولا أبا بكر لنا.. زمان ظلم وجور، ولا فاروق لنا.. زمان بغي وتكالب أعداء، ولا خالد لنا.. إن هموم المسلمين اليوم كبيرة وكثيرة.. فقد أصبحنا «في دار بليات نقلب آفات بآفات».. وبالتالي فإنه في اللحظة التي يصل فيها زعيم إسلامي للحكم في بلد من بلاد المسلمين فإن عليه في الوقت الذي يحرص فيه على مصالح شعبه، وأهل بلده، أن يلتفت كذلك إلى الهم الإسلامي الكبير، فلا تغفل عينه، ولا ينشغل عقله وفكره، ولا يغيب عن عمله، وتخطيطه وتدبيره، الهدف الأكبر، والغاية الأسمى، وهي: أن يكون للعرب والمسلمين كيان واحد موحد، تتألف فيه القلوب، وتتوحد المواقف والرؤى، وتتكافأ الدماء، ويواجهوا أعداءهم على سواء.

قد يرى البعض هذه أحلاماً بعيدة المنال.. كذلك كانت والرسول ﷺ، يوم الخندق، يضرب بمعوله الصخرة، فتلمع تحت ضرباته ثلاث لمعات: فيقول ﷺ، وهو يبشر المسلمين: «أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق»<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٩ / ٤.

قال رسول ﷺ هذه البشرى للمسلمين، وهم في أضعف حالاتهم، وقد بلغ الخوف على دينهم وعرضهم وأموالهم ما وصفه القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّبْ زَاغَتِ الْأَبْصَارِ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] فكما تحققت بشرى الرسول ﷺ، سيتحقق بإذن الله، وعد الله للمؤمنين الصابرين، العاملين، الثابتين على الحق، بالنصر والتمكين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَكَمَلُوا الصَّلَاتِ لَيْسْتَ خَلَفْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٢٢- «على الأمير أيضاً أن يكرّم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنون البال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفاً من المصادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفاً من الضرائب، وينبغي مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة، أو الولاية بأي طريقة بالإضافة إلى أنه يجب عليه أن يلهي شعبه بالمهرجانات، والمعارض في المواسم السنوية المختلفة ولما كانت كل مدينة تتألف إما من طوائف عمالية، أو من طبقات اجتماعية، فإنه لا ينبغي للأمير أن يغض بصره عن كل هذه الطوائف والفئات ويجمع معهم من وقت لآخر وأن يكون مثالاً أمامهم لعظيم الكرم، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبداً في أي وقت»<sup>(١)</sup>.

إن إكرام الموهوبين، ودعم المبدعين، وتشجيع المنتجين، واجب ليس على الأمير فحسب، إنما على الدولة بكل مؤسساتها وعلى الدعاة، وحركات الإصلاح

والتغيير، وعلى كل مسلم حر غيور على دينه ووطنه، فإنما تتقدم الدول وتنمو وتواكب التطور والحضارة بعلمائها ومبدعيها.

إنه لمن المحزن والمؤسف، أنه في الوقت الذي تبحث فيه دول الغرب، عن المبدعين والتميزين، لتحتضنهم وترعاهم وتكرمهم، وتنمي قدراتهم، وتستثمر عقولهم.. لا يلقي أمثالهم في بلادنا العربية والإسلامية غير الإهمال والظلم والذل والإهانة!

عندما يعود عالم متخصص في مجال من أهم مجالات العلوم المعاصر إلى بلده، بهمة وعزيمة وحماس ليقدم شعبه ويرفع من شأن وطنه وأمتة يتفاجأ بواقع محبط مؤلم، حيث لا يجد في أحسن الأحوال وظيفة؛ غير مدرس جامعي بمرتب زهيد وعندها إما أن يعود أدراجه إلى الغرب أو يبقى في وطنه بين أهله بعد أن يدفن علمه وموهبته ويتخلى عن أحلامه وآماله.

وإذا ما فكر زعيم أو حاكم في عالمنا العربي - يوماً - في إكرام المبدعين فإن أقصى ما يفعله أن يستضيف مجموعة ممن يسمون «الفنانين» من الممثلين والمغنيين والراقصات وكتاب الأدب الرخيص الذين يفسدون عقول وأخلاق الناشئة بترهاتهم وسخافاتهم، ليهب لهم الجوائز ويمنحهم الأوسمة حتى أصبح الإبداع مقتصراً على التمثيل والغناء والرقص!

أما إلهاء الشعب بالمهرجانات والحفلات والمعارض: فإن زعماءنا - والحق يقال - (لا يقصرون) بل إنهم مبدعون في فن إلهاء وتخدير الشعوب!

في بلادنا العربية ما أن ينتهي مهرجان حتى يبدأ مهرجان.. ونجوم الغناء والرقص يطبسون من بلد إلى بلد يصلون الليل بالنهار لا يكفون ولا يملون، هم في عمل دائم ليقدموا للناس ما يسعدهم ويسرهم وينسيهم همومهم ومآسئهم!

ومن المدرجات تنتقل المهرجانات إلى شاشات القنوات الفضائية، برامج متواصلة متلاحقة يتابعها الملايين وينفق عليها الملايين (محبوب العرب أو معبود العرب، سوبر ستار، ستار أكاديمي، ذي فويس، نجمة العرب، أرب جيت تالنت...) كما ابتدع حديثاً برنامج جديد اسمه ستار سكول لاكتشاف المواهب الغنائية مبكراً في المدارس!

من فلسطين المحتلة ومن غزة المحاصرة المنكوبة المهدامة خرج (محبوب العرب) محمد عساف وحقق نصراً كاسحاً بحصوله على أكثر من ثلاثة ملايين صوت! ورعت السلطة الفلسطينية حملة دعمه، ووجه الرئيس محمود عباس شخصياً نداءً للتصويت له وعندما عاد إلى أرض الوطن خرج عشرات الآلاف في الضفة وغزة لاستقباله، وكان قد تصادفت احتفالات استقباله بإضراب للأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال عن الطعام وتابعا ونحن في الأسر، بأسى، ما يحدث من شعبنا وسلطاننا، عشرات الآلاف يخرجون لاستقبال مغنٍ فيما لا يخرج لنصرة الأسرى المضربين عن الطعام غير بضع عشرات تفرقهم أجهزة أمن السلطة بالغاز والهرات!

ومن يعتقل منهم يغط إخوانه المضربين في سجون الاحتلال لأنهم رغم جوعهم ومعاناتهم في حالٍ أفضل من حاله، وعذاب أهون من عذابه!

إن أمة تكرم سفهاءها، وتعدم وتسجن مبدعيها وعلماءها، فهي أمة فاشلة، لا يرجي صلاح حالها، إلا باجتثاث زمرة الفساد من جذورها.

وإذا ما تحدثنا عن (الساحرة المستديرة) فإن المأساة أكبر وأعظم، تصور أنه في كبرى المدن الفلسطينية مثل رام الله ونابلس توضع شاشات عرض كبيرة ليُشاهد الآلاف من مشجعي فريقتي (برشلونة وريال مدريد) مباريات الفريقين.

وما أن ينتهي عرض المباراة حتى يخرج الآلاف من المشجعين في مسيرات تجوب شوارع المدن ليلاً، يطلقون أبواق السيارات ويصرخون ويعربدون في



الشوارع وكثيراً ما يقتتل أنصار الفريقين ويسقط الجرحى وتسال الدماء!

لقد بلغ جنون الناس (بالكرة) حد أن يقتل العشرات ويصاب المئات من مشجعي فريق الزمالك المصري برصاص رجال الشرطة والأمن ولا يمنع ذلك اللاعبين والمشجعين والدولة من إقامة المباراة.. تقام المباراة ويلعب اللاعبون ويهتف المشجعون وجث رفاقهم وإخوانهم على بعد أمتار منهم!

لسنا نحارب الرياضة أو نعاديتها، بل ندعوا لها ونحث عليها.. لكن أن تتحول الرياضة إلى ملهاة للشعوب وإفساد لشباب الأمة وإهدار لجهدهم ووقتهم ومالهم.. وأن تفقدهم رشدهم واتزانهم، وأحياناً أرواحهم فهذا ما لا نقبله ولا يقبله عاقل رشيد.

قد يقول قائل أما كان يجدر بالرئيس محمد مرسي أن يفعل ما يفعله سائر الزعماء والرؤساء ويلهي شعبه الذي اعتاد المظاهرات والاحتجاجات وتعلق بها وأصبحت جزءاً من سلوكه اليومي، بالمهرجانات والاحتفالات والمسابقات؟

صحيح أنه يصعب إعادة الناس إلى حياتهم الطبيعية بعد أن اعتادوا التجمهر والاحتجاج وأدمنوه لكن ذلك لا يعطي الرئيس الحق والمشروعية في إلهاء الشعب بما يضره ولا ينفعه وإنما الأولى إشغال الناس واستثمار طاقاتهم وجهودهم بعمل صالح، مفيد في خدمة المجتمع والوطن، ومجالات ذلك كثيرة ومتعددة.

٢٣- «إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمراً قليل الأهمية، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وهذا يتوقف على حكمة وذكاء الأمير ويمكننا أن نقيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال... وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عدد كبير من الناس، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكيم، وسوف يفكرون جميعاً في مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهم»<sup>(١)</sup>.

(١) الأمير، ص ١١٢-١١٦.

سبق وتناولنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب موضوع (المستشارين) وما أود اضافته هنا هو التركيز على الأساس الذي يجب أن يتم اختيار المستشارين بناءً عليه، إذ ينبغي للأمر اختيار مستشاريه بناءً على:

علمهم وتخصصهم، وإخلاصهم وخبرتهم وتجربتهم، لا لأي اعتبارات أخرى سواءً حزبية أو طائفية أو ما شابه ذلك لأن النتيجة ستكون مدمرة إذ سيعلق (الرئيس) بين (شركاء متشاكسين) كل واحد منهم يسعى ويبحث لتحقيق مصالحه ومصالح الجهة التي ينتمي إليها ويمثلها، ضارباً بعرض الحائط مصلحة الرئيس والصالح العام وسيصعب على الرئيس وقتها استخلاص الرأي الصائب السديد وسيكون عليه: إما أن يهمل آراء مستشاريه جميعاً ويتخذها وراءه ظهيراً وبالتالي يفقد أداة مهمة من أدوات نجاحه، أو أن ينتقي من بين هذه الآراء ما يعتقد سديداً صائباً لكن عليه هنا أن يحذر من أن يضلل ويوقع به.

لك أن تتخيل وضع الرئيس محمد مرسي الذي كان له أربعة مساعدين لم يكن من بينهم سوى واحد من الإخوان.

وسبعة عشر مستشاراً أربعة فقط من بينهم من الإخوان أما البقية فتم اختيارهم ليمثلوا طوائف وفئات وأحزاب المجتمع المختلفة: الأقباط، النساء، المستقلين، العلمانيين، اليساريين، السلفيين، التكنوقراط،.. فكم رأياً كان يقدم للرئيس من هؤلاء المستشارين؟ وأي نصيحة، وأي رأي خير كانوا يقدمون له، وهم عند أول أزمة صادفته قدموا استقالاتهم واحداً تلو الآخر؟!

وإذا أضفت إلى آراء هؤلاء المستشارين، المتباينة المتناقضة المتعارضة، آراء قادة الحركة التي ينتمي إليها تبين لك عندها حجم المعاناة والحرع الذي عاشه الرئيس محمد مرسي فترة حكمه فرج الله كربه.

٢٤- «ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أياً كانت»<sup>(١)</sup>.

رغم ما سبق وذكرناه، يبقى الأمير بشراً يخطئ ويصيب وتبقى إرادة الله فوق كل إرادة وتدييره فوق كل تدبير وأمره فوق كل أمر.

على الإنسان أن يسعى ويجد ويجتهد ويأخذ بالأسباب ويتحرى الصواب ثم يوكل أمره لله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُورِي الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ وَمَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأخيراً: ختم ميكافيللي كتابه بهذا الشعر:

استثار الغضب حمية الأبطال      فحملوا السلاح وسعوا للنزال  
جمعت أرض الأجداد أيادي الرجال      فبلادنا نابضة ولن نكف عن القتال  
وأختم أنا بشعر للشهيد سيد قطب رحمه الله:

أخي أنت حرٌّ وراء السدود      أخي أنت حرٌّ بتلك القيود  
إذا كنت بالله مستعصماً      فماذا يضيرك كيد العبيد؟!  
أخي ستبید جيوش الظلام      ويُشرق في الكون فجر جديد  
فأطلق لروحك إشراقها      ترى الفجر يرمقنا من بعيد  
أخي قد أصابك سهم ذليل      وغدرا رماك ذراع كليل  
ستبتر يوماً فصبرٌ جميل      ولم يدم بعدُ عرين الأسود

أخي قد سرت من يديك الدماء  
 أبت أن تُشَلَّ ب قيد الإماء  
 سترفع قربانها للسماء  
 مخضبة بوسام الخلود  
 أخي هل تُراك سئمت الكفاح؟  
 وألقيتَ عن كاهليك السلاح  
 فمن للضحايا يواسي الجراح؟  
 ويرفع راياتها من جديد  
 أخي: إنني اليوم صلب المراس  
 أدكُّ صخور الجبال الرواس  
 غدا سأشيخُ بفأس الخلاص  
 رؤوس الأفاعي إلى أن تبيد  
 أخي إن ذرفت عليَّ الدموع  
 وبللت قبري بها في خشوع  
 فأوقد لهم من رفاتي الشموع  
 وسيروا بها نحو مجد تليد  
 أخي: إن نمت نلقُ أحبابنا  
 فروضات ربي أعدت لنا  
 وأطيارها رفرت حولنا  
 فطوبى لنا في ديار الخلود  
 أخي إنني ما سئمتُ الكفاح  
 ولا أنا ألقىتُ عني السلاح  
 فإن أنا متُّ فإنني شهيد  
 وأنت ستمضي بنصر مجيد  
 قد اختارنا الله في دعوته  
 وإنا سنمضي على سنته  
 فمننا الذين قضوا نحبهم  
 ومنا الحفيظ على ذمته  
 أخي: فامضِ لا تلتفت للوراء  
 طريقك قد خضبتَه الدماء  
 ولا تلتفت هنا أو هناك  
 ولا تتطلع لغير السماء  
 فلسنا بطير مهيض الجناح  
 ولن نستذل ولن نستباح  
 وإني لأسمع صوت الدماء  
 قوياً ينادي الكفاح الكفاح

سأثار لكن لرب ودين وأمضي على سستي في يقين  
فإما إلى النصر فوق الأنام وإما إلى الله في الخالدين<sup>(١)</sup>

انتهى الكتاب: بتاريخ ١-٥-٢٠١٥



---

(١) فرحات، عز الدين، شعراء خلف القضبان، ص ١٦٩-١٧١، مكتبة العبيكان - الرياض.



## فهرس المصادر و المراجع

«القرآن الكريم»

- ١- [www.iba.org.il](http://www.iba.org.il) موقع عربييل.
- ٢- ابن الأثير، أبو الحسن محمد بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط ١، ١٩٩٤ م، دار الكتب العلمية.
- ٣- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، رسالة القتال.
- ٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د حامد أحمد الطاهر، ط ١، ٢٠٠٤ م، دار الفجر للتراث - القاهرة.
- ٥- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، طبعة ١٤١٨ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين، دار الحديث - القاهرة.
- ٧- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط ٢٧، ١٩٩٤ م، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٨- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية، دار الفجر للتراث.
- ٩- ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه،
- ١٠- ابن هشام، محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط ٢، ١٣٧٥ هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.
- ١١- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - صيدا.
- ١٢- أفلاطون، المدينة الفاضلة، ترجمة: عيسى الحسن، طبعة ٢٠٠٩ م، الأهلية للنشر والتوزيع.

- ١٣- ألموند، جابرييل ايه، و جى بنغهام باويل الابن، السياسات المقارنة في وقتنا الحاضر، ترجمة وتحقيق: هشام عبدالله وسمير نصار، ط٥، ١٩٩٨م، الأهلية للنشر - الأردن.
- ١٤- أندرسون، جيمس، صنع السياسات العامة، ترجمة: أ.د. عامر الكبيسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
- ١٥- الأندلسي، ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، طبعة ١٩٩٧، دار المكتبة العلمية - بيروت.
- ١٦- أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: محمود الأنصاري، طبعة ١٩٨٨، مؤسسة فيصل للتمويل - تركيا.
- ١٧- أوغلو، أحمد داود، العمق الاستراتيجي (موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية) ترجمة: محمد جابر ثلجي وطارق عبدالجليل، مراجعة: بشير نافع وبرهان كوروغلو، مركز الجزيرة للدراسات.
- ١٨- بابللي، محمود محمد، الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية، طبعة ١٩٧٥م، دار الكتاب اللبناني.
- ١٩- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.
- ٢٠- بريجنسكي، زبغنيو، رقعة الشطرنج الكبرى، ترجمة أمل الشرقي، ط١، ٢٠٠٠م، الأهلية للنشر والتوزيع - الأردن.
- ٢١- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، طبعة ١٩٨٨م دار ومكتبة الهلال - بيروت.
- ٢٢- تزو، سون، فن الحرب، إعداد وترجمة: رؤوف شبايك.
- ٢٣- جابر، حسين علي، الطريق إلى جماعة المسلمين، ط٧، دار الوفاء - المنصورة.
- ٢٤- الجوزي، أبو الفرج، الوفا بأحوال المصطفى، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- ٢٥- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٣، ١٩٨٤م، دار العلم للملايين - بيروت.
- ٢٦- خطاب، محمود شيت، بين العقيدة والقيادة، ط١، ١٩٩٨م، دار القلم - دمشق.



- ٢٧- دروزة، محمد عزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ط ١، ١٩٦٩م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- ٢٨- الرفاعي، مصطفى صادق، الإسلام نظام إنساني، ط ١، ١٩٨٩م، دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ٢٩- الرفاعي، مصطفى صادق، كلمة وكليمة، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار ابن حزم.
- ٣٠- الرفاعي، أنور، النظم الإسلامية، ط ١، ١٩٧٣م، دار الفكر المعاصر.
- ٣١- الزحيلي، وهبة، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ط ٥، ٢٠١٢م، دار الفكر المعاصر.
- ٣٢- زعيتر، أكرم، القضية الفلسطينية، ط ٣، دار الجيل للنشر - عمان.
- ٣٣- الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمرو، تفسير الكشاف، دار الحديث - القاهرة.
- ٣٤- السرجاني، راغب، رسائل من قلب الحدث، ط ١، ٢٠١١، دار أقلام للنشر والتوزيع.
- ٣٥- السرجاني، راغب، ماذا قدم المسلمون للعالم، مؤسسة اقرأ - القاهرة.
- ٣٦- السماك، محمد، ومحمد ظافر محبك و أحمد شامية، مبادئ التحليل الاقتصادي الجزئي والكلبي، ط ٢، ١٩٩٨، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع - عمان.
- ٣٧- الشافعي، محمد بن إدريس، الأم، طبعة ١٩٩٠م، دار المعرفة - بيروت.
- ٣٨- شهبان، أسامة، إدارة الدولة (المفاهيم والتطور)، ط ١، ٢٠٠١، دار الشروق عمان - الأردن.
- ٣٩- شوفالييه، جان ماري، معارك الطاقة الكبرى، ترجمة: لميس عزب، ط ١، ٢٠١٠م، كتاب العربية - الرياض.
- ٤٠- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ط ١، ١٤١٤هـ، دار ابن كثير - دمشق.
- ١٤- الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار، مكتبة دار التراث - القاهرة.
- ٤٢- الشيباني، أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ١، ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة.

٤٣- صايغ، يزيد، فوق الدولة (جمهورية الضباط في مصر)، دراسة صادرة عن مركز كارنيغي للشرق الأوسط، ٢٠١٢م.

٤٤- صحيفة يديعوت احرنوت العبرية.

٤٥- الصلابي، علي محمد، الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، دار التوزيع والنشر الإسلامية-مصر.

٤٦- الصلابي، علي محمد، المغول «التتار» بين الانتشار والانكسار، ط ١، ٢٠٠٩م، مكتبة الأندلس الجديدة-مصر.

٤٧- الصلابي، علي محمد، عمر بن الخطاب، ط ١، ٢٠٠٤م، دار الفجر للنشر.

٤٨- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥١١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت.

٤٩- مقال بعنوان كيف هدمت أمريكا بشهرين ما بنته في ٧٠ عاما.

[www.aljazeera.net/.../2015/.../](http://www.aljazeera.net/.../2015/.../)

٥٠- العسكري، أبي هلال الحسن بن عبدالله، الفروق اللغوية، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية-بيروت.

٥١- عمارة، محمد، الإسلام في عيون غربية، ط ١، ٢٠٠٥ دار الشروق-القاهرة.

٥٢- العويني، محمد علي، العلاقات الدولية المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

٥٣- عيسى، محمود، تأملات قرآنية، ط ١، ٢٠١٤م.

٥٤- عيسى، محمود، نظرية المؤامرة في القرآن الكريم، ط ١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، مؤسسة فلسطين للثقافة.

٥٥- غالي، بطرس و د. محمود خير عيسى، المدخل في علم السياسة، ط ٧، مكتبة الأنجلو المصرية.

٥٦- الغزالي، محمد، فقه السيرة، دار الشروق.

٥٧- الغضبان، منير، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ١٩٨٤م، مكتبة المنار-الأردن.

- ٥٨- فرحات، عز الدين، شعراء خلف القضبان، مكتبة العبيكان - الرياض.
- ٥٩- فقه السنة، سيد سابق، دار الحديث - القاهرة.
- ٦٠- مجموعة من المؤلفين، في الاجتماع السياسي والتنمية والاقتصاد وفقه الإصلاح، مدخل لتكوين طالب العلم في عصر العولمة، تقديم: عبدالعزيز القاسم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر - بيروت.
- ٦١- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الجيل - بيروت.
- ٦٢- القرضاوي، يوسف، السياسة الشرعية، ط ٤، مكتبة وهبة.
- ٦٣- القرضاوي، يوسف، فقه الجهاد، مكتبة وهبة.
- ٦٤- القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث - بيروت.
- ٦٥- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط ١٥، ١٩٨٨، دار الشروق - القاهرة.
- ٦٦- قطب، محمد، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، دار الشروق.
- ٦٧- كليبر، مايكل، حروب الطاقة في الشرق الأوسط، ترجمة: محبوب عمر، منشورات شمس، ط ١، ١٩٨٢ م، مؤسسة الإيمان العربية - بيروت.
- ٦٨- الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ط ١، ٢٠٠٦ م، كولونيا/ ألمانيا - بغداد.
- ٦٩- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ط ٨، ١٩٨٥ م، دار الفارابي.
- ٧٠- اللورد، مونغمري، السبيل إلى القيادة، ترجمة وتحقيق: حسن مصطفى، ط ٢، ١٩٦٩ م، دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ٧١- الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٧٢- محمد، علي محمد وعلي عبد المعطي محمد، السياسة بين النظرية والتطبيق، دار النهضة - بيروت.
- ٧٣- الطبراني، المعجم الكبير.

- ٧٤- د. إبراهيم أنيس وزملاؤه، المعجم الوسيط، ط ٢.
- ٧٥- مورجتاو، هانز، السياسة بين الأمم، ترجمة: خيرى حمّاد.
- ٧٦- موقع إخوان أون لاين [www.ikhwanonline.com](http://www.ikhwanonline.com).
- ٧٧- ميكافلي، كتاب الأمير، ترجمة: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا.
- ٧٨- نخلة، خليل، فلسطين وطن للبيع، طبعة ٢٠١١م، ترجمة: عباب مراد، مؤسسة روزا- لوكسمبورغ.
- ٧٩- النصيبي، محمد بن طلحة الوزير، العقد الفريد للملك السعيد، طبعة ١٢٨٣هـ، المطبعة الوهبية- القاهرة.
- ٨٠- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، ط ٢، ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي- بيروت.



## فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء
٧	المقدمة
١٣	الفصل الأول: في علم السياسة
١٠٩	الفصل الثاني: السياسة الواقعية
١٥٣	الفصل الثالث: السياسة الشرعية
٢١٥	الفصل الرابع: دراسة نقدية لكتاب «الأمير» لميكافيللي
٢٩٩	فهرس المصادر والمراجع
٣٠٥	فهرس المحتويات
٣٠٦	كتب وروايات صدرت للمؤلف

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

## محمود عيسى

- ١- ولد الأسير محمود عيسى في أحضان القدس المُحتلة عام ١٩٦٨ م، ونشأ في ساحات الأقصى الجريح، ليعرعر على مصاطب العلم فيها، مستنشقاَ عير زيتونها.
- ٢- انتمى لحركة المقاومة الاسلامية حماس منذ نشأتها، وشهدت له أزقة البلدة القديمة من المدينة العتيقة، صولاته وجولاته مع جنود الاحتلال وشرطته.
- ٣- قاد المجموعة الخاصة في كتائب القسام ١٠١، في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، والتي صفت عددا من ضباط الاحتلال، واختطف الضابط الصهيوني نسيم توليدانو من أجل تحرير الأسرى من سجون الاحتلال.
- ٤- اعتقل محمود عيسى عام ١٩٩٣، وحكم مدى الحياة، ولم يمنعه السجن ومؤبداته الثلاث من الابداع.

كتب وروايات صدرت للمؤلف:

١. المقاومة بين النظرية والتطبيق.
٢. حكاية صابر.
٣. وفاء وغدر.
- ٤- القرآن الكريم ونظرية المؤامرة.
- ٥- تأملات قرآنية.